

لدغة الأفعى

SNAKE BITE



الشاب
YOUNG SHERLOCK HOLMES

شامروك هولمز

أندرو لين

ANDREW LANE



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

لدغة الأفعى

الشاب
شامرون هولمز

The Young Sherlock Holmes:
SNAKE BITE

أندرو لين

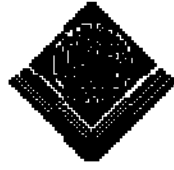
ANDREW LANE

ترجمة

سهى قاسم

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



دار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. sa

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
BITE SNAKE : Holmes Sherlock Young The
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
Books Children's Macmillan

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون،
ش.م.ل.

Lane Andrew by 2013 © Copyright

All rights reserved

Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers , Inc . S .
A . L

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2355-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو

اللكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

تهيد

ربما تكون غرف نادي دياغنز وممراته الأماكن الأكثر هدوءاً في لندن بأكملها. إذ لا يسمح لأي شخص يدخل النادي أن يتكلم إلا داخل السترانجر رومز، وخلف أبواب موصدة. كما أن فريق العمل المكون من الخدم والنُدل، يرتدي أفرادهم ألبسة تنتهي بوسادات مربوطة بأسفل نعال أحذيتهم، مما يتيح لهم التحرك بحرية من دون إحداث أي ضجة. أما بالنسبة إلى الصحف التي تُقرأ في النادي، فهي عبارة عن نسخ خاصة طبعت لأجل رواد النادي على ورق خاص لا يصدر خشخشة عند تقليب الصفحات. وقد وصل الأمر بإدارة النادي في سعيها للحفاظ على الهدوء إلى درجة التطرف؛ حيث عممت على الأعضاء أن كل من يتنحج أو يعطس منهم أكثر من ثلاث مرات في الشهر سيتلقى إنذاراً مكتوباً. ومن يتلقّى ثلاثة إنذارات مكتوبة فلن يعود بإمكانه دخول النادي.

يقدر رواد نادي دياغنز عالياً قيمة الصمت والهدوء. لم يتفوه أميوس غروي بأي كلمة عندما دفع أحد الخدم في ردهة الاستقبال في النادي، والذي صادفه في طريقه وهو يقرأ أرقام الغرف لكي يعرف الغرفة التي ينتظره فيها مايكروفت. ولكن الجميع نظروا إليه باستهجان، إلا أنهم ما لبثوا أن نظروا بعيداً عندما حدق إليهم. بالرغم من صمت غروي، وبالرغم من أن ملبسه بالكاد كانت تصدر صوتاً في أثناء تحركه، وبالرغم من أن نعل حذائه الجلدي بالكاد يصدر صوتاً على بلاط الأرضية، إلا أنه بدا يشع طاقة، وبدا وكأنه يبث غضبه من خلال مسام جلده.

أغلق باب السترانجر رومز خلفه بعنف، حتى إن المفصلات التي تعمل على ضغط الهواء فشلت في امتصاص الصدمة!
وسأل: "ما الذي سمعته؟".

أجفل مايكروفت الذي كان يجلس إلى أحد جوانب الطاولة الرئيسة في الغرفة من صوت إغلاق الباب وأجابه: "لقد أكد لي عملائي أن شارلوك قد خطف من فارنهام، ونقل مخدراً إلى لندن، وهناك ألقى به على متن سفينة تدعى غلوريا سكوت".

عندها سأله السيد غروي: "وماذا ستفعل من أجل تحرير شقيقك - وتلميذي- وإنقاذه؟".

فأجابه مايكروفت: "إنني أقوم بكل ما أستطيع القيام به؛ وهو ليس بالكثير. إنني أخشى أن هذه السفينة تبحر باتجاه الصين. إنني أحاول

تعقبها بالاستناد إلى بيان طريقها؛ كي أتمكن من القيام بعمل يسبق وصولها إلى أحد المرافئ للتزود بالموءن. ولكن بيان طريقها لا يُعتمد عليه؛ لأن السفينة تسير وفقاً لتوصيات القبطان، والمعروف عن قبطانها أنه غريب الأطوار. إلا أنه ووفق معلومات عملائي، إن مسار السفينة يبدأ في لندن وينتهي في شانغهاي؛ قبل أن تعود أدراجها، مع إمكانية توقفها في أي مكان بين نقطة الانطلاق والوصول".

هنا سأله السيد غروي مستفهماً: "وهل أنت متأكد من أن شارلوك لا يزال على قيد الحياة؟".

أجابه مايكروفت موضحاً: "المنطق يفيد بأنه لا يزال على قيد الحياة، وإلا فلماذا خطف وخدر إن كانت لديهم النية بقتله؟ ولماذا سيتحمّلون عناء نقله إلى السفينة؟ فقد كان بوسعهم أن يواروه الثرى في مكان ما في الغابات".

"إذاً، ما الهدف من خطفه؟".

لم يجب مايكروفت لهنيهة، وبدأت تعابير وجهه وكأنها تتم عن شيء أكثر خطورة وجدية: "الجواب عن سؤالك يتوقف على تحديد الجهة التي تقف وراء خطفه".

أجابه السيد غروي وهو يزمجر: "أظن أن كلينا نعرف الجواب".
أوماً مايكروفت وقال: "إنني أكره الوصول إلى نتائج من دون إثباتات، ولكنني لا أستطيع التفكير في أي احتمال آخر. أظن أن منظمة بارادول تشامبر هي التي خطفته".

فأجابه غروي: "ولكن هناك بعض الدلائل؛ ففي طريقه إلى أدنبره، أقسم إنه رأى على رصيف المحطة في نيوكاسل شخصاً يدعى كايت، والذي تبين أنه عميل لبارادول تشامبر. وقد أخبر رافس ستون عنه، والذي أخبرني بدوره. وكلانا نشك في أن بارادول تشامبر قد أبقتة تحت الملاحظة، ولكننا لم نفكر في أنهم سيقومون بأي تحرك عملي".

أوماً مايكروفت مجدداً: "وهذا ما يفسر غضبك؛ وهذا الغضب الذي لا ينصب عليّ بل على نفسك. أنت غاضب لأنك لم تتمكن من توقع الخطر الذي كان يحيق به، ولم تتمكن من تفاديه".

أبعد غروي نظراته، التي كانت تسطع غضباً من تحت حاجبيه الكثين الأبيضين عن مايكروفت وخاطبه قائلاً: "أنت قلت إننا إذا عرفنا من قام باختطافه فسنعلم لماذا اختطفه. ونحن الآن نعلم أن بارادول تشامبر هي التي تقف وراء ذلك. ما الذي تريده منه هذه المنظمة".

"بارادول تشامبر هي... اعذرني، هل تريد القليل من الشراب؟ لا؟ حسناً، إذأ أنت لا تمنع أن أتناول القليل منه عله يساعدني. بارادول تشامبر منظمة تحركها دوافع سياسية. وهي تتمنى تغيير الحكومات من أجل تحقيق أهدافها النهائية، والتي أفترض أنها تتمثل في تحقيق عائدات مالية كبيرة من خلال تجارة الأسهم والأسلحة، بالإضافة إلى أشياء أخرى. لقد سمعت بعضهم يصفون بارادول تشامبر بأنها دولة من دون حدود أو إقليم أو حتى عاصمة. وأنا أعتقد أن هذا الوصف مُعَبَّر. ومن خلال خبرتي القليلة مع هذه المنظمة، نادراً ما يقوم أعضاؤها بعمل ما مدفوعين بدافع واحد؛ فأعمالهم تسعى دائماً لتحقيق سلسلة من الأهداف المتتالية. إذا كنت أريد أن أخمن". توقف وهز رأسه الكبير: "وهذه هواية بشعة لدي على كل حال. إذا كنت سأخمن، فأنا أعتقد أن الأسباب الكامنة وراء عملية اختطاف شارلوك هي أولاً معاقبته على التورط عدة مرات في عرقلة مؤامراتهم، وثانياً من أجل تجنب قيامه بعرقلة المزيد من المخططات، وثالثاً لوضعنا في حالة من الضياع تعيق جهودنا في اكتشاف المزيد من مؤامراتهم".

عندها قال غروي: "ولكن، لماذا لم يقتلوه؟".

"لأن قتل شارلوك سينهي عقابه في ثوانٍ معدودة، ولن يكون بمقدورهم تعذيبه. ولكنه إن كان عالقاً على متن سفينة تمخر عباب البحار بعيداً عن أصدقائه، وعائلته، وأي إمكانية لتناول وجبات شهية فإن هذا يعتبر نوعاً من التعذيب طويل الأمد، ولن يكلفهم شيئاً، كما أنه سوف يعيق جهودنا في البحث عن مؤامراتهم. وهم يعرفون الكثير عني وعنك، ويعلمون أنه في حال مات شارلوك فإننا سنمضي كل لحظة من عمرنا وسننفق كل جنيه نملكه من أجل جلبهم للعدالة".

عندها، همهم غروي قائلاً: "أو سنسعى لتحقيق العدالة بنفسينا؛ وذلك النوع من العدالة يتحقق من خلال فوهات البنادق والمسدسات".
أذعن مايكروفت بهدوء وقال: "لمرة واحدة، يفترض بي أن أوافقك الرأي".

"ألا يمكنك أن ترسل إحدى السفن التابعة للبحرية الأميرالية لتعترض سبيل غلوريا سكوت؟".

هز مايكروفت رأسه وقال: "في الحقيقة، ليست لدي السلطة لإرسال هذه السفن من أجل فتى؛ وحتى إن كان هذا الفتى شقيقي. ولن أقوم بمثل هذا الأمر؛ وإن كنت متمتعاً بالسلطة للقيام بذلك، فلهذه السفن

مهمات أكثر أهمية بكثير، وتتمثل في حماية شواطئنا من أي هجمات، بالإضافة إلى تنفيذ إرادة الملكة في الخارج. علاوة على ذلك، إن حياة فتى واحد لا تساوي شيئاً". تنهد وضم أصابعه على شكل قبضة من لا حول له ولا قوة. "إن هذه المناقشة جعلتنا على اطلاع أكثر على الوضع ولكنها لم تحسنه؛ فليس بوسعنا مساعدة شارلوك، فهو الوحيد القادر على مساعدة نفسه".

"ستكون بمتناول يد شارلوك مصادر أفضل لكي يستخدمها في مساعدة نفسه؛ أكثر مما لو كان محاطاً بأصدقائه وعائلته". هدأت نبرة صوت غروي، وبطريقة ما خمدت الطاقة العنيفة التي كانت تنتشر عبر جسده. "إنه شجاع، ويعرف جيداً قدراته الذهنية، كما أنه يحسن استخدام قبضته جيداً عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. وأنا أعتقد أنه سيبلي حسناً. إنه يعلم أن السفينة ستعود في النهاية إلى لندن، وهذا ما سيعطيه ضماناً بأن البقاء على متنها أكثر أماناً من أن يلقي نفسه في البحر على أمل أن تجده سفينة أخرى وتعود به إلى هنا. أظن أن قبطان السفينة سيمد له يد العون، فغالباً ما يقوم القباطنة بذلك. وأظن أن شارلوك سيقوم بأعمال مجهدة، وربما سيعود إلينا أقوى وأكثر ثقة بالنفس".

عندها، قال مايكروفت بملل: "وهذا لا يمكن مقارنته بنوع التعذيب الذي كانت بارادول تشامبر تخطط له".

ابتسم غروي وقال: "إن الأشخاص المسؤولين في بارادول تشامبر يعيشون حياة مريحة؛ حيث يحيط بهم الخدم ويسعون إلى تحقيق أي نزوة من نزواتهم. وهم يعتبرون أن تقديم الشراب، وإنزال مرساة السفينة نوع من التعذيب، ولكنني أعتقد أن الأمر سيبدو بالنسبة إلى شارلوك مغامرة إن أراد اعتبارها كذلك".

"إنني أتمنى ذلك، حقاً أتمنى ذلك".

فأجابه غروي: "أعتقد أنه يجدر بي المغامرة الآن باحتساء كأس من الشراب، فأنا أسعى وراء نوع من الشراب القوي".

قام مايكروفت بصب كأس من الشراب لغروي؛ مستخدماً الإناء الموضوع على البوفيه.

قال مايكروفت وهو يقدم لغروي كأس الشراب التي احتضنتها يده الكبيرة التي تظهر عليها آثار السنين بوضوح: "سأكتب رسائل، وسأرسلها عبر التلغراف إلى مختلف المرافئ التي ستمر بها السفينة. ويمكنني التأكد من أن الفرق الدبلوماسية سوف تراقبها، ويمكن للفرق الدبلوماسية تبليغه

برسائلنا، وتزويدنا بتقارير عن حالته. كما يمكنه كتابة الرسائل لنا، وتركها في المرافئ التي ستتوقف فيها السفينة، ويمكن لأي سفينة عائدة إلى هنا أن تحملها إلينا.

قال غروي: "لن يعود قبل سنة؛ ربما أكثر أو أقل. فالأمر مرتبط بحالة الطقس والرياح، ولكنني على ثقة من أننا سنراه مجدداً".
أوما مايكروفت: "ولكنني أشعر بالمسؤولية لعدم قدرتي على مساعدته".
وتنفس بعمق، محاولاً أن يتماسك أمام عاصفة من المشاعر القوية التي اجتاحتها فجأة. "بالطبع لن أخبر أُمي؛ فحالتها الصحية لا تسمح لها بتلقي مثل هذه الأخبار. ولن أخبر والدي قبل أن يكون لدي المزيد من الأخبار. وربما لن أخبره على الإطلاق، وسأكتفي بإرسال معلومة لعمتي وعمي في فارنهام أخبرهما فيها أن كل شيء على خير ما يرام؛ فهما سيقلقان عليه".
عندها صّرح غروي: "وأنا بدوري سأبحث عن طريقة أخبر بها فرجينيا بما حدث. بصراحة، إخبارها بالأمر يخيفني، فهي مولعة بشقيقك".
فكّر مايكروفت قبل أن يجيب: "وهو مولع بها أيضاً. لنأمل أن الذكريات التي تجمعهما ستعنيهما على الفراق".

الفصل الأول

كان هناك خط داكن في الأفق، وقد استطاع شارلوك رؤيته عندما نظر عبر الأفق. كانت السماء بمجملها زرقاء صافية. ولكن، كانت هناك ظلال من اللون الأرجواني الداكن التي تشبه الكدمة في السماء. كان بإمكانه أن يتوقع أنها أرض؛ لو لم تكن إلى الغرب من السفينة، وكانت أقرب أرض تقع إلى شرقها.

تساءل إن كان يفترض به إخبار الرفيق الأول السيد لارتشمنت عن الأمر. فقد تعهده السيد لارتشمنت بالحماية، وجعله أحد أفراد الطاقم؛ وذلك بعد أن استفاق ووجد نفسه على متن سفينة تبحر بعيداً عن إنكلترا. وربما يجدر به إخبار القبطان تولوي، ولكنه نادراً ما كان يراه على سطح السفينة. وربما يجدر به إخبار أحد البحارة الآخرين. نظر شارلوك حوله، ولكن الجميع كانوا منهمكين في القيام بالمهمات الموكلة إليهم، وغير مهتمين بما يحصل حولهم؛ تماماً كما كان يفترض به أن يكون؛ أي يمسح أرضية سطح السفينة، ويكنس قطع الخشب الصغيرة بالإضافة إلى ما تفتت من الحبال القديمة وتراكم خلال الأيام الماضية بالإضافة إلى قشرة الملح التي غطت كل شيء نتيجة تبخر رذاذ مياه المحيط بفعل حرارة الشمس القوية. هز رأسه، وعاد إلى عمله في الكنس والمسح؛ فهو البحار الأقل خبرة على متن السفينة، ولا يفترض به لفت انتباه الآخرين فيما لا يرغبون بذلك.

غطّس ممسحة في الدلو، وأخذ يمسح بقعة من السطح تلوثت بدماء أحد البحارة صباح اليوم. فقد كان أحد البحارة يضع إصبعه في ثنية أحد الحبال عندما هب الهواء فجأة دافعاً الشراع، وكذلك الحبل الذي التف على إصبعه وقطعها. وقد قام طبيب السفينة، وهو بالطبع أحد مساعدي السيد لارتشمنت والذي يملك بعض المعرفة الطبية بتنظيف الإصبع المقطوعة وتضميد الجرح، وأرسل البحار الجريج لكي يستريح على الأرجوحة الشبكية مع كوب يحتوي مقداراً مضاعفاً من الشراب، لكي يخدر ألمه. وهذا ما ترك فراغاً في المهمات التي يجب أن تنجز، وكان يعلم أنه يفترض به ملء هذا الفراغ.

فكر لجزء من الثانية، وتعجب كيف تحولت حياته من فتى يعيش في هامبشاير إلى بحار على متن سفينة متجهة إلى الصين. كانت هناك ثغرة في ذاكرته بين اللحظة التي سقط فيها فجأة غافياً في مكتبة عمه في

فارنهام، وبين استيقاظه على متن غلوريا سكوت. إن أفضل تفسير توصل إليه هو أنه خدر ثم خطف، ثم وضع على متن السفينة قبل إبحارها، ولكن من فعل به هذا؟ ولماذا؟

الجواب الوحيد الذي توصل إليه عن هذا السؤال هو أن الذي قام بذلك هو المنظمة الإجرامية التي تدعى بارادول تشامبر. فقد اعترض طريقها مرات عديدة، ولا بد أن هذا هو ثأرها منه.

للوهلة الأولى، فكّر شارلوك بالقفز من السفينة في أول فرصة تتاح له، والسعي وراء إيجاد طريقه إلى دياره مجدداً، ولكن المنطق والتفكير السليم جعلاه يتغلب على شوقه إلى دياره. فقد كانت غلوريا سكوت تعامل أفراد طاقمها بود، وتقدم لهم الطعام والفراش، وكان يعلم أنها ستعود في النهاية إلى إنكلترا. فلو ترك السفينة في أول فرصة عندما ترسو للتزود بالموءن، فسيكون بمفرده في بلد أجنبي، وقد يقع فريسة عدد من الجرائم، وما من ضمانة بأن أياً من السفن التي سيستقلها وتكون عائدة إلى دياره ستكون مريحة كغلوريا سكوت.

تنهد، ودفع بالقاذورات التي كنسها عن السطح باتجاه الحافة. كانت هناك فراغات على درابزين السطح يستطيع من خلالها رمي القاذورات، ومشاهدتها وهي تسقط في المياه. تبعت طيور البحر النوارس والقطرسات- القاذورات لتعرف ما هي، وإن كان بينها ما يصلح للأكل. ولم تلبث القاذورات أن اصطدمت بسطح المياه مرسله رذاذاً أبيض.

نظر شارلوك مجدداً ناحية الأفق؛ حتى يتفحص الخط الداكن، ولكن عينيه التقطتا حركة في أسفل المياه، وشاهد شكلاً رمادياً لامعاً يخترق سطح الماء. كانت سمكة، ولكنها سمكة أكبر حجماً من أستاذه ومعلمه السيد غروي. ولهث من شدة المفاجأة عندما شاهد خمس سمكات أخرى، كلا بل عشر سمكات أو أكثر. كانت الأسماك تخترق سطح الماء متبعة أثر قائدها. كانت الأسماك طويلة وذيلها مسطحة، أما عيونها فكانت كبيرة وداكنة.

قال أحدهم من خلفه: "أتنظر إلى الفتيات؟".

نظر شارلوك إلى الخلف وصاح: "إحداهن تقول إنها زوجتك، وتقول إنك وعدتها بأن ترسل لها نصف أجرك ولكنك لم تفِ بوعدك، وقد أتت لتأخذه".

ضحك البحارة الذين كانوا على سطح السفينة مما قاله. لم يمض وقت طويل على شارلوك قبل أن يدرك أن البحارة يتنمرون على بعضهم بعضاً عبر النكات الشخصية؛ وهذا ما ذكره بالكلاب التي تلدغ بعضها حتى

تعرف القائد بينها. فيفترض بالمرء أن يكون المبادر عندما تكون النكات قاسية، أو أن ينضم إلى حلقة النكات. وقد اتخذ شارلوك الخيار الثاني منذ أن انضم إلى طاقم السفينة، وقد بدا له خياره صائباً؛ فقد تقبلوه. فهو لم يكن في قعر السلم الوظيفي، ولكنه بالمقابل كان بعيداً عن أعلاه، غير أنهم يعاملونه على الأقل على أنه أحدهم.

وقف أحد البحارة ويدعى جاكسون بالقرب من شارلوك الذي أشار إلى الكائنات في الماء، فسأله جاكسون: "يبدو أنك لم تشاهد مثلها من قبل؟".

فأجابه شارلوك: "صحيح. ما هي هذه الكائنات؟ وهل تؤكل؟".
أجابه جاكسون: "إنها تدعى دلافين، ويعتبر قتلها نذير شؤم؛ فهي ترافق السفن، وإن حدث وسقط أحد البحارة عن متن السفينة فإنها تحيط به، وتبقيه طافياً، وتحول دون اقتراب أسماك القرش منه".
فسأل شارلوك مندهشاً: "أسماك القرش؟!".
فأجابه جاكسون: "إنها بمثابة ذئب البحر؛ أسنانها حادة كأسنان المنشار".

"حسناً، سأبذل قصارى جهدي كي لا أقع في المياه. ولكن، إن حدث ووقعت فسأحاول أن أقع عندما تكون الدلافين في الجوار". عندها، استغل الفرصة ونظر إلى الأفق وسأل: "ما هذا؟ يبدو اللون غريباً".
نظر جاكسون إلى الأفق وعبس، ثم أجابه: "نظرك حاد. تبدو بالنسبة إلي وكأنها عاصفة مدارية، ويفترض إعلام السيد لارتشمنت بالأمر. هل تريد أن تذهب لآخباره بنفسك؟".

هز شارلوك رأسه وقال: "أخبره أنت". كان شارلوك يعلم أن السيد لارتشمنت يمتلك لائحة ذهنية بأسماء كل البحارة، وهي تشير إلى مدى نضجهم وجودة عملهم. وترتفع مراتب البحارة وتنخفض في هذه اللائحة وفقاً لما يبذلونه من جهد، وما يُبدونه من حرص، وكيفية إطاعتهم أوامرهم وأوامر القبطان، وكم مرة يتشاجرون على متن السفينة. وكان شارلوك يعلم أن قيامه بلفت انتباه السيد لارتشمنت إلى العاصفة سيزيد نقاطاً إضافية إلى رصيده في تلك اللائحة الذهنية؛ هذا إن كانت حقاً عاصفة، ولكنه قرر منح جاكسون هذه الفرصة؛ فقد أراد أن يوطد أواصر الصداقة معه، إذ ربما قد يحتاج إليه ذات يوم.

عندها، شكره جاكسون وقال له: "لن أنسى صنيعك هذا يا شارلوك ما حبيت".

وتوجّه مسرعاً إلى الجزء المرتفع في الجزء الخلفي من السفينة حيث تقع مقصورة القيادة، وحيث يتواجد السيد لارتشمنت عادة. نظر شارلوك إلى الأفق مجدداً، ولاحظ أن الخط الداكن أصبح أكثر وضوحاً، وأصبح يمتد في الأفق ما يعادل مسافة إصبعين. لقد جعله اللون الأرجواني غير الطبيعي للعاصفة يشعر بالإعياء في معدته، وأحس بنسمة من الهواء الدافئ تهب على وجهه من الناحية التي تتقدم منها العاصفة. وعندما نظر إلى مياه البحر الرمادية المخضرة، لاحظ أن الأمواج أصبحت أعلى، وأن الرغوة التي تعلوها تشبه الرغوة التي تعلو شراب الشعير. صدح صوت أجش على سطح السفينة قائلاً: "ليصعد الجميع إلى السطح". التفت شارلوك فرأى السيد لارتشمنت يقف في الجزء المرتفع الخلفي من السفينة، وجاكسون يقف إلى جانبه. وصاح لارتشمنت مجدداً: "ارفعوا الأشرعة قدر المستطاع، وشدوا وثاق الحبال". عبر صوت لارتشمنت بوضوح السفينة من بدايتها إلى نهايتها. "هناك عاصفة قادمة يا رجال؛ إنها أم العواصف، ويجب علينا تجنبها". وربت على كتف جاكسون وقال له بسرعة: "اذهب وأعلم القبطان بما يحدث". استطاع شارلوك قراءة شفطي السيد لارتشمنت ليفهم ما يقوله؛ إذ لم يكن باستطاعته سماعه بعد أن أخفض صوته.

أجابه جاكسون: "حاضر سيدي". ثم انطلق مبتعداً. فجأة، تحول سطح السفينة إلى منطقة محمومة بنشاط البحارة؛ حيث كان الجميع يتسلقون في كل الاتجاهات. نظر لارتشمنت ناحية شارلوك الذي كان لا يزال يقف في وسط الفوضى وصاح: "أسرع أيها الفتى، تسلق حبال الصواري، وتأكد إن كانت حبال الصارية الأمامية مربوطة بإحكام، وإلا فسأضعك في مركب تجذيف حتى تواجه العاصفة بمفردك".

رد شارلوك قائلاً: "حاضر سيدي". وأسرع إلى أقرب شبكة حبال صواري، وأخذ يتسلقها كالعنكبوت حتى وصل إلى كدسة الأشرعة. كانت الحبال خشنة على بشرته، وأحس بأنه أصبح قريباً من شد عضلاته إلى أقصى حدّ وهو يسحب نفسه إلى الأعلى. ارتفعت السفينة وانخفضت عندما واجهت أمواجاً عاتية. وللحظة، انحنى شارلوك ونظر إلى البحر أسفله مباشرة؛ فقد كادت الأمواج تصل إليه، وتخيل الزبد كما لو أنه مئات الأيدي البيضاء المنبثقة من المياه. صدمه المشهد فتابع التسلق بسرعة.

وصل إلى أسفل صارية، فتسلق وصولاً إلى عارضة الشراع، وقبضت أصابعه بإحكام على الخشب الخشن، وتأكد من أن كل الحبال مربوطة

بإحكام في أعلى العارضة. كانت كلها مربوطة بإحكام، ولم تكن هناك أي إمكانية بأن تفك تحت تأثير العاصفة ما لم يكن الحظ سيئاً على نحو خاص. حافظ شارلوك على قبضته محكمة على الحبال كي يتجنب السقوط، كما ألقى نظرة حذرة على الخشب الخشن كي يتفادى انغراس قطعة صغيرة جداً منه بجلده؛ فقد سبق له أن رأى ما يمكن أن يحدث للبحارة عندما يحصل لهم ذلك؛ إذ يلهب الجرح مكان انغراسها ويتورم حتى يصبح بضعف حجمه الطبيعي. كان متيقناً من أن هناك ألف طريقة وطريقة كي يتعرض المرء للإصابة على متن هذه السفينة. وللحظة، تذكر ما سبق أن قاله له مايكروفت؛ وهو أن الطريقة الأكثر أماناً في الحياة هي أن لا تبارح منزلك طوال الوقت. ولكن، إن قمت بذلك فستشاق لكل أنواع المغامرات. حينها ضحك شارلوك، وفكر بأن أفضل طريقة هي أن يكون أصدقاؤه أطباء، وبهذه الطريقة يضمن أن تصله يد العون والعلاج سريعاً.

شارداً بأفكاره، انزلت يده على بقعة طحالب وجدت طريقها بطريقة ما إلى الحبل، فوجد نفسه يهوي نحو الأسفل. ثبت ساقه بإحكام على عارضة الشراع بأن ثنى ساقه حولها، ولكن وزنه سحبه نحو الأسفل حتى أصبح معلقاً رأساً على عقب، وتلقى صفة على وجهه من قماش الشراع الذي دفعته الرياح، وبالتالي لم يستطع أن يستعيد وقفته الطبيعية. وبطريقة ما، قوس ظهره، وحاول أن يصل إلى ما ظنه العارضة، ولكن يديه قبضتا على الهواء عوضاً عنها.

أحس بساقه تنزلق، وأدرك أنه سيصطدم بثقله بسطح السفينة في أي لحظة.

إلا أن يده اليمنى التقطت شيئاً دافئاً، فتمسكت به بشدة. وعمل شارلوك على تقويم وضعيته، فأمسك حبلًا بيده اليسرى، وعندها تنفس بياس، وفجأة وجد طريقه إلى الأعلى مجدداً. نظر شارلوك إلى الشخص الذي أنقذه، وكان بحاراً شاباً يدعى غيتنس، وقد حلق بشارلوك من حيث كان يجثم متمسكاً بذراعه اليسرى بالصارية.

فما كان من شارلوك إلا أن قال له: "شكراً".

"يا لك من غر!" فجأة، ترك يد شارلوك وتسلق الصارية إلى الشراع التالي من دون أن ينظر خلفه.

ناور شارلوك حتى سحب نفسه إلى الصارية مستخدماً طرف الحبل. وبدا كمن يتدلى من أعلى جذع شجرة وسط هزة أرضية. اهتزت الصارية

إلى الأمام والخلف عندما اصطدمت السفينة بالأمواج، وعندها ألقى شارلوك نظرة نحو الأفق، وتمنى لو أنه لم ينظر؛ فقد كانت العاصفة تتقدم بسرعة نحوهم، وبدت ألوان السماء مخيفة.

كان البحارة الآخرون منهمكين في المهمات الموكلة إليهم. وكان شارلوك يعلم أنه يفترض به القيام بالأمر عينه. لذا، بالرغم من ضربات قلبه المتسارعة، والرعب الذي يشعر به وكأنه جليد يزحف على طول أعصابه إلا أنه تسلق الصارية، وعبر إلى الجانب الآخر من عارضة الشراع لكي يتأكد من الحبال هناك، ثم عاد إلى الصارية الرئيسية، وصار منتقياً بمزيج من رذاذ مياه البحر والعرق، وشعر بألم في عضلاته؛ كمن ركض في سباق الماراتون. بامتنان ولكن بحذر، نزل شبكة الحبال حتى وصل إلى سطح السفينة.

لم يشعر يوماً بالسرور لوجود شيء صلب تحت قدميه كما يشعر الآن.

كان السيد لارتشمنت يقف بالقرب منه، فما كان من شارلوك إلا أن قال: "حبال الأشرعة عند الصارية الأمامية بحالة جيدة يا سيدي".
حدق لارتشمنت بشارلوك وقال له: "عمل جيد. لقد تصرفت كبحار جيد. إن تجاوزنا هذه العاصفة بسلام، ووصلت السفينة قطعة واحدة إلى شانغهاي، فبإمكانك البقاء على متنها إن رغبت في ذلك".
أجاب شارلوك على الفور: "بالطبع أرغب". وهو يفكر في أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستعيده إلى دياره ورفاقه.

ابتعد لارتشمنت بخطوات واسعة، وهو يوبخ البحار التبعيس الذي ترك الحبل يلتف حول أصابعه بسرعة، والذي كان يحدق إلى راحة يده المدممة مصدوماً. صاح به لارتشمنت قائلاً: "ابتعد عن طريقي أيها الأحمق، ودع من يستطيع تدبر الأمر يقوم به". وما إن انتزع طرف الحبل ودفع الرجل بعيداً، حتى التفت ليرى ما يحدث على السطح وصاح: "ثبتوا كل الأبواب والفتحات بعوارض خشبية، وثبتوا كل شيء متحرك، وأنزلوا الخراف والماعز عن السطح كي لا تصبح طعاماً لأسماك القرش".

لفتت قطعة خشب انتباه شارلوك، فنظر إلى الأعلى حيث كانت الصواري تتأرجح والأشرعة تخفق. كانت الأشرعة مشدودة بفعل الرياح، والصواري تكاد تنحني إلى الأمام من جراء الضغط الهائل. اجتاحت كمية كبيرة من الزبد مقدمة السفينة ثم تراجعت إلى الخلف، وترافق ذلك مع سماع شارلوك صوت هسيس ناجم عن اختراق السفينة للأمواج. نظر إلى

الأعلى مجدداً فلاحظ أن اللون الأزرق الصافي للسماء قد تحول إلى ظلال متدرجة من لون معدني غريب، كما لاحظ اختفاء شيء ما؛ فقد اختفت طيور البحر. ربما علمت أن هناك عاصفة قادمة، فحاولت النجاة بحياتها؛ مبتعدة عن مسارها إلى مناطق أكثر هدوءاً، يا لها من مخلوقات حساسة جداً! ففكر شارلوك.

فجأة، بدا سطح السفينة أكثر برودة، واتخذ الضوء أشكالاً منذرة بالسوء. ألقى شارلوك نظرة باتجاه الجزء الخلفي من السفينة، فشاهد غيوماً أرجوانية كانت تحجب نصف السماء، وتناثرت قطرات المطر على وجهه وجبهته. لم تكن قطرات المطر باردة وحادة كما عهدتها في لندن، وإنما كانت دافئة وكبيرة. ثبت شارلوك نفسه على سطح السفينة بأن أحكم قبضته على حبال الصارية. نظر حوله محاولاً أن يستكشف إن كان باستطاعته أن يمد يد العون في مكان ما لشخص ما، إلا أن ما شاهده جعل قلبه ينكمش فجأة من شدة الرعب؛ فقد كانت مقدمة السفينة تندفع جانبياً باتجاه معاكس للاتجاه الذي يندفع فيه مؤخراً وبدأت له السفينة وكأنها تتلوى تحت قبضة الرياح والأمواج العاتية. بالنسبة إليه، لطالما كانت السفينة بنية صلبة متماسكة، ولكنها في هذه اللحظات بدت النقيض تماماً. وفكر: كم هي صغيرة هذه البنية المكونة من خشب وقماش مقارنة مع العالم المحيط بها، وكم هي هشّة أمام جبروت الطبيعة وتقلياتها.

سمع شارلوك صوتاً يناديه: "شارلوك، تعال إلى هنا فوراً".

نظر شارلوك ناحية مصدر الصوت، فقد انبثق من أحد الأبواب الأرضية التي كانت لا تزال مفتوحة شخص يغطي الشعر الأسود وجهه وعينيه. لقد كان الطباخ الصيني هو تشانغ الضخم والمرح وصاحب الشارب الطويل الذي ينسدل من طرفي فمه، والذي كانت آثار بثور الجذري تغطي وجهه. لقد كان صديق شارلوك المقرب على متن غلوريا سكوت، وقد أخذ على عاتقه مهمة تعليم شارلوك بصبر وأناة اللغة الكانتونية التي يتكلمها سكان شانغهاي؛ تلك المدينة التي كانت السفينة تقصدها.

أفلت شارلوك قبضته عن حبل الصاري، وتوجه مترنحاً نحو الطباخ محاولاً أن يتوقع الجهة التي ستميل إليها السفينة.

أمسك الطباخ ذراع شارلوك ليحول دون طيرانه في مهب الريح، وقال له صارخاً: "إنني بحاجة إليك في المطبخ. إن أواني الطبخ والمقالي منتشرة في الأرجاء، وأحتاج إلى مساعدتك".

صرخ شارلوك: "حسناً". وتبعه عبر الباب الأرضي، ونزل على السلم حتى أصبح في باطن السفينة.

كانت الظلال تخفق في ممرات السفينة؛ وذلك وفقاً لحركة صعود السفينة وهبوطها على الأمواج. وكانت الظلال ناتجة عن ضوء الفوانيس المعلقة على الجدران بواسطة كلابات، والتي كانت تتأرجح ذهاباً وإياباً. وقد جعل الضوء المنبعث من الفوانيس كل شيء يبدو أصفر وشاحباً. وكانت الرائحة في الأسفل مزيجاً من رائحة البشر وشحم الحيوانات.

تبع شارلوك الطباخ إلى المطبخ الذي كان عبارة عن غرفة ضيقة تقبع في نهاية أحد الممرات. لاحظ شارلوك أن الموقد كان مطفاً؛ ولو لم يكن هكذا لكانت شرارات النار قد انتشرت بفعل الاهتزاز وتسببت بنشوب حريق. كانت الطناجر النحاسية التي اعتاد الطباخ استخدامها تُعلق عادة على كلابات وتتدلى من السقف، إلا أن معظمها الآن سقط وأخذ يتدحرج على الأرض. أما القدور القليلة التي كانت لا تزال معلقة على الكلابات فقد كانت تتأرجح على نحو خطر.

كانت الخزائن والجوارير في كل زاوية أو مكان فارغ. ولما كانت السفينة تتأرجح من جانب إلى آخر، كانت أبواب الخزائن تفتح وتغلق مجدداً، فيما الجوارير تنزلق إلى الخارج قبل أن تعود إلى مكانها؛ كما لو أن روحاً شريرة تسكنها، وتحاول إحداث أكبر قدر من الضجيج من جراء هذه الحركة. لقد كانت الأصوات تصم الآذان.

دفع الطباخ يده نحو شارلوك وقال له: "خذ هذا". مد شارلوك راحة يده، فوضع عليها الطباخ عشرة وربما أكثر من الأوتاد الخشبية وقال له: "ثبّت بها الجوارير وأبواب الخزائن فوراً".

وبسرعة، بدأ شارلوك بتنفيذ ما طلبه الطباخ متجنباً القدور المتأرجحة في السقف، وأخذ يقحم الأوتاد في الفجوات بين أبواب الخزائن والجوارير، ويطرقها بعقب يده مثبتاً إياها. في تلك الأثناء، بذل الطباخ جهده كي يُنزل ما بقي من القدور؛ متجنباً ارتطامها برأسه، وقام بوضعها في الخزانة الكبرى.

استطاع شارلوك سماع أصوات طقطقة العوارض الخشبية التي تحيط بهما في المطبخ؛ وذلك نتيجة الضغط الذي ترزح تحته، والذي يتسبب به ثقل المياه على السطح. ذات يوم في لندن، شاهد شارلوك عربة خشبية تتحطم عندما انعطفت بسرعة كبيرة وانقلبت على الأرض. وها هو الآن داخل صندوق خشبي كبير ترتبط أوصاله بالمسامير ويكسوه القار، وهو

بعيد جداً عن الشاطئ كي يسبح وينجو بنفسه في حال تحطمت السفينة.
هل هذا ما أرادته بارادول تشامبر حين وضعته على متن هذه السفينة؟ هل هذا هو العقاب الذي اختاروه له؟

عندما ثبتت شارلوك كل الأبواب والجوارير التفت نحو الطباخ. كان صرير عوارض السفينة وأنينها قوياً جداً، وحال دون تكلمهما، فأوماً ورفع كتفيه وهزهما وقال: "أريد الصعود إلى سطح السفينة". في الحقيقة، لم يكن يريد أن يكون في الأعلى، ولكنه لم يشأ أن يظل عالقاً داخل السفينة في حال انقلابها. عندها، أوماً الطباخ، وبدأت ملامح الجدية على وجهه الدائري الذي تغطيه آثار بثور الجدرى، ودفعه مبعداً إياه عن الباب الذي يقود إلى الأعلى، إلا أن شارلوك قاومه. وعندما حاول الطباخ دفعه مجدداً، أمسك شارلوك بمعصمه بإحكام وهز رأسه.

كان من الواضح أن الطباخ يريد أن يكون بمنأى عن العاصفة، ولو كان ذلك يعني بقاءه هنا محتجزاً في الأسفل.

حاول الطباخ دفع شارلوك مجدداً، لكن هذا الأخير هز رأسه وصرخ: "لا". بدا على الطباخ أنه لم يسمع ما قاله شارلوك نتيجة الضجيج، ولكنه تمكن من قراءة حركات شفثيه، وفهم ما يريده، ولذلك ربت على كتفه بحزن. كانت حركته هذه بمثابة وداع. كان من الواضح أن الطباخ لا يتوقع رؤية شارلوك مجدداً.

ابتعد شارلوك عن الطباخ الصيني، وكانت خطواته تتراوح ما بين الركض والتزنج، وتوجه نحو السلم الذي يقود إلى الباب في السقف. وفيما كان يضع قدمه على أولى درجات السلم، التفت إلى الورا، ووجد أن الطباخ قد توارى في إحدى الزوايا، عندها، أخذ يصعد الدرجات مسرعاً، وكان يأمل أن يكون الطباخ مخطئاً، وأن يريا بعضهما مجدداً، وتمنى أن ينجوا بل تمنى نجاة الجميع.

رفع ثلاثة من البحارة الباب الأرضي عندما ضرب عليه برأسه. كان البحارة منتنعين من رؤوسهم وحتى أصابع أقدامهم، وبدأ الإنهاك والفرع على وجوههم. قام أحدهم برفعه، بينما أسرع الآخران لإعادة إغلاق الباب وتثبيتته بالمسامير.

كانت الأمور على سطح السفينة أسوأ مما كانت عليه في السابق، وكان اللون الأرجواني يغطي السماء بكاملها. وقد انخفض مجال الرؤية كثيراً، ولم يعد قادراً على الرؤية على بعد مئة ياردة من السفينة. استغرق شارلوك ثانية أو ثانيتين حتى أدرك أن الأمواج كانت قد أصبحت أعلى من

السفينة، وأن الزبد الأبيض يغطي كل شيء، وأن رائحة الملح النفاذة تعبق بقوة في الهواء. أسرع ليلمسك بأقرب حبل صارية إليه. وبينما كان في منتصف الطريق، مالت السفينة، وأصبح سطحها كالمزقة؛ فانزلق نحو درابزين السطح، حيث ارتطم به بعنف، وكادت ساقه تتحطم، ثم انزلق عبر إحدى فتحات الدرابزين، وكاد يختفي في المياه الهائجة؛ لولا أنه تمسك بإحدى الحلقات النحاسية المثبتة على الدرابزين الخشبي، والتي تساءل دائماً عن سبب وجودها بسبب عدم استخدام أي كان لها، ولكنه الآن امتن لتواجدها، وبحذر سحب نفسه نحو الأعلى، ولف ذراعه الأولى ثم الثانية على الدرابزين، ولم يلبث أن سحب ساقه.

كان قلبه ينبض بعنف في قفصه الصدري، وكادت حنجرتة تنقبض من شدة الخوف. لقد باغتتهم العاصفة بسرعتها المرعبة.

كان البحارة الآخرون مبعثرين على سطح السفينة، وكل واحد منهم متمسك بالحبال كي لا تقذف بهم الأمواج إلى البحر الهائج.

فجأة، لمع البرق خلفه، فقام بشكل تلقائي بالعد واحد... اثنان... ثم دوى صوت مروع في الأرجاء. شعر شارلوك بالدوي عبر خشب الأرضية والدرابزين أكثر مما سمعه. كانت العاصفة على بعد ميلين. كان يعلم ذلك لأن مايكروفت أخبره أن كل ثانية تفصل بين البرق والرعد تعني أن العاصفة تبعد ميلاً.

وإن كانت الحال على ما هي عليه الآن والعاصفة على بعد ميلين، فكيف ستكون الحال عندما يصبحون في وسطها؟

عبر المطر والرذاذ تمكن من رؤية السيد لارتشمنت واقفاً في مقصورة القيادة، كانت ساقاه ثابتتين على أرضية المقصورة، ويداه متشبثتين بالدرابزين؛ حتى إن شارلوك كان بإمكانه أن يقسم إنه بدا وكأنه منبثق من الخشب بحد ذاته، وكان شعره يخفق حول وجهه. لم يبدُ عليه الخوف أو القلق، بل بدا عاقد العزم. كان يحدق إلى الأسفل، إلى وسط السفينة كما لو أنه يتحدى العاصفة أن تشتد أكثر. وشاهد شارلوك شفثيه تتحركان، وبشكل لا يصدق سمع نبرة صوته الأمرة بالرغم من ضجيج العاصفة.

صرخ: "ارخوا الأشعة، أرخوا إن كنتم تريدون أن تروا أمهاتكم وأحببتكم مجدداً!".

ألقى شارلوك نظرة على الأشعة، وسرعان ما فهم ما يرمي إليه السيد لارتشمنت. فقد كانت الأشعة تندفع مشدودة تحت عزم الرياح التي كانت على وشك تمزيقها من الأعلى إلى الأسفل في حال اشتدت أكثر؛ وهذا ما

كان متوقعاً ما دامت الحال على ما هي عليه الآن والعاصفة على بعد ميلين. ولم يقتصر الشد على الأشربة فحسب، بل طال الحبال التي تربطها أيضاً، والتي بدت كأوتار كمان مشدودة إلى أقصى حدّ. كان احتمال تمزق الأشربة كبيراً، وإن لم تتمزق الأشربة فرمما سيحدث الهواء العاصف ضغطاً هائلاً عليها؛ مما يؤدي إلى انقلاب السفينة. ولكن، إن تمكن البحارة من إرخاء الأشربة فرمما هناك أمل بأن تنجو الأشربة من التمزق، وتنجو معها السفينة. صحيح أن السفينة ستكون حينها طافية وتحت رحمة العاصفة، وأنهم لن يعرفوا إلى أي جهة ستدفعهم الرياح، لكن فرصتهم للنجاة من موت محقق ستكون أكبر.

اندفع البحارة على نحو مفاجئ من أماكنهم الآمنة على سطح السفينة، وتوجهوا إلى حيث كانت الحبال مشدودة. لم يكن شارلوك متأكداً إن كان تحركهم خوفاً من السيد لارتشمنت أم من العاصفة، أم لأنهم كانوا يعلمون أنهم بتصرفهم هذا يزيدون من احتمال نجات أرواحهم. ولكن، أياً يكن السبب، فقد انتزعوا الحبال المربوطة بالكلابات والسنادات، وقام اثنان أو ثلاثة منهم بحلّ الحبال، ثم قاموا بإعادة ربطها مجدداً ولكن بشدة أقل. ولكن، على الفور عصفت رياح شديدة بالحبال والأشربة مجدداً. غير أنها لم تلبث أن عادت وارتخت قبل أن تُشد مجدداً، وهلم جرّاً. من مكانه عند الدرايزين، عاد شارلوك بالذاكرة إلى سنة خلت أو أكثر، عندما استيقظ ليجد نفسه في غرفة نوم في قصر فرنسي تعود ملكيته للبارون موبرتس. كان يظن أنه في فارنهام، وعندما أبعد الستائر صدم كثيراً إلى حدّ أن لسانه عقد من المنظر الخلاب للجبال في الخارج. وفجأة، عاد إلى الواقع، وحدق إلى الجبال أمامه بذهول، ولكن هذه الجبال كانت من الماء بخلاف الجبال التي عقدت لسانه في فرنسا، وكانت أقرب إليه من سابقها الفرنسية. كانت قريبة جداً، إلى درجة أنه كاد يلمسها.

فجأة، صدمته ضخامة العالم الذي يحيط به وعظمته. وأحس بدفق من الابتهاج يسري عبر جسده، مستبدلاً الذهول العجيب بحالة الخوف التي كانت مسيطرة عليه.

لقد أيقن كم تبدو فارنهام صغيرة، وكم هي لندن صغيرة؛ فقد كان هناك الكثير في العالم لم يره بعد. وتساءل كيف يستطيع شقيقه احتمال البقاء محتجزاً ضمن جدران منزله وناديه ومكتبه متنقلاً بينها بواسطة عربة مقفلة، بينما باستطاعته مشاهدة الروائع في العالم؟

كانت السفينة ستصبح في عين العاصفة بعد ساعة تقريباً. ولكن

العاصفة بالنسبة إلى شارلوك كانت قد فقدت قوتها وقدرتها على التأثير في عواطفه. فمنذ هذه اللحظة أصبح مشاهداً. فقد تلاشت كل مشاعر الخوف والتعب والألم والغضب التي كانت تعصف في نفسه من غضب الطبيعة بشكل لا يصدق. فهو لم يعد مهتماً بحقيقة أن غلوريا سكوت كانت تتقاذفها الأمواج وكأنها ورقة شجرة عند حافة شلال، ولم يعد مهتماً بالبرق الذي ضرب الصارية الرئيسة مرتين وترك عليها حروقاً كبيرة جعلت رائحة الحريق تنتشر في الأرجاء، كما أنه لم يعد مهتماً بالمياه التي تغطي سطح السفينة والتي أخفت ألواح السطح أسفلها؛ حيث لم يعد هناك ما يشير إلى وجود الأبواب الأرضية والصغيرة إلا تدافع المياه وتناثره حولها نحو الأعلى. كل ما سبق لم يعد يهمه. لقد بدا له البحارة - وكذلك السفينة- بمثابة نمل يواجه شيئاً كبيراً لا يمكن إيقافه ولكنه جميل.

تأرجح بين النوم وحالة من التنويم المغناطيسي؛ فقد كانت عيناه مفتوحتين ولكنه لم يكن يرى بهما.

وعندما استعاد وعيه، وجد أن العاصفة قد خمدت، وأن البحارة يتحركون ويشدون الحبال، ويفكون العوارض التي ثبتوا بها الأبواب، ويعدون المياه عن السطح باتجاه البحر. لقد عادت السماء لتصبح زرقاء صافية مجدداً، وعادت الطيور البحرية لتخلق خلف السفينة مجدداً منتظرة الطعام الذي سيلقى به من السفينة. وكان السيد لارتشمنت يقف على بعد أقدام عدة من شارلوك، وسأله: "هل استمتعت بغفوتك الصغيرة؟".

كان شارلوك يعلم ما يتوقعه منه السيد لارتشمنت كجواب، فقال: "إنني مستعد للمهمة سيدي".

فأجابه السيد لارتشمنت: "إنني مسرور لسماعي ما تقوله". ونظر إلى الأعلى ناحية الصارية وقال: "إنني أرى أن بعض الحبال مرخية. سأكون ممتناً لك لو قمت بشدها".

أجابه شارلوك: "على الفور سيدي". وتوجه مباشرة نحو الحبال، ولكنه التفت نحو السيد لارتشمنت قبل أن يتابع طريقه، ونظر إليه للحظة وسأله: "كم بحاراً خسرنا سيدي؟".

هز لارتشمنت رأسه بحزن وأجابه بهدوء: "لقد خسرنا الكثير من البحارة. كانوا جميعاً رجالاً أشداء".

الفصل الثاني

بالرغم من الأمور المرهقة التي قام بها في اليوم السابق، استيقظ شارلوك باكراً، واستلقى على أرجوحته الشبكية، وتقلب من جهة إلى أخرى. كان الظلام يغمر المنطقة المخصصة للنوم، والتي كانت بالكاد أعرض من ممر؛ حيث ثبتت كلابات على جدرانها، وعلقت عليها الأرجوحات. أصغى شارلوك هنيهة للضجة الخفيفة التي كانت مسموعة في خلفية الهدوء، والناجمة عن صرير الأخشاب، وأصوات تقلب البحارة من جنب إلى آخر على أرجوحاتهم، وشخيرهم أو تمتماتهم أثناء النوم، بالإضافة إلى أصوات تخبط الرجال في أثناء صعودهم أو نزولهم عن أرجوحاتهم.

إن الأعمال لا تتوقف على متن غلوريا سكوت إطلاقاً، وهي تستمر على مدار الساعة؛ بالطبع عبر تناوب البحارة على القيام بالأعمال، فعندما تنتهي نوبة عمل، يخلد الفريق الذي كان يعمل إلى النوم ويحل فريق آخر مكانه. وكانت أصوات قرع الأجراس تنبئ بانتهاء نوبة عمل وبدء أخرى. كان لا يزال هناك القليل من الوقت قبل بدء نوبة عمل شارلوك.

أخيراً، انزلق عن أرجوحته، وارتدى ملابسه؛ تلك الملابس التي ارتداها بالأمس، وفي اليوم الذي سبقه، وفي كل الأيام الخوالي التي أمضاها على متن السفينة منذ اختطافه. وكانت مياه الأمواج التي تبلغ في بعض الأحيان سطح السفينة تغسلها وهو مرتدٍ إليها. زحف شارلوك أسفل صف من الأرجوحات الشبكية، والتي بدت له على نحو غريب شبيهة من الأسفل بأشعة السفينة بأشكالها المنتفخة نتيجة ثقل أوزان أجساد المتمددين عليها، ثم تابع طريقه نحو المطبخ.

لم يكن هو تشانغ الطباخ الصيني هناك، بل كان هناك بحار آخر مكانه ويدعى سكوي، وكان شاحباً. كان سكوي يعد أطباقاً من مزيج البسكويت القاسي وعصيدة الشوفان واللحم المجفف. ملأ شارلوك طبقه وجلس على مقعد شاغر، وسرعان ما بدت عليه السخرية مما يقوم به سكوي، وأخذ يتساءل عما حل بالطباخ الصيني هو تشانغ؛ فقد شاهده للمرة الأخيرة عندما احتفى في باطن السفينة محاولاً النجاة من العاصفة، وتساءل إن كان قد أصابه مكروه؛ ربما صدم رأسه بإحدى العوارض بينما كانت السفينة تتمايل من جهة إلى أخرى تحت وطأة ضغط الأمواج وعصف الرياح.

دفع شارلوك طبقه الفارغ بعيداً ووقف، وبسرعة جاء بحار وجلس

مكانه. عندها، توجه شارلوك إلى حيث يقف سكوبي وسأله: "أين هو؟". فرد عليه سكوبي: "هو تشانغ!". وكان هناك بحاراً صينياً آخر يدعى هو على متن السفينة: "إنه على سطح السفينة، يؤدي نوعاً من الرقص الغريب".

أحس شارلوك بالراحة عندما سمع ما تفوه به سكوبي. في الحقيقة، لم يكن هو تشانغ صديقه، ولكنه كان أحد البحارة الذين يهتم لأمرهم. فلو مات هو تشانغ، من سيقوم بتعليمه اللغة الكانتونية.

توجه شارلوك إلى السلم وصعد إلى السطح، جعله الضوء الساطع يغمض عينيه ويفتحهما ريثما تتأقلم عيناه مع الضوء الساطع، وبعدئذ، نظر حوله متفحصاً الأضرار التي خلفتها العاصفة، ولكنه لم يجد لها أثراً. فالأشعة كانت في أماكنها، وكانت العوارض والصواري سليمة، كما أن السطح كان جافاً كحاله قبل هبوب العاصفة. وكان كل واحد من أفراد الطاقم الذي يؤدي نوبته يقوم بعمله على نحو طبيعي. فبالرغم من العنف الذي رافق العاصفة بالأمس، كان لدى شارلوك انطباع بأن العواصف المدارية تحدث في الغالب، وهي ليست شيئاً غريباً بالنسبة للبحارة المتمرسين؛ فهم يتعاملون معها في وقت حدوثها بأقصى درجات الحيط والحذر، ولكن عند انتهائها ينسون أمرها.

كان هو تشانغ يقف في وسط السفينة، وكان يوازن ثقله على ساقه اليمنى المنحنية، فيما ذراعه اليمنى مرفوعة ومثنية خلف رأسه؛ حيث كانت تحتضن الرأس من الخلف. أما ذراعه اليسرى فكانت ممدودة بشكل يتلاءم وساقه اليسرى، في حين أن أصابع راحة يده اليسرى التي كانت باتجاه الأعلى كانت مضمومة. كانت وضعية هو تشانغ تضع الكثير من الضغط على ظهره وساقه اليمنى، ولكنه حافظ عليها لدقيقة وربما أكثر، قبل أن ينتقل ببطء إلى وضعية أخرى.

بينما كان شارلوك يراقبه، اتخذ هو تشانغ سلسلة من الوضعيات؛ فبدأ كتمثال يتحرك ببطء. وكما قال سكوبي، بدت حركاته وكأنها نوع من الرقص الغريب، ولكنها في الحقيقة كانت أكثر من رقص، فقد لاحظ شارلوك أن هناك حركات تتكرر في كل وضعية، وخاصة حركات الدفاع والهجوم. فقد بدا له هو تشانغ وكأنه متورط بقتال بطيء مع شخص غير مرئي.

في النهاية، اتخذ هو تشانغ وضعية مستقيمة، وجعل ذراعيه تستريحان إلى جانبية، وأخذ يتنفس بعمق ولكن ببطء، وألقى نظرة إلى حيث كان شارلوك يقف.

سأله بالإنكليزية: "هل كنت تشاهد تماريني؟".
فأجابه شارلوك: "نعم. ما الذي كنت تتمرن عليه؟".
ابتسم هو تشانغ وأجابه: "هل يمكنك أن تخمن؟".
فردّ عليه شارلوك: "أظنه نوع من القتال يشبه الملاكمة، ولكنه يختلف عنها. أظنه نوع من الملاكمة في مواجهة الظلال".
عندها، أوماً هو تشانغ، وانحنى قليلاً إلى الأمام نحو شارلوك وقال له: "جيد جداً. يظن معظم الناس أنني أرقص بشكل سيئ".
"ولكن، لم يسبق لي أن رأيتك تتمرن قبلاً؟".
"لأنك لم تستيقظ باكراً من قبل. إنني أتمرّن كل يوم لمدة ساعة".
عندها، سأله شارلوك: "لماذا؟".

تقدم هو تشانغ نحو شارلوك وقال له: "إنه سؤال جيد. الملاكمة في بلادك نوع من الفنون القتالية، يتعلمه الرجال لضرب الرجال الآخرين. ولكن في بلادي، تاي تشي تشوان نوع من الفنون يتعلمه الأولاد ليشعروا بالسلام الروحي، ولكي يسيطروا على أجسادهم".

فسأله شارلوك مستفهماً: "تاي تشي تشوان؟!".
فأجابه هو تشانغ: "إنها تعني القبضة التي لا حدود لها".
عندها، طلب منه شارلوك أن يخبره المزيد، فأوماً له هو تشانغ باتجاه منطقة فارغة من سطح السفينة وقال له: "إذاً، لنجلس هناك، فهناك الكثير من الأشياء لأخبرك بها، وأنا لم أعد شاباً كما كنت".
عندما جلسا على سطح السفينة وصالبا سيقانهما بدأ هو تشانغ التحدث بينما كان شارلوك يصغي باهتمام: "أريد أن أخبرك أن هناك أسلوبين مختلفين للقتال في الصين. أحدهما يدعى وادانغوان، ويقوم على تحريك الذراعين بشكل واسع، ويفترض بممارسيه التمتع بالنشاط، وهو مرتبط بكل ما له علاقة بالجسد. أما الأسلوب الثاني فيدعى شالينغوان، وهو يستند إلى العقل وقدرته على التحكم بالجسد". هنا توقف واستنشق بشكل ساخر وتابع: "الذين يمارسون النوع الأول يفيضون قوة ونشاطاً، ولكن الناس الذين لا يتمتعون بمستويات عالية من النشاط يستنفدون طاقتهم بسرعة. أما ممارسو النوع الآخر فهم على عكس ممارسي النوع الأول فهم يسعون وراء هدوء الجسد والعقل والنية".

أجابه شارلوك قائلاً: "لم أفهم".
فرد عليه هو تشانغ قائلاً: "حسناً، هذه هي البداية". وتوقف قليلاً ليستجمع أفكاره ثم تابع: "لقد سبق لي أن أخبرتك عن الصين. ولكن،

يجب عليك أن تعرف المزيد عن الصين والصينيين قبل أن تصل إليها". نظر هو تشانغ إلى البحارة حوله وقال: "كل هؤلاء الرجال حمقى؛ فهم لا يعيرون اهتماماً بالمكان الذي يذهبون إليه؛ إذ يظنون أن الأماكن كلها متشابهة؛ أي إن الطعام واللغة ونوع البشر هي عينها في كل مكان. إنهم لا يعيرون اهتماماً للاختلاف، فهم لا يعرفون أو بالأحرى لا يرغبون إلا بالأشياء المتماثلة. ولكنك مختلف عنهم؛ إنك تبحث عن الاختلاف وتهتم به، كما أنك أشد ذكاءً من سائر البحارة".

أجابه شارلوك: "نعم". وهو غير متأكد مما يرمي إليه بكلماته هذه: "إننا في الصين نعتقد أن كل الأشياء مترابطة. وإن طراً تغيير على أحدها فسوف تتأثر بهذا التغيير سائر الأشياء".

تابع هو تشانغ الحديث، وتابع شارلوك الإصغاء، ولكنه لم يكن متأكداً من أنه يفهم ما يقوله هو؛ إلا أنه أظهر اهتماماً وتفاعلاً مع معتقدات هو تشانغ، ووجد شارلوك نفسه مأخوذاً بفصاحة صديقه الصيني وبلاغته. وفي فرصتين، عمد هو تشانغ إلى الانتقال من اللغة الإنكليزية إلى الكانتونية عندما لم تسعفه مفرداته الإنكليزية في التعبير، إلا أن شارلوك وجد نفسه لا يزال قادراً على متابعة المحادثة بالرغم من ذلك. لقد فهم شارلوك أن تاي تشي تشوان نوع من فنون القتال التي تقع بين التأمل والعراك، وهو ما وجد فيه انعكاساً عميقاً للديانة المتبعة في الصين.

في النهاية، عندما نفدت الكلمات من هو تشانغ، أو بالأحرى عندما لم يعد لديه ما يقوله لشارلوك، طرح عليه هذا الأخير سؤالاً فاجأه: "هل يمكنك أن تعلمني؟".

فرد عليه هو: "إنني أعلمك الكانتونية، فهل تريد أن أعلمك الطهو أيضاً".

ابتسم شارلوك وقال له: "كلا، لا أريد أن تعلمني الطهو، بل تاي تشي تشوان".

عندها، حدق هو تشانغ بشارلوك لفترة طويلة وسأله: "أتريد أن أعلمك القتال؟".

انتبه شارلوك للخدعة التي انطوى عليها السؤال فأجابه: "أريدك أن تعلمني كيف أسيطر على جسدي بواسطة عقلي".

ابتسم هو تشانغ ورد عليه: "هذا جواب جيد من فتى جيد. سأعلمك ما تريده، وبالإضافة إلى ذلك سأعلمك القتال".

بدأ الطقس يصبح أكثر حرارة شيئاً فشيئاً مع استدارة السفينة حول

رأس الرجاء الصالح، وتوجهها نحو خط الاستواء. وعادت السماء صافية، وسفعت الشمس سطح السفينة والبحارة معاً، فيما أخذ الخشب يصر ويطلق نتيجة جفافه، فيما بدأت البثور تظهر على ظهور البحارة وأكتافهم. كما عاد الهدوء لمياه البحر، وعادت الدلافين لتواكب السفينة كما كانت تفعل سابقاً؛ كما لو أنها كلاب حراسة. وتمكن شارلوك من ملح كائنات أخرى تسير بموازاة السفينة أسفل الأمواج. وكانت سوداء وكبيرة جداً، إلا أنها لم تكن تصعد إلى السطح، وتساءل إن كانت هذه أسماك القرش أم حيتان، أو ربما كائنات أخرى لم تعطَ اسماً بعد. لم يكن يعرف جواباً عن تساؤلاته، ولكنه كان يتوق للجواب.

أصبحت الأيام تشبه بعضها بعضاً. فعندما لا يكون نائماً أو يعمل، كان يعزف على الكمان، أو يتعلم الكانتونية من هو تشانغ، أو يتدرب على حركات تاي تشي تشوان البطيئة. كان يتدرب كل صباح، ولاحظ أثناء تدريبه على هذه الحركات البطيئة أنه لو قام بتسريعها فهي تصلح لكي تكون وسيلة دفاع ممتازة، كما يمكنها أن تكون وسيلة هجوم أيضاً؛ فإن تمكن من صدّ الضربات فيأمكنه توجيهها نحو من أطلقها. ولاحظ أنه عندما بدأ بالتمرن على هذه الحركات كانت عضلاته تصرخ ألماً نتيجة التمدد الذي تتعرض له. ولكن، مع مضي الأيام، لاحظ أن جسده أصبح معتاداً على هذه الحركات ولا يتألم منها، بل أصبح يطبقها بشكل تلقائي، ومن دون أي اجتهاد.

وأخذ يتساءل عن سبب عدم وجود شيء شبيه بتاي تشي تشوان في انكلترا؛ فالفن القتالي الأقرب إليه هو الملاكمة. ولكن ما علمه إياه هو تشانغ أكثر فعالية بمراحل. وأخذ يتساءل عن أنواع الفنون القتالية الأخرى، وإن كان لكل دولة نمطها وطريقتها الخاصة في الفنون القتالية.

عندما كان شارلوك يعمل كان يركز في عمله جيداً، ولا يبالي بأي شيء آخر يحصل حوله. ولكن في أوقات فراغه صباحاً أو مساءً، لاحظ أن القبطان تولوي كان يقف في الجزء الخلفي من السفينة ويحدق إلى السماء، مستخدماً آلة نحاسية بدت له وكأنها شيء بين المنظار ومجموعة من البوصلات. تذكر شارلوك أنه سبق له أن قرأ عن الإبحار، وقرر أن الآلة التي يستخدمها القبطان لا تعدو عن كونها آلة السدس.

عندما كانت السفينة تمخر عباب المياه، كان الأفق ينبثق كخط بعيد يفصل بين درجتين من اللون الأزرق. كان من الصعب عليه التصديق أنهم يتقدمون؛ فرمما كانت السفينة مستقرة في مكانها في وسط المحيط، وربما

كان الإحساس بالحركة والتقدم لا يعدو عن كونه وهماً تتسبب به حركة الأمواج والإحساس بحركة الهواء على وجوههم. إلا أن الأشعة المنتفخة كانت وحدها الشيء الذي يشير إلى أن هناك شيئاً واقعياً يحصل، وأنهم يتقدمون إلى الأمام.

بمرور الأيام، وجد شارلوك نفسه يشارك أكثر فأكثر في الغناء، فبعد أن يتلقى البحارة حصصهم من الشراب الذي وجده شارلوك لزيداً، كانوا يتجمعون ويبدأون بالغناء. وأصبحت مهاراته المتطورة في العزف مطلوبة أكثر؛ حتى إن أحد البحارة الذي يدعى فيدلر أعاره آتته الموسيقية وتنحى جانباً. لقد ساعدته ذاكرته الممتازة على حفظ كلمات الأغاني من المرة الأولى التي يسمعها فيها، وقد كان متفاجئاً من امتلاكه صوتاً وصفه الجميع بالجميل والعذب.

ولاحظ شارلوك أيضاً أنه كانت تمضي أوقات طويلة قد تصل إلى ساعة من دون أن يفكر فيها بدياره وأصدقائه وشقيقه ومحبوبته. وعندما كان ذلك يحدث، كان يسأل نفسه إن كان قد تأقلم مع الوضع وتقبل فكرة أن يكون بعيداً عنهم، أم إن كانت هذه حالة طبيعية تحدث مع الجميع ويعمد من خلالها الدماغ إلى تجنب الأمور التي تدفعه إلى الشعور بألم الفراق؟

ذات صباح - ولكن شارلوك لا يعرف كم كان هذا الصباح بعيداً عن اليوم الذي حصلت فيه العاصفة- جمع السيد لارتشمنت البحارة على سطح السفينة، ووقف في مكان عالٍ يتيح له رؤية الجميع ويتيح للجميع رؤيته، وخاطب البحارة قائلاً: "كانت رحلة طويلة حتى الآن، ولا تزال أماننا مسافة لا بأس بها يفترض بنا اجتيازها، ولكن القبطان تولاوي يرى أننا أصبحنا على مرمى حجر من جزيرة سوماطرة، وهو ينوي الرسو في ميناء سابان. تخضع سوماطرة وبالطبع سابان لسلطة الهولنديين، وهذا إن عنى شيئاً فهو يعني أننا نستطيع التلذذ ببعض الطعام الشهي. يقبل الناس في سوماطرة التعامل بالنقود البريطانية، وهذا يعني الكثير بالنسبة إليكم؛ فباستطاعتكم إنفاق ما يحلو لكم من نقودكم لشراء أي شيء أو التمتع بأي شيء. لقد سبق لبعضكم أن زاروا سومطرة، أما الذين ستكون هذه زيارتهم الأولى لها فأود أن أخبرهم أن سابان تعتبر بمثابة وكر جردان موبوء بكل أنواع الأمراض المدارية؛ حيث إن العفن يمكن أن يجتاح أصابع أيديكم وأرجلكم في غضون يوم واحد، وأنه من الأفضل لكم البقاء على متن السفينة بدلاً من الترحل إلى الشاطئ. إلا أن الشيء الأسوأ من سابان

هو الأدغال التي تغطي سائر أجزاء سوماطرة. إنني لا أقول ما أقوله كي أحول بينكم وبين اليابسة، ولكن لكي تكونوا على بينة من أمركم وتتوخوا الحذر. سترسو السفينة في الميناء ليومين، وسنقوم بتحميل حمولة من حبوب البن، وسنقل مسافراً هولندياً في طريقنا إلى الصين". نظر إلى أفراد الطاقم الذين بدا عليهم السرور الواضح عبر البريق الذي ملحه في عيونهم وتابع: "هذا كل ما لدي. عودوا إلى أعمالكم، وتوقفوا عن التفكير في العذارى السوماطريات؛ على الأقل حتى نلمح اليابسة أمامنا". استدار السيد لارتشمنت وعاد إلى مقصورة القيادة، وسمعه شارلوك يقول بصوت منخفض أكثر من ذلك الذي كان يتحدث به مع البحارة: "وجّه السفينة خمس درجات إلى اليمين، ثم حافظ على المسار ثابتاً".

في اليوم التالي، لاحت اليابسة في الأفق، وبدأت كخط متقطع يعلو الأفق وشبههاً بالعاصفة. ولكن، بدل أن يأمر السيد لارتشمنت بالابتعاد عنها، أمر بمواصلة المسير حتى بلوغ اليابسة. وتعجب شارلوك أشد العجب من كيفية تمكن القبطان من التفريق بين اليابسة والعاصفة. ولكن، كلما دنت السفينة من اليابسة أكثر تأكد له صواب قرار السيد لارتشمنت؛ فقد كان ما يتوجهون إليه هو اليابسة، وليس عاصفة.

وما بدا للطاقم من بعيد تلالاً، بدا لهم كلما اقتربوا أكثر جبلاً يكسوها غطاء نباتي كثيف.

تقدمت السفينة ببطء نحو سابان، وقد استقبلتهم حشود الأطفال الملوحين بأيديهم على رصيف الميناء. وبالمقارنة مع ميناء داكار؛ الميناء الأخير الذي رست فيه السفينة قبل سابان، بدا ميناء سابان صاخباً، وكان الناس يتحركون فيه في شتى الاتجاهات، ويقومون بكل الأعمال. كان الرجال يلفون ملاءات ذات ألوان زاهية حول خصورهم، وبعضهم يرتدون سترات تغطي صدورهم. أما النساء فكن يلففن أجسادهن بملاءات زاهية الألوان تغطي كامل أجسادهن؛ بعكس الرجال الذين كانوا يغطون خصورهم وما تحتها فقط. وهذا ما كان محبطاً بالنسبة للبحارة.

بعد أن رست السفينة، كانت أولى مهام القبطان والسيد لارتشمنت البحث عن حمولة حبوب البن، وقد سمحا للبحارة بالترجل. وفي غضون لحظات، كانت غلوريا سكوت فارغة إلا من بحارين تركا لحراستها، بالإضافة إلى هو تشانغ الذي أثر النوم.

نزل شارلوك على السلم المتحرك مذعوراً؛ تماماً كما كانت حاله في داكار. فقد رأى أن التحرك على سطح ثابت مربك، وقد استغرقه الأمر

بضع ساعات قبل أن يرتاح من الدوار. نظر إلى الرجال الذين يسرون على رصيف الميناء وعلى الطرقات، وكان باستطاعته أن يميز البحارة ممن ليسوا كذلك؛ فالبحارة كانوا يناضلون من أجل عدم الترنح يميناً ويساراً بعد مكوثهم فترة طويلة في عرض البحر.

كان رصيف الميناء مزروعاً بالرافعات المصنوعة من القصب؛ التي صنعت بجمع القصبات معاً، وربطها معاً بحبال محلية الصنع. ولكن، بالرغم من ذلك بدت متداعية مقارنة مع الرافعات المتينة الموجودة في لندن وساوثهامبتون. وتساءل كعادته عن عدد المرات التي انهارت فيها هذه الرافعات تحت ثقل أوزانها، وعن عدد الرجال الذين أصيبوا من جراء ذلك. خلف الرافعات، لاحظ شارلوك وجود أكشاك تبيع شتى أنواع الأطعمة والسلع من ملابس وسكاكين وآلات موسيقية ودمى خشبية. وبعد أن عانى من كمية الطعام المحددة على متن السفينة، قرر أن يلقي نظرة على ما تقدمه هذه الأكشاك من أطعمة. وعندها، تذكر شارلوك نصيحة مايكروفت التي كانت بعدم الاستعانة بخدمات أول حوذي يصادفه عندما يريد القيام برحلة. فتقدم شارلوك قرب الأكشاك متخطياً بعضها، ثم ما لبث أن توقف عند أحدها.

كان الرجل الذي يدير الكشك قصيراً وأسمر البشرة وأسود الشعر، واستقبل شارلوك بابتسامة، وبدا لشارلوك أن فم الرجل يحتوي من الأسنان أكثر مما لدى سائر البشر. قدم له البائع عوداً فيه قطعة من اللحم مغطاة بصلصة بنية وقال له: "إنها لذيذة، جرّبها".

نظر شارلوك إلى الطعام المقدم له بريية وسأل البائع: "ما هذا؟". أجابه الرجل: "ساتي بونورغو؛ إنه نوع من لحم الماعز المغطى بالصلصة".

عندها، عبس شارلوك وتقدم إلى الكشك التالي وتحدث مع البائع، فقدم له البائع طعاماً قال له إنه مغطى بصلصة الفول السوداني. هز شارلوك كتفيه، فهو لم يسبق له أن تناول لحم الماعز في إنكلترا - بالرغم من أنه يعتقد أنه لا يختلف كثيراً عن لحم الحملان - ولكن سبق له أن تذوق الفول السوداني عندما كان في نيويورك قبل سنة. عندها، دفع بقطعة نقود نحو البائع، وجرّب اللحم بصلصة الفول السوداني.

قضم شارلوك قطعة اللحم، وللحظة لم يشعر بطعم اللحم ولا الفول السوداني، ولكنه ما لبث أن شعر بطعم حريف على شفته، واحتار بأمره؛ أبيضق الطعام أم يتلعه؟ وفي النهاية قرر ابتلاعه كي لا يحبط البائع،

وحينها شعر بحرق في منطقة المريء .

في تلك الأثناء، أضاف البائع جملة يفترض أنها اعتراضية وقد تأخر في التفوه بها وقال : " إن الصلصة مصنوعة من الفول السوداني والفلفل الحار واللايم، أتريد شراباً يبرد جوفك وفمك؟ إن شراب جوز الهند فعال جداً في مثل هذه الحالة ."

عندها، أجابه شارلوك قائلاً : " كلا لا أريد . وأنا أقدر كثيراً طريقتك في تسويق شرابك للزبائن . إنها حقاً طريقة رائعة ومبتكرة ."

سار شارلوك وهو ينتظر أن يهمد الحريق الذي يشعر به في فمه . وبعد قليل، أحس بوخز في قفا عنقه . لقد أحس بأن أحدهم ينظر إليه أو بالأحرى يراقبه . لم يكن يعتقد بوجود حاسة سادسة تخبره بوجود شخص ما يحدق إليه من الخلف، ولكنه كان مستعداً للاعتقاد بها الآن؛ لأنه لمح بطرف عينه شخصاً يراقبه عند ناصية الشارع، كما أن جزءاً من دماغه أخبره بضرورة توخي الحيلة والحذر . استدار شارلوك، وجعل عينيه تطوفان في الأرجاء وتمسحان حشد البحارة الهولنديين والإنكليز والمحليين خلفه .

كان أحد الرجال يرتدي بذلة بالية من الكتان، وقميصاً منتعماً بالعرق، ويعتمر قبعة من القش، ولكن أغرب شيء في مظهره كان ذلك الوشاح الأسود الشفاف الذي يغطي شعره ووجهه؛ وقد بدا بذلك الوشاح أشبه بالنحالين . لقد كان الوشاح ملفوفاً بشكل غير محكم حول رقبتة ربما بسبب الرطوبة والحر .

كان الرجل منحنياً ومستنداً إلى عصا، وبدا واضحاً أنه يحدق إلى شارلوك؛ بالرغم من أن الوشاح الأسود كان يجعل رؤية أي شيء من الرجل أكثر من شكل رأسه أمراً صعباً . وكان رأسه مصوباً بوضوح نحو شارلوك . سأل الرجل شارلوك : " هل يمكنك مساعدتي؟ " . شعر شارلوك بقشعريرة تسري في جسده عندما تذكر أنه يمكن أن يكون مراقباً من قبل أحد عملاء بارادول تشامبر . وما إن طرح الرجل سؤاله حتى تقدم إلى حيث يقف شارلوك . في تلك الأثناء، كان التوتر يزداد لدى شارلوك . وقف الرجل على بعد عدة أقدام من شارلوك، وبادره بسؤال آخر : " هل تعمل على متن غلوريا سكوت؟ " . كان صوته رقيقاً كصوت المزمار .

وحين أوماً شارلوك، تابع الرجل كلامه وقال : " أدعى أرينيوس؛ جاكوب أرينيوس . سأكون مسافراً على متن سفينتكم . من فضلك، هل يمكنك أن تخبرني كيف يمكنني أن أجد القبطان ."

فرد عليه شارلوك : " إنه في الوقت الحاضر على الشاطئ، يبحث عن حمولة من حبوب البن . أعتقد أنه يعتزم العودة عما قريب، يمكنك انتظاره ."

أجابه أرينيوس : " شكراً لك، سأنتظره في ظل الجسر الخشبي المتحرك ". عندها، نظر إلى السماء؛ أو على الأقل كان ذلك هو الاتجاه الذي تحرك إليه رأسه، فقد كان من المستحيل معرفة ما كان ينظر إليه بدقة بسبب الوشاح الذي يغطي وجهه . حينها قال أرينيوس : " أنا والشمس لسنا على وفاق؛ لسنا على وفاق إطلاقاً ". ثم التفت إلى البعيد، ونظر إلى الخلف مجدداً؛ حيث يتمكن من رؤية شارلوك وقال : " أنت تعرف اسمي، ولكنك لم تعرفني باسمك بعد ."

فأجابه شارلوك : " أنا شارلوك . أدعى شارلوك هولمز ". عندها خاطبه أرينيوس قائلاً : " سررت بالتعرف إليك ". ومد يده اليمنى التي كان يغطيها قفاز جلدي أسود يصل إلى داخل كفه، حيث لم يستطع شارلوك رؤية بشرة الرجل إطلاقاً . صافح شارلوك يد الرجل بحذر، فقد أحس بأن اليد التي يغطيها هذا القفاز الجلدي الناعم ليست يداً عادية .

قال أرينيوس قبل أن يتحرك مبتعداً : " سأراك مجدداً ". لم يكن شارلوك متأكداً إن كان هذا وعداً باللقاء أم تهديداً . راقب شارلوك الرجل وهو يبتعد، وما لبث أن اختفى بين الحشد . بعد فترة، مل شارلوك من الأكشاك؛ فقد أنهكه الحر والرطوبة، وأخذ يفكر في إمكانية الذهاب إلى المدينة لاستكشافها أو في العودة أدراجه إلى السفينة، وفي النهاية، قرر العودة إلى السفينة . فهو لن يستطيع البقاء لوقت طويل في سابان . كانت العودة إلى السفينة باكراً ستتيح له متابعة التمرن على العزف واللغة الكانتونية بالإضافة إلى دروس تاي تشي . عندما وصل شارلوك إلى السلم المتحرك، وجد الرصيف صاخباً، وشعر بدغدغة على بشرته كما شعر سابقاً عندما شاهد أرينيوس للمرة الأولى . كان أرينيوس في مكان ما يراقبه مجدداً، وأخيراً رصده جالساً في ظل شجرة نخيل . وعندما أدرك أرينيوس أن شارلوك قد اكتشف مراقبته له انحنى قليلاً وأوماً له .

بعد دقائق قليلة، عاد السيد لارتشمنت والقبطان تولاوي من اجتماعاتهما في سابان . وشاهد شارلوك من حيث يقف على السطح السيد أرينيوس ينبثق من الظل لتحتيتهما . لم يتمكن شارلوك من سماع ما

يقولونه، ولكن لم يبدُ الاستغراب على القبطان والسيد لارتشمنت من الوشاح الأسود الملفوف حول وجهه، أو من القفاز . ربما لأنه سبق لهما مقابله، أو لأن أحداً ما أخبرهما عنه سابقاً .

صعد الرجال الثلاثة الجسر الخشبي المتحرك واختفوا في أعماق السفينة، واعتقد شارلوك أنهم قصدوا قمرة القبطان . بعد نصف ساعة، وصلت عربة تجرها الثيران إلى جانب السفينة، فظهر أرينوس على سطح السفينة وأخذ يراقب عملية نقل حمولة العربة إلى السفينة . عندها، استنتج شارلوك أن الحمولة هي متاع السيد أرينوس .

لقد بدا الهولندي مهتماً بشكل خاص بأحد الصناديق الخشبية، والذي كان يحتوي على فتحات في أعلاه . فقد نزل أرينوس الجسر المتحرك، وسار خلف العمال المحليين الذين كانوا ينقلونه إلى السفينة . فجأة، غيرت الرياح وجهتها، وهبت نحو شارلوك الذي شمَّ رائحة غريبة تنبعث من الصندوق . الا أن الصندوق سرعان ما اختفى عبر أحد الأبواب الأرضية الصغيرة التي افترض شارلوك أنها تؤدي إلى مقصورة الرجل، وعندها اختفت الرائحة الغريبة .

بعد قليل، أتت عربات أخرى؛ ولكنها أكبر من العربة التي نقلت متاع السيد أرينوس، ثم ربطت العربات بالحبال إلى الرافعات القصبية التي رفعتها في الهواء وأنزلتها على سطح السفينة . لا بد أن هذه العربات محملة بحبوب البن التي أشار إليها السيد لارتشمنت سابقاً .

استغرقت عملية رفع العربات إلى سطح السفينة وإنزالها، ثم نقل حمولتها إلى مخازن السفينة ما تبقى من النهار، وجزءاً من اليوم التالي؛ فيما تابع شارلوك التمرن على العزف ودراسة اللغة الكانتونية وممارسة تمارين تاي تشي . وقد قام بعض البحارة والسيد لارتشمنت بتناول الطعام على سطح السفينة مع بعض الهولنديين المحليين . ولما لم يكن لدى هو تشانغ الكثير ليقوم به فقد أخذ يهتم بشارلوك وبتدريسه وتدريبه .

في منتصف اليوم الثالث، بدأ البحارة بالعودة إلى السفينة فرادى وأزواجاً . لم يكن شارلوك يعرف بعض البحارة الذين جاءوا، فخمن أن القبطان والسيد لارتشمنت قاما بتوظيفهم بدلاً من البحارة الذين قضاو نحهم في أثناء العاصفة؛ ربما كانوا رجالاً انكليزيين أو هولنديين تركتهم سفينة سابقة هنا . عند العصر، كان الطاقم بأكمله على متن السفينة . وبعد أن وقّع السيد لارتشمنت بعض الأوراق على رصيف الميناء، رُفعت المرسة، وفكّت الحبال التي كانت تربط السفينة بالرصيف، وبدأت السفينة

بالمناورة للخروج من مياه حوض الميناء .
في تلك الأثناء، فكّر شارلوك في أن المحطة التالية للسفينة ستكون
شانغهاي .

عمت مشاعر مختلفة السفينة . فقد كان البحارة سعداء وتواقين
للوصول إلى وجهتهم الأخيرة؛ وهذا يعني أنهم أصبحوا قريبين من المكان
الذي ستعكس فيه السفينة وجهتها عائدة إلى إنكلترا، حيث خلف معظم
البحارة عائلاتهم وراءهم . وقد شكّل وجود البحارة الجدد عاملاً في إشاعة
هذا الشعور، وبالطبع حصل الانسجام سريعاً بين البحارة الجدد وسائر أفراد
الطاقم بمن فيهم شارلوك .

لقد أمضى السيد أرينيوس جل وقته على سطح السفينة محدقاً إلى
الأفق . وقد صادف أن مر شارلوك مرة أو مرتين بالقرب منه فأوماً له
وحياه . بدا من الواضح أن سائر البحارة يتجنبونه، وقد وصلت إلى
مسمعي شارلوك في أمسيات الغناء همهمات حول أن السيد أرينيوس ليس
كائناً بشرياً، بل إنه عفريت متنكر خلف الوشاح الأسود . إن حالة التوتر
التي أصابت أفراد الطاقم من جراء هذه الهمهمات دفعت السيد لارتشمنت
إلى عقد اجتماع للبحارة، سعى خلاله إلى طمأننتهم بصوته الأجرس، موضحاً
لهم أن السيد أرينيوس شخص بشري مثلهم تماماً، ولكنه عانى سابقاً من
مرض شوّه بشرته، ولذلك يخفيها خلف الوشاح .

كان السيد أرينيوس يتناول وجبته دائماً في مقصورته . وكان الطباخ
هو تشانغ يرسل له الطعام مرتين في اليوم، والطعام الذي يرسل إليه عادةً
كان أفضل نوعية من الطعام الذي يتناوله أفراد الطاقم، فكان ذلك سبباً
آخر للهمهمة بين البحارة . ولكن شارلوك وجد ذلك الأمر طبيعياً، فأرينيوس
في النهاية مسافر يدفع مقابل سفره، وليس عاملاً على متن السفينة .

بعد ثلاثة أيام من مغادرة السفينة سومطرة، طلب الطباخ هو تشانغ
من شارلوك أن يوصل بعض الطعام إلى مقصورة السيد أرينيوس، وكانت
صينية الطعام التي نقلها قد وُضِعَ عليها طبقان؛ أحدهما عبارة عن يخنة
دجاج، أما الآخر فكان سمكاً نيئاً . سار شارلوك مرتبكاً عبر ممرات السفينة
حتى وصل إلى المقصورة التي يقيم فيها السيد أرينيوس . عندها، نقر على
الباب بإحدى يديه، وحاول أن يوازن الصينية بيده الأخرى، وانتظر ريثما
يفتح أرينيوس الباب .

بدا أن وصول شارلوك قد فاجأ أرينيوس؛ فهو لم يكن معتمراً قبعته،
أو واضعاً وشاحه، فرأى شارلوك وجهه ورأسه خاليين من الشعر، ولكنها لم

يكونا الشيين الوحيديين اللذين يثيران الاستغراب فيه . فالشيء الأكثر إثارة للاستغراب فيه كان لون بشرته؛ فقد كانت فضية مزرقة، وعندما سطع ضوء مصابيح الممر على وجه الرجل، لاحظ شارلوك أن بياض عينيه كان باللون ذاته . لقد بدا الرجل وكأنه تمثال معدني دبت فيه الحياة، فما كان من شارلوك إلا أن أجفل وخطا إلى الخلف .

قال الرجل : " نعم " . بصوت أعلى من النبرة التي يتذكر شارلوك أن الرجل يتكلم بها .

فأجابه شارلوك : " لدي بعض الطعام لك سيدي " .

حدق أرينوس إليه : " نعم، أنت ذلك الفتى الذي يعمل على السطح أليس كذلك؟ " .
" نعم سيدي " .

" لقد اعتاد الطباخ الصيني أن يجلب لي الطعام " .

" إنه مشغول جداً اليوم، لذا طلب مني أن أجلب لك الطعام بالنيابة عنه " .

" جيد جداً " . بدا أرينوس منزعجاً، من دون أن يعلم شارلوك السبب .

سأله شارلوك : " هل تريد مني أن أضع لك الطعام على الطاولة؟ " .
" كلا . فقط أعطني الصينية " .

سلمه شارلوك الصينية وهو يقف عند عتبة الباب، واستدار ليغادر، ولكنه لمح بطرف عينه شيئاً يتحرك . بدا له وكأنه شيء بحجم كلب، مر بسرعة واختفى في الظل خلف ظهر السيد أرينوس . وعندما مر الشيء، سمع شارلوك صوت نقر، فنظر إلى أرينوس كما لو أنه يسأله عن مصدر الصوت، ولكن الهولندي حدق إليه وعلى وجهه تعبير واضح يشير إلى أنه يريد أن يغادر . تراجع شارلوك متفاجئاً، فيما أغلق الباب خلفه .

مر فيدلر بالمكان الذي كان شارلوك يقف فيه، فأمسك به شارلوك من كفه وسأله : " هل يملك المسافر الهولندي أي نوع من الحيوانات الأليفة " .

عبس فيدلر : " من؟ ذلك الكائن الجهنمي؟ " . وهز رأسه متابعاً : " ليس على حد علمي . ولكن إن كان لديه، فلا بد أن يكون قد جلبه من قعر جهنم " .

فرد عليه شارلوك : " شكراً لك، لقد ساعدتني بما فيه الكفاية " .
وبينما كان يتعد، ارتطمت قدمه بشكل عرضي بشيء على الأرض

أصدر صوت خشخشة . انحنى شارلوك ليرى ما ارتطمت به قدمه . وللحظة، ظن أن ما رآه سناً وقعت من فم أحد البحارة؛ إذ كان هذا الأمر شائعاً مع البحارة، ولكن ما وجده كان شيئاً فضياً لامعاً بلون بشرة أرينيوس .

التقطه شارلوك، كان كوزي الشكل، ومقوساً نوعاً ما، وبدا أن هناك ثقباً يعبره . لم تكن لديه أي فكرة عن ماهيته، لذا وضعه في جيبه على أمل أن يتفحصه لاحقاً . وإذا أعلن أحدهم أنه فقد شيئاً فعندها سيعيده إليه بعد أن يساومه .

في وقت لاحق من النهار، رصد أحد البحارة شيئاً في الأفق، وقام بتحذير السيد لارثشمنت على نحو طارئ .

فقد صاح من مكانه عند حبال الصواري : " أشرعة ! هنالك أشرعة في الأفق !".

كان شارلوك يعمل إلى جانب غيتنس طوال الوقت؛ يسحبان الحبال البالية، ويقطعانها إلى قطع صغيرة، ويقومان بوضعها في الفراغات بين ألواح السفينة للحيلولة دون مرور المياه عبرها . لذا عندما سمع شارلوك صراخ البحار نظر إلى الشاب داكن البشرة وسأله : " ما المشكلة في وجود سفينة في الأفق؟ فكل أنواع السفن تعبر المحيط، ولم يسبق لنا أن تلقينا مثل هذا التحذير قبلاً".

أجابه غيتنس بوجه كالح : " نحن في جنوبي بحر الصين، والقراصنة الصينيون يعبرون المياه، ويسلبون أي سفينة يجدونها في طريقهم، ويختطفون أي شخص يبدو لهم مهماً ويطالبون بفدية لإطلاق سراحه". " وإذا لم يجدوا شخصاً مهماً، ماذا يحدث؟".

عندها، باح له غيتنس بما يشبه السر وقال : " سمعت قصة ذات يوم من بحار كبير كان على متن سفينة هاجمها القراصنة الصينيون الذين قاموا بالبحث في السفينة معتقدين أن القبطان كان يخبئ نوعاً من المجوهرات في مكان ما . وعندما لم يجدوا مبتغاهم، قاموا بربطه بين صاريتين؛ فقد ربطوا حبلًا حول إبهام يده اليمنى، وربطوا حبلًا آخر حول الإصبع الكبيرة لقدمه اليسرى، ورفعوه بين الصارية الأمامية والخلفية، وتناوبوا على امتطائه وكأنه أرجوحة".

قال شارلوك ببساطة : " آه". ولكنه كان مشمئزاً من الوصف الوحشي الذي قدمه غيتنس .

عندها، ابتسم غيتنس ابتسامة عريضة كاشفاً عن أسنانه السوداء : "

إنهم يبدأون عادة بالأصغر سنًا، وأنت أصغر من على السفينة ".
فرد عليه شارلوك : " ثم يأتي دورك بعدي ".
نظر شارلوك إلى حيث كان السيد لارتشمنت يقف عند الدرابزين
محدثاً بواسطة المنظار . عندها، التفت السيد لارتشمنت، وبدا التعبير على
وجهه حالكاً، شبيهاً بالعاصفة التي نجوا منها منذ فترة .
وقال مؤكداً : " هناك أشعة في الأفق . إنهم القراصنة أيها الرجال،
استعدوا للقتال ".

الفصل الثالث

مرّ السيد لارتشمنت بالقرب من شارلوك وغيتنس وهو ينقر بأصابعه، وقال لهما: "أنتما أرياني أنكما لا تزالان على قيد الحياة، واجلبا الأسلحة من المستودع، وقوما بتوزيعها على أفراد الطاقم". وقام بسحب مفتاح صدى كان معلقاً بحبلٍ متدلٍ من رقبته، وأعطى غيتنس إياه، وتابع: "اذهبوا الآن بسرعة، وسوف أرسل لكما البحارة كي تزوداهم بالأسلحة. وعندما تنفذ منكما الأسلحة زوداهم بأوتاد التثبيت. وعندما تنفذ هذه أيضاً زوداهم بالسلاسل والخطافات".

ما إن ابتعد السيد لارتشمنت ليصرخ على بحار آخر حتى سأل شارلوك: "مخزن أسلحة! لم أكن أعلم أنه يوجد مخزن للأسلحة على متن السفينة؟".

ضحك غيتنس بهرارة وقال: "لا تسرح بأفكارك، إنه ليس مخزناً كالذي تسمع أنه موجود في السفن الحربية الأميرالية. فهو لا يعدو عن كونه خزانة صغيرة بالقرب من مقصورة القبطان، والأسلحة عبارة عن أشياء جمعت أثناء الرحلات خلال العامين الماضيين؛ فهناك بعض السيوف والسكاكين، وبنديتان صدئتان يمكن أن تنفجرا بين يدي من يستخدمهما في أقرب وقت عند يبدآن بإطلاق النار منهما. كما أن هناك بعض الفؤوس التي تستخدم في تقطيع الحطب والحبال، وهناك شائعات تفيد بأن القبطان يمتلك مسدساً حربياً اشتراه من إحدى الأسواق، وهو يحتفظ به تحت وسادته تحسباً لحصول أي تمرد". ضحك غيتنس مجدداً، إلا أن ضحكته لم تبدُ ضحكة شخص مسرور، وتابع: "كما يفترض بناء إحصاء سكاكين الطباخ هو تشانغ أيضاً، والتي أمل أن تكون مشحوذة كعادتها".

عندها، قال شارلوك بقلق: "ولكن كل هذه الأسلحة غير كافية لمحاربة القراصنة. ألا يوجد مدفع على السفينة أو شيء من هذا القبيل؟".

فرد عليه غيتنس: "إننا على متن سفينة تجارية تنقل البضائع وليس على متن سفينة حربية، والمدفع ثقيل ويحتل مساحة واسعة يمكن أن نستخدمها في تكديس البضائع. وأفضل فرصنا تتمثل بفرد الأشرعة والانطلاق بأسرع ما يمكننا؛ علّنا نتمكن من تجنب القراصنة".

عندها، عبس شارلوك وقال: "ولكن السفينة محملة بالبضائع إلى أقصى حدّ، وهذا ما سيجعلها بطيئة". ونظر حوله قبل أن يتابع: "يجب أن يأمر السيد لارتشمنت برمي البضائع كي تصبح السفينة أخف وزناً وأسرع حركة،

فما من طريقة أخرى تجعل السفينة أسرع".

كان يتوجه إلى الأمام نحو السيد لارتشمنت، عندما سمعه يصرخ على البحارة كي يفتحوا الأشرعة ويشدوا وثاق الحبال، فما كان من غيتنس إلا أن أمسكه من ذراعه وهمس له: "لا تكن أحمق. لم نقطع نصف المسافة حول العالم من أجل رمي حمولتنا أمام أول مشكلة تواجهنا. فالقبطان يجني المال من الحمولة التي ينقلها، وهو يفضل إلقاء نصف البحارة في البحر على رمي الحمولة. البحار يكلفه عشرة فاردينغات (نوع من العملة الإنكليزية القديمة) ويمكن أن يحصل عليه من أي ميناء، ولكن خسارة الحمولة تعني خسارة المال". نظر باتجاه البحر وتابع: "بالاستناد إلى ما سمعته عن القراصنة الصينيين، سأكون أول من يقفز من السفينة ما إن يصلوا إليها. فأنا أظن أن لدي فرصة أكبر بالنجاة وأنا أتصارع مع أسماك القرش".

سحب غيتنس شارلوك معه إلى أول باب في أرضية السفينة، ودخلا معاً إلى باطنها. سار غيتنس في الأمام مبيناً الطريق لشارلوك، حتى وصلا أمام باب غرفة في وسط الممر لم يلاحظها شارلوك من قبل. كان البحارة يتجاوزونهما ويدفعونهما، وقد بدت على وجوههم علامات القلق. وسرعان ما اصطف البحارة في طابور أمام باب ما يسمى مخزن الأسلحة؛ ربما لأن السيد لارتشمنت طلب منهم ذلك. وعندما تمكن غيتنس من فتح باب المخزن، لاحظ شارلوك أن البحارة قد دفعوا بأنفسهم نحو جدار الممر. حينها، شاهد شارلوك القبطان تولوي يسير في وسط الممر بخطوات واسعة، يعلو وجهه تعبير يوحي برباطة الجأش. ولكن شارلوك تمكن من ملاحظة القلق المختبئ خلف هذا التعبير.

كان القبطان يؤرجح مسدسه بيده، وقال، وهو يسير من دون أن يوجه حديثه إلى شخص معين على وجه التحديد: "تشجعوا يا شباب. لن ندع هؤلاء البرابرة يستولون على حمولتنا. سوف نقاتل حتى آخر رجل، وسيحصل كل من يقتل قرصاناً على شلنغ".

أصدر صف البحارة صوتاً ينم عن استعدادهم للقتال، وأحس شارلوك أنهم يتساءلون عن سيكون آخر واحد منهم.

فتح غيتنس الخزانة، فشهد شارلوك داخلها، سيوفاً وسكاكين، وكان بعضها صدئاً. أوماً غيتنس نحو شارلوك كي يقوم بسحبها والمباشرة بتسليمها للبحارة الواقفين في الطابور، فيما قام غيتنس بسحب حزمة من القماش المبتل بالشحم من داخل الخزانة وفتحها، فرأى شارلوك مسدساً قديماً

وطويل الماسورة، ولاحظ أن الفلاحين في فارنهام كانوا يمتلكون أسلحة أحدث من هذا المسدس يستخدمونها في إفزاع الطيور.

لم يبدُ له الأمر مما شاهدته جيداً، وأحس بعقدة تشتدّ في معدته. كان من الطبيعي أن يشعر بهذا الألم، فهو لم ينجُ من العاصفة المدارية كي يموت في وسط المحيط بعيداً آلاف الأميال عن كل ما يحبه! فقد كان لديه شيء يجب أن يقوم به في دياره، شيء يخص فرجينيا.

بعد أن وُزعت الأسلحة، أقفل غيتنس الخزانة، واحتفظ لنفسه بسكينين وضعهما تحت حزامه. إحداهما كانت قصيرة وعريضة وكان مقبضها مصنوعاً من الجلد، أما الثانية فكانت شفرتها معقوفة وحدها متموج. كان شارلوك متأكداً من أنها لم تكن سكيناً إنكليزية.

وبينما كان غيتنس على وشك الصعود على السلم، قدم السكين الأولى لشارلوك، وقال بجلافة: "خذ هذه السكين، فرما ساعدتك عندما لن يساعدك أي شيء آخر غير الصلاة".

في الأعلى، كان من الواضح أن التوتر قد بلغ أشده، وبدا بمثابة سحابة من الدخان تخيم على الجميع. كان الرجال موزعين إلى مجموعتين؛ انتشر أفراد الأولى على حبال الصواري أو كانوا يسحبون الحبال على سطح السفينة، فيما كان أفراد المجموعة الثانية متجمعين عند جانب السفينة وهم يحملون أسلحتهم أو ما أطلقوا عليه اسم أسلحة. وكان باستطاعتهم جميعاً رؤية أشعة السفينة التي تتقدم نحوهم. انضم شارلوك إلى مجموعة الرجال المسلحين، وانسل بين الأجساد المرصوفة جنباً إلى جنب كالودودة حتى وصل إلى الدرابزين. كانت سفينة القراصنة تعبر الأمواج بسرعة، وكان رذاذ المياه يتطاير ويصل إلى وجه شارلوك. منذ عشرين دقيقة كانت السفينة عند الأفق، ولكنها الآن أصبحت قريبة منهم، وقد مد شارلوك رقبتة كي يتمكن من الرؤية بوضوح من بين الأجساد المتراسة.

لم يسبق لشارلوك أن رأى سفينة تشبه سفينة القراصنة القادمة، فقد كان هيكلها مقوساً حيث كانت مقدمتها ومؤخرها يرتفعان باتجاه الأعلى، وكانا أعلى من المياه. أما وسط السفينة فكانت مياه الأمواج تغطي أكثر من ثلاثة أرباع ارتفاعه. وكانت الأشعة ذات اللون البني المحمر غريبة التصميم؛ فقد كانت متغضنة مثل المراوح الورقية، ولم تكن شبيهة بالأشعة التي اعتاد رؤيتها، والتي تكون ملساء وتنتفخ من جهة واحدة عندما تهب عليها الريح. كان من الصعب رؤية مؤخر السفينة بوضوح، ولكن مما رآه يمكنه القول إن دفتها كانت أكبر من دفة غلوريا سكوت، وكانت تحتاج

إلى ثلاثة رجال أو أربعة لتحريكها. أياً يكن المبدأ الهندسي الذي اتبعه المهندسون في تصميمها، فمن المؤكد أنه يختلف بشكل جذري عن المبادئ المتبعة في بناء السفن في إنكلترا.

كما استطاع شارلوك أن يشاهد رجالاً متجمعين على جانب السفينة القادمة، وكانوا يحملون سيوفاً ويلوحون بها فوق رؤوسهم.

ما إن شاهد شارلوك ذلك حتى انقبضت أصابعه على مقبض السكين الجلدي؛ بالرغم من أنه كان يعلم أن فائدته الدفاعية لا تساوي شيئاً.

جلبت الرياح التي هبت من جهة مقدمة السفينة معها أصوات القراصنة الذين كانوا يرددون أغاني الحرب.

وفيما كان شارلوك ومن معه يشاهدون القراصنة، كانت المطاردة مستمرة. وعلى الرغم من استعمالهم كل قطعة متاحة من الأشعة، وشدهم الحبال إلى أقصى درجة، إلا أن السفينة المهاجمة كانت تجسر المسافة الفاصلة بينهما بسرعة هائلة؛ إلى درجة أنه كان باستطاعته رؤية وجوه القراصنة، ومشاهدة الوشوم على أجسادهم. فنصف القراصنة تقريباً كانوا صلعاً، في حين أن النصف الآخر منهم كان شعرهم طويلاً ومسترسلاً إلى حدود أكتافهم، أو مضمفوراً ومرفوعاً فوق رؤوسهم.

كان صوت السيد لارتشمنت أعلى من صوت أغاني القراصنة التي تأتي مع الرياح وقال: "اصمدوا يا شباب، لاحقاً سنضحك عندما نتذكر هذه المغامرة ونحن نحتسي الشراب في أحد مقاهي شانغهاي".

لكن شارلوك لم يكن متأكداً من إمكانية تحقق توقعات السيد لارتشمنت؛ فسفينة القراصنة مبنية لكي تكون سريعة ورشيقة الحركة على عكس غلوريا سكوت التي كانت بطيئة وترزح تحت ثقل حمولتها. فقد كانت سفينة القراصنة تتقدم وكأنها كلب صيد سلوقي في غمار سباقه مع كلاب أخرى لالتقاط الفريسة، بينما بدت غلوريا سكوت كلباً، ولكنها كلبة حامل في أيامها الأخيرة قبل الوضع.

انتبه شارلوك إلى أن الطباخ الصيني هو تشانغ كان يقف إلى جانبه، وكان يحدق بجمود إلى سفينة القراصنة.

قال هو تشانغ بهدوء: "هذه السفينة تدعى بلختكم أليكن، إلا أننا لا نطلق عليها- نحن الصينيين- الاسم نفسه. فهي سفينة سريعة، بل إنها أسرع من أي سفن أخرى. وقد استخدم الصينيون هذا النوع من السفن منذ آلاف السنين، في الوقت الذي كانت الشعوب الأخرى تقف فيه عند شواطئ البحار مفكرة في طرائق تمكنها من عبورها.

عندها، سأله شارلوك: "ماذا سيفعلون بنا إن تمكنوا من إلقاء القبض علينا؟".

فأجابه هو تشانغ: "بالتأكيد سيسرقون حمولتنا. وإذا كان لدينا الكثير من الركاب المسافرين فسيخطفونهم من أجل الحصول على فدية من السلطات في شانغهاي لقاء إطلاق سراحهم. ولكن، بما أننا لا نمتلك سوى مسافر واحد فلا أعتقد أن موضوع الفدية سيهمهم؛ لأنهم لن يجنوا من ورائه مالاً وثيراً. هؤلاء البحارة غريبو الأطوار، ويعتقدون بالخرافات، فقد ينظرون إلى وجه ويرمونه بالبحر".

"وماذا سيحل بالباقيين؟".

"إن كنا محظوظين فسيحتجزوننا في قارب من دون أشعة، وسيتركونا في عرض البحر من دون طعام".

وعندها سأله شارلوك: "وإذا لم نكن محظوظين؟". ولكن شارلوك لم يكن راغباً بمعرفة الجواب.

وكان واضحاً أن هو تشانغ لا يعرف الجواب عن سؤال شارلوك، أو لا يريد أن يعرفه إلا أنه قال: "ربما يمكننا أن نعرف الجواب بعد قليل". فأجابه شارلوك: "ولكنك صيني مثلهم وتتكلم الكانتونية، ألا يمكنك التفاهم معهم؟ من المؤكد أن هناك شيئاً ما يمكنك أن تقدمه لهم كي يتركونا وشأننا".

هز هو تشانغ رأسه وقال: "صحيح أنني أتكلم لغتهم نفسها، ولكنني لست مثلهم. قد تحمي حقيقة كوني صينياً حياتي وقد لا تحميها. ولكن وجودي على متن السفينة معكم سيجعلني ألقى مصيركم وربما مصيراً أسوأ؛ لأنني تركت ديارى وأعمل مع الغرباء الأشرار. كما أنه ما من شيء يمكنني أن أقدمه لهم ولا يمكنهم الحصول عليه بأنفسهم".

نظر شارلوك إلى الأسفل باتجاه يد هو تشانغ الذي كان يحمل سكيناً ويقبض عليها بشدة إلى درجة أن براحمه بدت بيضاء وخالية من الدماء. لاحظ الطباخ الصيني أن شارلوك ينظر إلى السكين في يده فقال له بهدوء: "سأقاتل معكم. وإن كان قدرى أن أموت فسأموت معكم".

اقشعر بدن شارلوك من وقع كلمات الطباخ وقال: "إنني أتمنى حقاً ألا تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء".

وبينما كان شارلوك وهو تشانغ يتكلمان، كانت سفينة القراصنة تقترب منهم أكثر فأكثر منهم، حتى إنه صار بمقدور شارلوك أن يميز أصواتهم فرداً فرداً، ويرى أسلحتهم بوضوح. فقد كان بعضهم يحملون سيوفاً

معقوفة، بينما كان آخرون يحملون رماحاً طويلة تنتهي بشفرات حادة، وآخرون غيرهم يحملون أدوات معدنية غريبة الشكل لا تشبه شيئاً رآه سابقاً، وتبدو كما لو أنها سيفان مربوطان ببعضهما بشكل محكم، وتغطيها أشواك معدنية ناتئة منهما. بدا سطح أليتك وكأنه غابة من الشفرات الحادة.

لم يسبق له أن شعر بالتهديد أو بأنه عديم الحيلة على هذا النحو. فقد استطاع أن يرى تعابير الشر على وجوه القراصنة، وأدرك ذلك من ملابسهم التي تتم عن همجية. فالعديد منهم كانوا يضعون عمائم مصنوعة من أقمشة حمراء أو زرقاء. وكان بعضهم عراة الصدور، أما البعض الآخر فكانوا يرتدون قمصاناً أو صدرات مصنوعة من أقمشة خشنة، وكان معظمهم يزنون خصورهم بأحزمة جلدية عريضة دسوا فيها السكاكين والسيوف والمسدسات القديمة، وكانوا يلبسون سراويل واسعة دست نهايات أرجلها داخل جزماتهم الجلدية.

بالرغم من الفزع الذي كان يعتريه، لاحظ شارلوك أنهم يضعون الكثير من المجوهرات والحلي. وقد كان هذا طبيعياً، فهم لا يستطيعون أن يودعوا كنوزهم هذه في المصارف على اليابسة. وإذا قاموا بإخفائها في مكان ما على متن أليتك فهم بذلك يخاطرون بأن يقوم أحد القراصنة الآخرين بالاستيلاء عليها. لذلك، الطريقة الأكثر أماناً لحفظ ثروتهم تتمثل بلبسها ونقلها معهم حيث حلوا وارتحلوا.

بالرغم من حالة الرعب التي سيطرت عليه، تمكن شارلوك من رصد أحد القراصنة الذي كان يحمل شيئاً بيديه؛ شيئاً بحجم حبة كبيرة من اللفت، وبدا أن ينوي رميه. عندها، تساءل شارلوك عما ينوي هذا القرصان فعله بما يحمله، فرمي الحجارة أو أي شيء آخر من هذا القبيل لم يكن ليساعدهم في السيطرة على غلوريا سكوت.

كما لاحظ أيضاً أن العديد من القراصنة كانوا يحملون أشياء شبيهة بما يحمله هذا القرصان.

بدا أفراد طاقم غلوريا سكوت مرتبكين. وتمكن شارلوك من سماع نقاشات محمومة حوله، ولاحظ تضارب الآراء حول ما يخطط القراصنة لفعله.

إلا أن الجواب أتاهم أسرع مما توقعوا، ووضع حداً للنقاشات والتوقعات. فعندما تقلصت المسافة بين السفينتين كثيراً؛ بما يتيح لمن يتواجد على متن إحداهما رمي الأشياء من سفينة إلى أخرى، قام ثلاثة من

القراصنة بتحريك الأشياء التي يحملونها بأيديهم، واستغرق شارلوك بعض الوقت ليدرك ما يقومون به. لكن، في تلك الأثناء وازن القراصنة أنفسهم وكأنهم لاعبو كريكت، وقاموا برمي الأشياء التي كانت بحجم حبات اللفت نحو غلوريا سكوت، ولاحظ شارلوك أن كلاً منها كان ينتهي بذيل طويل مشتعل.

فتيل!

صرخ السيد لارتشمنت بصوت عالٍ تفوق على صوت الهياج الذي يعم السفينتين: "انتبوا يا رجال، إنها أعمال شيطانية!".

مرت هذه الأشياء فوق رؤوسهم بمسار متقوس، وارتطم أحدها بالصارية، إلا أنه سرعان ما سقط في المياه، في المسافة الضيقة التي تفصل بين السفينتين. غير أن الشئين الآخرين سقطا على سطح السفينة وتدحرجا، وانفجرا قبل أن يتمكن أي كان من التقاطهما.

كان ذاك الشيطان شبيهين بالألعاب النارية أو قنبلتين صغيرتين، وسرعان ما انتشر منهما لهب قرمزي وأصفر على سطح السفينة، كما أن مادة زيتية خرجت منهما وتوزعت على سطح السفينة، وأخذت شرارات النار تتطاير وكأنها سرب من الحشرات. أسرع البحارة برمي دلاء من مياه البحر على الزيت المحترق، عندها ارتفع البخار من الأرضية المحترقة، إلا أن اللهب بالكاد خمد، وما لبث الحريق أن تجدد.

صرخ السيد لارتشمنت بصوت مرتفع قائلاً من مكان ما في الجزء الخلفي من السفينة: "الرمل، اجلبوا أكياس الرمل وانثروه على اللهب إن كنتم تريدون أن تبقوا أحياء".

ثم ما لبثت أن انفجرت خمس كرات أخرى على السطح، وسال منها الزيت، وانتشر اللهب وشرارات النار في كل الاتجاهات. أسرع أحد البحارة وهو يحمل دلو ماء نحوها، فانزلق وسقط وسط النار، وشاهد شارلوك كيف تدحرج البحار بسرعة خارج النار، ولكن النيران نشبت في قميصه. عندها، ومن دون تفكير، حاول شارلوك إطفاء النيران المشتعلة في القميص من دون جدوى؛ لأن القميص المنتقع بالزيت كان عصياً على محاولات الإطفاء. في تلك الأثناء، انضم بحار آخر إلى شارلوك، وقاما معاً بتمزيق القميص ورميه باتجاه مياه البحر، وقد أصيبت أصابعهما بحروق سطحية من جراء ذلك.

غطت كتلة ضخمة من الدخان السطح حاجبة الرؤية، وشعر شارلوك بتجمع الدخان في أسفل حلقة، وكاد يخنق، فيما دمعت عيناه.

كان الهلع يعم السفينة.

لكن، لم تمر إلا لحظات قبل أن يعود النظام بدعم ومساندة من السيد لارتشمنت الذي كان يصرخ بالأوامر موجهاً بحارته إلى ما يجدر بهم القيام به. أسرع مجموعة من البحارة الذين يحملون أكياس الرمل التي جلبوها من مكان ما على سطح السفينة إلى حيث تشتعل النيران، ومزقوا تلك الأكياس، وقاموا بنثر محتواها على الزيت المحترق، فخمدت النيران فوراً، وانتشر دخان أسود عبر السطح، وساد النظام بشكل تام.

توقف القراصنة عن رمي الكرات الملتهبة؛ إما لأنهم رأوا أن طاقم غلوريا تدارك الأمر بواسطة أكياس الرمل، أو لأن مخزونهم منها قد نفذ. كما أن صيحات القراصنة اختلفت؛ فبعد أن كانت عبارة عن ضحكات نصر، تحولت إلى سيل من الشتائم والتهديد والوعيد.

لفتت حركة على سطح سفينة القراصنة انتباه شارلوك؛ إذ أخذ القراصنة يتجمعون على سفينتهم في المكان الأقرب لغلوريا سكوت وهم يحملون كلابات. فبعد أن مهدوا الأرضية لمعركتهم برميهم الكرات الملتهبة، ها هم يستعدون لمهاجمة السفينة واقتحامها. وأقسم شارلوك إنه رآهم ينظرون إليه مباشرة ويضحكون مبرزين أسنانهم.

أحس برجفة غير إرادية تسري في جسده، وشعر بانكماش في معدته، وبطعم أسيدي معدني في حلقه. كان جزء يائس منه يريد أن يرى ما سيحدث، فيما الجزء الآخر يتمنى أن يتأخر الأمر حتى يصلوا إلى اليابسة؛ فهو لم يكن يحمل سوى سكين صغيرة لن تجدي نفعاً أمام السيوف والرماح وغيرها من الأسلحة التي لم يسبق له أن شاهد لها مثيلاً من قبل. فإن أصبح في وسط المعركة، فلن يصمد أكثر من ثلاثين ثانية.

قام القرصان الأول برمي كلابته التي تحركت في مسار متقوس عابرة المسافة بين السفينتين. وكانت الكلابة تسحب خلفها حبلاً بدا وكأنه خربشة قلم رصاص على صفحة السماء الزرقاء. لكن المسافة التي تفصل بين السفينتين كانت لا تزال كبيرة، فارتطمت الكلابة بجانب غلوريا سكوت ثم سقطت في المياه. وكانت هذه الرمية بمثابة إشارة الانطلاق لسائر القراصنة. فبينما كان القرصان الأول يسحب كلابته من المياه ليلقي بها مجدداً، قام القراصنة الآخرون بالتلويح بقلابات فوق رؤوسهم قبل أن يرموها. وفجأة، أصبحت المسافة الفاصلة بين السفينتين مليئة بالقلابات المعدنية والحبال الرطبة. سقطت معظم الكلابات في المياه قبل أن تبلغ غلوريا سكوت. إلا أن أربعاً أو خمساً منها وصلت إلى درابزين غلوريا سكوت وضربت

سطحها، فصدرت صرخات عالية عن البحارة. عندها، قام القراصنة بسحب الحبال وشدها بقوة قبل أن يتمكن أي كان من طاقم غلوريا سكوت من الوصول إليها ورفعها. ونتيجة لسحب الحبال بقوة، انغرزت الكلابات في الدرابزين، وأصبحت الحبال مشدودة جداً، فبدت وكأنها جسورة متقلقة. عندها، أخذ القراصنة يتسلقونها كالقردة. ولكن قبل أن يتمكن أي منهم من عبور المسافة التي تفصل بين السفينتين، بدأ طاقم غلوريا بقطع الحبال بواسطة السكاكين والسيوف أو بواسطة الفؤوس، فيما قام آخرون باقتلاع الكلابات من الخشب بواسطة أيديهم. لم يصمد أي من الحبال الأولى أكثر من ثلاثين ثانية، وعندها سقط القراصنة في المياه التي تفصل بين السفينتين. ولكن، في غضون ذلك، كان هناك نحو عشرين كلابة تعلق في درابزين غلوريا سكوت وسطحها، أو تتشابك مع حبال الصواري. كان شارلوك ينظر إليها بياس.

بعد قليل، سيكون هناك الكثير من الكلابات والحبال التي يفترض بالطاقم التعامل معها.

صرخ السيد لارتشمنت: "أيها الأعداء، إن كنتم تريدون رؤية نساءكم وصديقاتكم مجدداً، فلا تدعوا هؤلاء البرابرة يطأون سطح السفينة". لاحظ شارلوك أن القراصنة لم يكتفوا بتسليق الحبال فقط، بل كان يقومون بسحبها في محاولة منهم لتقريب المسافة بين السفينتين. كي يسهل عليهم العبور. وأدرك شارلوك أن ما يقومون به يجدي نفعاً، فالمسافة بين السفينتين لم تعد تزيد عن خمس ياردات.

ضربت إحدى الكلابات السطح بالقرب من قدم شارلوك. وقبل أن يتمكن من القيام بأي شيء سُحِبَ الحبل وشدَّ، فتعلقت الكلابة بحافة أحد الأبواب الأرضية على سطح السفينة. عندها، قفز شارلوك بسرعة، وحاول بياس قطع ألياف الحبل بسكينه. ولكن شفرتها كانت غير مسنونة فانزلقت على سطح الحبل الرطب. عندها، أمسك شارلوك بالكلابة وحاول نزعها من الخشب بأصابعه.

نظر إلى الأعلى، فوجد أن القراصنة قد وصلوا إلى السطح، وكان القتال محتدماً على مسافات قريبة منه جداً. ولكن شارلوك تجاهلهم قدر المستطاع، وتبع الحبل الذي يلتف على الدرابزين بنظراته، فرأى أن أحد القراصنة الذي بدا عريض المنكبين وطويل الشعر ويحمل ندبة جرح كبيرة على وجهه قد وصل إلى وسط الحبل.

لذا، ضاعف جهوده محاولاً تحريك الكلابة التي كانت يدها تعملان

عليها، والتي لم تكن قد انغرست عميقاً بالخشب الذي جعلته أشعة الشمس صلباً، واستعمل كل ليف عضلي لديه حتى تمكن من تنفيذ مهمته. ركل شارلوك الكلابة بياس في محاولة منه لإزاحتها.

وفي مكان ما على سطح السفينة، سمع صوت إطلاق نار، وما لبث إطلاق النار أن تكرر. لا بد أنه القبطان.

تابع شارلوك ركل الكلابة والنظر إلى الأعلى، ولكنه كان قد تأخر كثيراً؛ فقد وصل القرصان إلى سطح السفينة، وخطا خطوة باتجاه شارلوك وهو يرفع سيفه على نحو مهدد بالخطر.

كان هناك وشم تين أزرق جميل ومتموج يغطي عضلة ساعده. وفي غضون جزء من الثانية - والتي بدت كالدهر بالنسبة إلى شارلوك - وجد شارلوك نفسه معجباً بهذا العمل الفني.

كانت شفة القرصان العليا ترسم شبه ابتسامة، وبدت ساخرة سخرية المنتصر، فظهرت أسنانه المنخورة بشكل ظاهر، والبعيدة عن بعضها كشواهد القبور.

بكثير من الإحباط، ركل شارلوك الكلابة للمرة الأخيرة، فحررها من الخشب وتطايرت معها قطع صغيرة من الخشب. في الوقت عينه، أبعدت حركة الأمواج السفينتين عن بعضهما نحو عشر أقدام، عندها انفكت الكلابة، وعادت من حيث أتت، وضربت في طريقها إلى الخلف كتف القرصان، فبدت على وجهه الدهشة. وعندما انسحب الحبل إلى الورا سحبه معه قدم القرصان باتجاه الدرابزين، فارتطم ظهره به محدثاً صوت تحطم فظيع، وما لبث أن اختفى في المياه. وبالرغم من صوت صليل السيوف والصراخ وأصوات الطلقات النارية التي كانت تملأ الجو، كان شارلوك متأكداً من أنه سمع صرخة رهيبه سبقت ارتفاع رذاذ المياه.

وبما أن السفينتين كانتا قريبتين من بعضهما كثيراً، لم يظن شارلوك أن لدى القرصان فرصة للتسلق مجدداً. فإذا لم يغرق مباشرة، فسيقوم هيكل السفينتين بعصره بينهما كحشرة حين يقتربان من بعضهما أكثر. إنها نهاية أكثر من جيدة.

وفي غضون لحظة، نظر شارلوك حوله بمنتهى الهدوء، محاولاً توجيه نفسه. بدا له أن المعركة متكافئة، فقد كان عدد القراصنة مساوياً لعدد أفراد الطاقم، وكان القتال يجري على مسافة متقاربة جداً. وبعد إلقائه نظرة سريعة على شبكة الحبال التي تربط السفينتين، لاحظ أنه ما من أحد عليها، وأدرك أن كل القراصنة الذين كانوا يريدون مهاجمة غلوريا

سكوت قد أصبحوا على متنها. أما الباكون فافترض أنهم سيقون على متن سفينتهم من أجل تحريكها كي لا تنحرف فجأة وتحطم غلوريا سكوت. من أحد جوانب السفينة، انبثق أرينيوس أو الرجل المقنع من مقصورته ليرى ما يحدث. وكان يقف شبه مختبئ خلف الصارية الوسطى وهو يرفع يده، ورأى شارلوك مسدساً فيها. وبكل حذر استعد، وما لبث أن أطلق النار، وحينها شاهد شارلوك قرصاناً عند الجهة الأخرى من السفينة يرتج ويسقط صريعاً.

نظر السيد أرينيوس نحو شارلوك وأوماً، فما كان من شارلوك إلا أن رفع إبهامه ليظهر له أنه انتبه إلى المساعدة التي قدمها له. وعندما استدار شارلوك، لفتت انتباهه حركة ما. فقد كان أحد القراصنة غير المشاركين في المعركة يتجه نحو مؤخر السفينة، ساعياً للوصول إلى أحد الأبواب الأرضية التي تقود مباشرة إلى المقصورات. كان القرصان قصيراً، وكان شعره خفيفاً وقد جمعه في ضفيرة، بواسطة الشمع. وكانت طريقة تحركه المتسترة هي التي لفتت انتباه شارلوك إليه. ففي وسط الضجيج، والتلويح بالأسلحة، بدا له أن الرجل يتحرك ولا يريد أن يلاحظه أحد. وغالباً ما كان أميوس غروي أستاذ شارلوك يقول له: أنظر إلى الأشياء التي تبدو خارج السياق، والتي لا علاقة لها بما حولها. هذه الأشياء ستخبرك كل ما تريد أن تعرفه، وهي التي تحتاج إلى شرح.

لحق شارلوك بالقرصان الذي يسر خفية.

وسرعان ما أصبح شارلوك عند عتبة الباب الذي اختفى القرصان خلفه. وقف في ظلال الممر في مكانه للحظة، عل القرصان يعود أدراجه. ولكن بعد مرور بضع ثوانٍ، سار شارلوك في إثره.

توقف شارلوك قليلاً حتى تعتاد عيناه على الظلام. ولاحظ أن القرصان قصد باب غرفة السيد أرينيوس، ولكن الأخير كان على سطح السفينة يقاتل، فتساءل عما يبحث عنه هذا القرصان اللعين.

كان باب الغرفة شبه مفتوح، وكان شارلوك يتحرك قريباً منه جداً، ويحاول أن ينظر إلى الداخل.

بدا القرصان شكلاً داكناً مناراً بواسطة الضوء المشع عبر الكوات، ولكن شارلوك تمكن من رؤيته وهو ينحني على الطاولة وكأنه يبحث عن شيء محدد.

تمنى شارلوك لو كان باستطاعته أن يرى ما يبحث عنه هذا اللعين. وكما لو أن القدر استجاب لأمنيته، مالت السفينة فجأة إلى أحد جانبيها،

ووجد شارلوك نفسه يسقط على باب الغرفة ويدفعه ويصبح داخل الغرفة. عندها، رفع القرصان رأسه بسرعة، ونظر إلى شارلوك نظرة اخترقته وكأنها سيخ. كانت أصابعه تقبض على مجموعة من الأوراق، وتحاول لفها على شكل لفافة. ومن هول المفاجأة، ألقى القرصان الأوراق من يده فألقى شارلوك نظرة عليها، ورأى فيها رسوماً بيانية شبيهة بخيوط شبكة العنكبوت. ما الذي يحدث؟

جمع القرصان الأوراق بسرعة، واستدار حول الطاولة، وتوجه نحو شارلوك وهو يزمجر بشيء ما باللغة الصينية. تطلب الأمر من شارلوك بضع لحظات حتى ترجم ما قاله: ابتعد عن طريقي أيها الصبي أو سأقتلع قلبك وأكله أو على الأقل هذا ما فكر شارلوك في أن القرصان قد قاله. وقف شارلوك بشكل منتصب ووجد نفسه يقول له: "أرجع الأوراق من حيث أخذتها".

سخر منه القرصان وتقدم نحوه وقد حمل حزمة الأوراق بيده اليسرى ورفع يده اليمنى، ولاحظ شارلوك من دون أن يتفاجأ أنه يحمل بها سكيناً.

حاول القرصان طعنه في صدره. ومن دون تفكير، صد شارلوك هجومه حين مد يده اليسرى، ثم دفع يده اليمنى وضرب بها يد القرصان اليسرى بأخمص راحة يده، فشلت حركة القرصان من وقع الضربة، وتشنجت أصابعه وأسقط السكين. لاحظ شارلوك أنه قام بتأدية حركة تاي تشي تقليدية، ولكنها كانت أسرع حركة تاي تشي أداها في حياته.

عندها، خطا القرصان خطوة إلى الخلف، وكان لا يزال يحمل الأوراق، ثم التف حول نفسه ورفع قدمه اليمنى بقوة إلى درجة أنها لو أصابت أنف شارلوك لكسرته، وأحنى جسده إلى الخلف ليحافظ على توازنه. توقع شارلوك ما قد يحدث، فأخفض يديه وثنى ساقه اليسرى وضرب ساق القرصان اليسرى بشكل منجل على نحو مواز للأرض؛ فسقط القرصان أرضاً ماداً ذراعيه كيفما اتفق. عندها، طارت الأوراق من يده وسقطت أسفل الطاولة.

دهش شارلوك مما قام به، فقد بدا له وكأن جسده يقوم بتأدية الحركات من دون أن يأمره بها دماغه. وشكر الله على الإرشادات التي قدّمها له هو تشانغ.

زحف القرصان على الأرض متوجهاً نحو الأوراق. أياً كانت هذه الأوراق فهي ما يريده. لذا، أراد شارلوك أن يحول بينه وبينها، فأمسك

بقدم القرصان اليمنى وسحبها إلى الخلف، إلا أن أصابع الرجل تشبثت بالسجادة. ولكن، عندما بدا له بوضوح أن تمسكه بالسجادة لن يوقف حركته، انقلب إلى جانبه وركل شارلوك بوحشية، وأصاب نعل حذائه خد شارلوك، فشعر هذا الأخير بألم شديد، وأحس بأن روحه على وشك أن تزهق، وشعر بتشوش يسيطر على حواسه.

عندها، قبضت يداها على رقبته، وأخذتا تضغطان على حنجرتيه بقوة.

الفصل الرابع

امتدت موجات الألم من عنقه باتجاه صدره، وتسارعت نبضات قلبه واشتدت، إلا أن رؤيته كانت غير واضحة؛ وكأنه في نفق ضيق معتم. عندئذ، وضع يديه بين ساعدي القرصان، واستجمع ما تبقى لديه من قوة، وأبعدهما عنه، فارتخت القبضة التي كانت تطوق عنقه. عندها، استنشق بعمق وبشكل متتالٍ الهواء، قبل أن تعاود يدا القرصان تطويق عنقه وعصره مجدداً.

كانت رؤية شارلوك مقيدة، ولم يكن قادراً على رؤية ما هو أوسع من قطر قطعة نقود معدنية، ولمسافة لا تزيد عن طول ذراع. كان جلده وعضلاته تخزه وكأن هناك إبراً ومسامير تحت كل سنتيمتر منها. وبجهد، استطاع أن يرفع يديه اللتين بدتا ثقيلتين.

بيأس ومن دون أن يتمكن من الرؤية، بحث شارلوك عن وجه القرصان، وأنشب أصابعه في أحد جانبيه، ثم دفع إبهامه في ما ظن أنها عينه. وعندما لمس جفنه، أقحم إبهامه في العين بقدر استطاعته.

تضور القرصان من شدة الألم وصرخ، وأرخى قبضتي يديه عن عنق شارلوك؛ مما أتاح لشارلوك فرصة التراجع. وعندها، سمع شارلوك صوت خطوات متخبطة، وبدا له أن القرصان يحاول الوقوف ومغادرة المقصورة، ولكنه ارتطم بالحائط ثم بإطار الباب. عندها، تدحرج شارلوك، وتقدم إلى الأمام على يديه وركبتيه، ثم دفع نفسه محاولاً الوقوف. في تلك الأثناء، استعاد صفاء رؤيته، إلا أن الغرفة كانت خالية، فوضع يده على الطاولة، وانحنى للحظات حتى تأكد من أن ساقيه قادرتان على حمل وزنه من دون أن تنهارا.

كانت الأوراق الملفوفة لا تزال أسفل الطاولة، فالقرصان عندما فرّ من الغرفة لم يأخذها معه.

عندما شعر شارلوك بأنه قد استعاد بعضاً من قوته، انحنى أكثر وأمسك بها. كان على وشك وضعها على الطاولة وإلقاء نظرة عليها عندما رأى صندوقاً في الزاوية. كان أحد الصناديق التي سبق له أن رآها عندما كانت أمتعة السيد أرينيوس تحمّل على متن السفينة. كان هناك شيء ما فيها. ولكن، قبل أن يتمكن من اكتشاف ما يوجد داخل الصندوق سمع صوتاً عند عتبة الباب.

" ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ "

كان السيد أرينيوس يقف عند عتبة الباب عابس الوجه، وهو يحمل مسدسه .

فرد عليه شارلوك : " كان أحد القراصنة هنا ". وصمت قليلاً بسبب شعوره بالألم في حنجرته، ثم تابع : " لقد تبعته وتعاركت معه، إلا أنه هرب مني . لا أعلم إلى أين ذهب ."

فرد عليه أرينيوس : " رأيته يتزح على سطح السفينة ". ثم رفع مسدسه، ونقر به على جبهته تحت القناع وتابع :. " لقد أوقفته ... وأتيت لأرى ما فعله هنا ."

عندها قال شارلوك : " كان يحاول أخذ هذه ". وحمل الأوراق ورفعها

فرد عليه السيد أرينيوس : " حقاً؟! ". بدا صوته غريباً، ونظر إلى شارلوك بغرابة .

سأله شارلوك : " ما هذا؟ ". وشعر بأنه أصبح أفضل حالاً بعد أن استعاد قدرته على التنفس بشكل طبيعي .
" إنه شيء لا يعينك ."

مدّ السيد أرينيوس يديه ليأخذ الأوراق، فقدمها له شارلوك . كان شارلوك يشعر برغبة جامحة لمعرفة ما تتضمنه، ولكنه كان يعرف أن المسافر الغريب لن يخبره .

سأل شارلوك : " ماذا حصل على السطح؟ ."

فأجابه معلناً : " لقد تحول الوضع لصالح القبطان تولوي وباقي أفراد الطاقم . أظن أنهم صدوا الهجوم . يفترض بك الانضمام إليهم ". وجال ببصره في أرجاء الغرفة وتابع قائلاً : " ويفترض بي التأكد إن كان هناك شيء مفقود ."

توجّه شارلوك إلى سطح السفينة، وشاهد جثة أحدهم ملقاة على جانبها . لقد كانت جثة القرصان الذي تقاتل معه . نظر شارلوك إليه قليلاً قبل أن يتابع طريقه من دون أن يشعر بالأسى أو بالندم أو الخوف . في الحقيقة، عدا الألم الذي كان يشعر به في حنجرته لم يشعر بأي شيء آخر

كان السيد أرينيوس محقاً، فقد بدا أن الطاقم في طريقه لإلحاق الهزيمة بالقراصنة، وكانت جثث القراصنة مبعثرة على سطح السفينة في كل الاتجاهات، فيما انسحب بعض القراصنة وهم مصابون .

صاح السيد لارتشمنت من الجهة الأخرى من السفينة : " انضموا إلي

يا شباب "

لاحظ شارلوك بتعجب كيف فض أفراد طاقم السفينة الاشتباكات الفردية مع القراصنة وانسحبوا عبر سطح السفينة باتجاه السيد لارتشمنت . كانوا في طريقهم لتحقيق النصر المين، فلماذا ينسحبون الآن؟ ! في تلك الأثناء، وبعد انسحاب الطاقم، أصبحت المسافة التي تفصل بين السيد لارتشمنت وشارلوك فارغة، وعندها أدرك ما يحصل . فقد كان السيد لارتشمنت يقف عند الدرابزين ويحمل بيده آلة غريبة . كانت عبارة عن أنبوب معدني بقطر يد رجل، محكمة السد من أحد طرفيها بينما طرفها الآخر مفتوح، وكانت تتركز على حلقة معدنية مربوطة بالدرابزين، وكانت الحلقة تناسب تماماً قطر الأنبوب . لقد سبق له أن شاهدها من قبل وتساءل عن سبب وجودها، والآن أصبح على علم بسبب وجودها . لقد أخبره غيتنس أنه ما من مدفع على متن السفينة، ولكنه كان مخطئاً . فهناك مدفع؛ إنه مدفع صغير، وها هو السيد لارتشمنت يحمله ويصوبه نحو القراصنة .

صاح بعنف : " أشعله " . فانبثقت من بين حشد البحارة يد تحمل شمعة مضاءة، ولامست شعلتها فجوة في النهاية محكمة الإغلاق من المدفع .

أياً يكن ما يوجد داخل المدفع، إلا أنه لم يكن قذيفة . ولكن شارلوك توقع أن يكون سلاسل معدنية، بالإضافة إلى المسامير وبعض الخرذة .

استدار القراصنة الذين نجوا بأعجوبة من عاصفة المعدن، وأطلقوا سيقانهم للريح . أما الباقون ... حسناً، لم يكن شارلوك يريد أن يرى ما حل بهم، فهناك الكثير من الأمور التي ستكون أكثر وضوحاً بعد قليل . في تلك الأثناء، هتف أفراد الطاقم .

لم يلبث شارلوك أن انضم إلى باقي أفراد الطاقم في الجهة الأخرى من السفينة . كانوا متجمعين عند الدرابزين، ويشاهدون وهم غير مصدقين ما يحصل؛ فقد كانت سفينة القراصنة تبتعد عن غلوريا سكوت، وأفرادها يكيلون الشتائم لطاقم غلوريا سكوت ويلوحون بقبضاتهم مهددين، إلا أن معنوياتهم كانت منهارة، كما أن عددهم كان أقل مما كان عليه عند بدء الهجوم .

أحس شارلوك بأنه متعب، وشعر فجأة بالوهن في ساقه، فانحنى على درابزين السفينة، وركّز بصره على نقطة ما بعيدة في الأفق، منتظراً أن

يخمد هذا الشعور الذي يحس به .

تساءل عن سبب شعوره على هذا النحو . فهذه ليست المرة الأولى التي يكون فيها بخطر . ففي السنتين الماضيتين، كان عرضة للملاحقة، وضرب حتى أغمي عليه، وحُدِّر، وسجن في مأوى للمجانين، وتعرض لهجمات من رجال وكلاب، بالإضافة إلى أسود الجبال والعظاءات والصقور والديبة . لقد كانت السنوات القليلة الماضية حافلة بالأحداث، ولكن لماذا يشعر بما يشعر به الآن؟ !

لكن الجهة المسؤولة عن التفكير المنطقي في دماغه أخبرته عن السبب . فهو بعيد جداً عن دياره، ولن يسرع أحدهم إلى نجدته عندما يحتاج إلى النجدة؛ لا ماتي، ولا مايكروفت، ولا أميوس غروي، ولا حتى فرجينيا . في الحقيقة، لم يعتمد قط على مساعدتهم من قبل . ولكن، في ركن قصي من دماغه، كان على يقين بأنهم سيهبون لنجدته عندما يخونه ذكاؤه ونشاطه . ولكنه الآن بعيد عنهم؛ عالق هنا في وسط البحر .

كان ثقل الوحدة يجثم فوقه كغيمة كثيفة محملة بالأمطار . ووجد عينيه تترقرقان بدموع حارة؛ فلو أنه قضى نحبه هنا على متن غلوريا سكوت، بعيداً آلاف الأميال عن دياره، فلن يعرف بأمره أحد . حتى إن البحارة سينسون أمره بعد أسابيع عدة .

سمع شارلوك صوتاً بالقرب منه يقول : " كان الوضع خطيراً . إنني سعيد لأنك تمكنت من النجاة " .

كان الطباخ الصيني هو تشانغ يقف إلى جانبه، ويحدق إلى المياه بوهن، وابتسامة مبهمة تعلو ثغره . وكان هناك جرح في كتفه يقطر دمماً على مئزره كما كانت الخدوش تغطي وجهه .

عندها، سأله شارلوك : " هل أنت على خير ما يرام؟ " .

أوماً هو تشانغ وقال : " كنت متورطاً في القتال، وقد انتصرت " .

سأله شارلوك : " هل كنت تقاتل مستخدماً تقنيات تاي تشي تشانغ؟ " . وهو يتخيله يقاتل القرصان، ويؤدي تلك الحركات بمكر بواسطة يديه وقدميه .

هز هو تشانغ رأسه وأجابه : " كلا، لقد استخدمت المقلادة . أن تقاتل وأنت أعزل أمر جيد، ولكن عندما تمنحك الحكمة الكونية سلاحاً بيدك فسيكون من السيئ ألا تستخدمه " .

بدوره قال شارلوك : " وأنا أيضاً كنت مشاركاً في القتال " .

" أستطيع أن أرى ذلك بوضوح بالنظر إلى رقبتك المهشمة . تبدو

وكأنها تلقت ضربات بواسطة المطرقة التي أستخدمها لتسوية سطح اللحم، كما أن صوتك يبدو خشناً كمن اعتاد التدخين لسنوات".

" لقد استخدمت المهارات التي علمتني إياها، إنها فعالة".

أجابه هو تشانغ بثقة عالية بالنفس وهو ينظر إلى البحر: " بالطبع، إنها فعالة . كما أنني معلم جيد، ألسنت كذلك؟".

التفت بعيداً، ثم نظر إلى وجه شارلوك وسار مبتعداً عبر سطح السفينة . بعد أن ذهب الطباخ، لاحظ شارلوك أنه لم يكن متأكداً من اللغة التي كانا يتخاطبان بها؛ أكانت الإنكليزية أم الكانتونية .

أمضى شارلوك بقية النهار وهو يقوم بنشاطات كان يتمنى أن لا يتذكرها لوقت طويل؛ فقد قام بمسح الدماء عن سطح السفينة، ورمى جثث القراصنة عنها، كما قام بخياطة أكفان من قماش الأشرطة كي تلف بها جثامين البحارة الذين لاقوا حتفهم وهم يدافعون عن غلوريا سكوت، وعنه بطريقة أو بأخرى. ما إن لامست الشمس الأفق حتى كان سطح السفينة خالياً من أي آثار تشير إلى ما حصل اليوم؛ باستثناء صف من الجثث التي كانت مسجاة على السطح . تلا القبطان مقاطع من الكتاب المقدس قبل أن تلقى الجثث المكفنة في مياه البحر . وقد عمدوا إلى وضع أثقال في الأكفان لضمان غرقها ومكوئها في مكان محدد في القعر .

في المساء، كان البحارة في مزاج مرحب بالغناء . وقد أمر القبطان تولاوي بتزويدهم بكمية من الشراب تعادل ثلاثة أضعاف الكمية المعتادة، وهذا ما جعلهم في حالة من الهياج والابتهاج . فقد كانوا يريدون أن ينسوا ما حصل معهم خلال اليوم من ذكريات الهجوم، ووجد شارلوك نفسه يعزف لحن أغنية تلو الأخرى، وكان يتنقل بين الألحان من دون أن يلاحظ البحارة ذلك؛ فما كان يهمهم هو الموسيقى أياً تكن والشراب كي يشعروا بالسعادة .

حتى عندما كان يعزف على الكمان القديم ويتجول بين البحارة السكارى الذين يغنون بأعلى صوت، كان عقل شارلوك يرفض التوقف عن التفكير، ووجد نفسه يفكر ويحاول أن يجد جواباً عن السؤال الملح في ذهنه . لماذا عندما أغار القراصنة على السفينة، قصد القرصان الذي تعارك معه مقصورة السيد أرينيوس مباشرة، وحاول أخذ الأوراق التي عليها الرسم الشبيه بشبكة العنكبوت؟! ربما كان يعلم بوجوده ولهذا كان يريدته دون سواه من الأشياء . ولكن، إن كان الأمر على هذا النحو، فهذا يعني أن القراصنة كانوا يعلمون بأن السفينة التي يهاجمونها هي غلوريا سكوت،

وكانوا يعلمون أنها ستكون في هذا المكان من المحيط في هذا الوقت تحديداً، ولم يكن الأمر مجرد هجوم قراصنة عرضي . إذًا، الهجوم برمته كان مدبراً، وهذا يعني أنه كانت هناك مؤامرة تستهدف السفينة، وكانت مستترة خلف هجوم القراصنة .

كان هناك أمر غريب يحصل . وتمنى شارلوك لو أن هناك شخصاً ما يستطيع التناقص معه، ولكن لم يكن هناك من يمكنه الوثوق به على متن غلوريا سكوت .

لم يكن بإمكانه الوثوق بأحد كما كان يثق بمايكروفت، وأميوس غروي، وحتى بماقي .

كان هناك جو من التوتر يخيم على السفينة طيلة الرحلة، وكان أفراد الطاقم قلقين، وظلوا يحدقون إلى الأفق كي يرصدوا اقتراب أي سفن للقراصنة . كما أن القبطان والسيد لارتشمنت كانا يمضيان وقتاً طويلاً وهما يسيران على سطح السفينة أكثر مما كانا يفعلان قبل الهجوم؛ وذلك لبث الطمأنينة في نفوس الرجال . وكان العمل الذي ينبغي لأفراد الطاقم إنجازه كثيراً ومنهكاً أيضاً . وبعد كل نوبة عمل مطولة، كان شارلوك يصعد إلى أرجوحته الشبكية مستنزف القوى، ويغط في نوم عميق خالٍ من الأحلام، ولا يستيقظ إلا على صوت الجرس الذي يعلن بدء نوبة عمله مجدداً .

خلال وقت الراحة، بعد أيام قليلة من هجوم القراصنة، كان يقف بجانب الدرايزين ويتأمل البحر عندما لاحظ وجود شخص يقف بالقرب منه . التفت نحوه وهو يظن أنه هو تشانغ أو ربما فيدلر، ولكنه شعر بالقشعريرة تسري في جسده عندما أدرك أن من يقف بالقرب منه هو السيد أرينيوس .

كان لا يزال يضع ذلك القناع الذي يشبه القناع الذي يضعه مربو النحل تحت قبعته السوداء ذات الإطار الأبيض . وكان باستطاعة شارلوك أن يرى صورة ظلية لوجهه من تحت القناع . وكانت يده اللتان يغطيهما قفازان جلديان أسودان تقبضان على الدرايزين . وبدا لشارلوك أن السيد أرينيوس يحدق إلى النقطة نفسها في الأفق التي يحدق هو إليها .

قال أرينيوس : " أظن أننا سنبلخ اليابسة عما قريب . فوفقاً لما صرّح به القبطان سنصل إلى شانغهاي بعد يوم أو يومين ."

فرد عليه شارلوك : " أياً كانت المدة التي تفصلنا عن بلوغ اليابسة فهي طويلة بالنسبة إليّ . فأنا أشعر وكأن هذه الرحلة قد استغرقت الدهر كله ."

أوماً أرينيوس برأسه موافقاً : " لقد كانت رحلة زاخرة بالأحداث ".
وصمت لبعض الوقت قبل أن يقول فجأة : " أعتقد أنني مدين لك
بتوضيح ".

أجابته شارلوك مستفهماً : " توضيح حول ماذا؟ ". وهو يأمل أن يكون
التوضيح بشأن الأوراق .

" التوضيح بشأن مذهري . إنني أتفهم أن مذهري قد صدمك عندما
أحضرت لي الطعام وشاهدتني من دون قناع في غرفتي، وأنا أعتذر لك ".
هز شارلوك رأسه وقال : " أنت لست مديناً لي بأي شيء . إنني
أوافقك الرأي بأني فضولي، ولكن، لا يفترض بك قول أي شيء إن لم تكن
راعياً بقوله ".

" ولكن بالرغم من ذلك، بعض البحارة يعتقدون بالخرافات؛ فقد رأي
بعضهم بضع لحظات من دون قناع ". قال ذلك بحزن وتابع : " ربما
يظنون أنني كائن خارق للطبيعة، أو أنني عفريت، أو حتى مصاص دماء .
ربما إن شرحت لك الأمر، كان بإمكانك أن تطمئنهم ".

رد عليه شارلوك بتشكك : " إنني أشك في قدرتي على طمأنتهم؛ فأنا
حديث العهد على هذه السفينة . ولكن، سيكون من دواعي سروري
المحاولة؛ إن كان هذا ما تريده ".

أوماً أرينيوس وقال : " إنني أقدر هذا، وأشكرك ". صمت قليلاً، وكان
لدى شارلوك انطباع بأنه يبحث عن الكلمات الصحيحة والمعبرة . وأخيراً قال
: " لم يكن لون بشرتي هكذا دائماً . فعندما كنت أصغر سنّاً كان لون
بشرتي بلون بشرتك ". ونظر إلى شارلوك وتابع : " حسناً، لم تكن درجة
الاسمرار ذاتها . أياً يكن الأمر، الأعمال الخارجية تفرض عليك السفر إلى
بلاد أخرى؛ أفريقيا، مصر، أميركا الجنوبية ... يمكنك أن تسمي أي ميناء في
أي بلد على الكرة الأرضية وأنا أوكد لك أنني زرته ".

عندها قال شارلوك : " كنت دائماً أتوق للسفر إلى أن جرّبتة . والآن،
أستطيع أن أتفهم سبب تفضيل شقيقي البقاء في الديار ".

أجابته أرينيوس : " السفر يوسع آفاق العقل، ولكن له سيئاته؛
فالبلدان الحارة تستولد أمراضاً أشد فتكاً من التيفوئيد والطاعون الدبلي،
ولكن القليل من الناس يعرفون النتائج الرهيبة المترتبة على الإصابة
بالفرموسا السوداء أو حمى التابولين ". هز كتفيه وتابع : " إن مشاهدة
رجل يقضي نحبه من جراء إصابته بحمى التابولين شبيهة بمشاهدة ذوبان
جلد رجل عن جسده . إنها حقاً طريقة رهيبة لتنتهي بها حياة إنسان ".

بعد فترة من الصمت سأله شارلوك : " لم تصب بأي من تلك الأمراض، أليس كذلك؟ ".

" هل سبق لك أن سمعت أن بعض الناس يستخدمون الفضة لكي يتجنبوا الأمراض؟ ".
هز شارلوك رأسه .

" كانت للفضة استعمالات كثيرة في الطب لقرون خلت ". تابع أرينيوس : " الفيلسوف الإغريقي أبوقراط والذي يلقب بأبي الطب كتب أنه يمكن استخدام الفضة لتجنب الأمراض، كما يمكن أن تستخدم لشفاء الجروح . والفينيقيون الذين أبحروا عبر العالم قبل فترة طويلة من وجود البحرية في بلدي أو بلدك كانوا يقولون إنهم يخزنون الماء والشراب والخل في أوانٍ من الفضة للحيلولة دون فسادها . حتى إنني سمعت عن أناس يضعون نقوداً فضية داخل أواني الحليب كي لا يفسد؛ سواء أصدقت ذلك أم لم تصدقه ".

عندها سأله شارلوك بافتتان : " وهل كنت تعالج نفسك بالفضة؟! ". قال أرينيوس : " كان الأمر منطقياً بالنسبة إلي؛ فكل الأبحاث أشارت إلى أن الفضة تقي من المرض . ولذلك، وعلى مدار السنوات العشر الماضية شربت خليط الفضة، وهو عبارة عن غبار الفضة الممزوج بزيت الخروع . وطوال السنوات العشر السابقة لم أصب بأي مرض ".
" ولكن ... " حثه شارلوك على المتابعة .

" ولكن من يشربون الفضة تترسب ذراتها في أنسجتهم؛ وخصوصاً أنسجة الجلد والعينين . لقد أخبرني الأخصائيون الذين استشرتهم أن هذا يحصل في حالات نادرة جداً وتدعى هذه الحالة أرغيريا ". ضحك أرينيوس على نحو مفاجئ وتابع قائلاً : " تخيل سخرية القدر؛ لقد سعيت لتجنب العديد من الأمراض إلا أنني وقعت فريسة هذه الحالة النادرة ".
سأله شارلوك : " وهل حالتك هذه مؤلمة؟ ".

هز أرينيوس رأسه وأجابه : " على الإطلاق . ما هي الكلمة التي تصف هذه الحالة؟ إن الحالة عبارة عن تشويه ولا شيء أكثر من ذلك . ليس هناك ألم، أو أي آثار جانبية عدا تغيير لون البشرة . لكي أكون صريحاً معك، لو كنت أعلم أن حالي ستؤول إلى ما آلت إليه الآن قبل أن أشرب الفضة لما كنت قد غيرت رأبي . إن المضاعفات مؤسفة، ولكنني طيلة تلك الأعوام لم أصب بأي نوع من الأمراض، ولا حتى الزكام والبرد ".
" وماذا سيحل بك إن توقفت عن شرب خليط الفضة؟ هل سيستعيد

جلدك لونه الطبيعي؟".

بدا وكأن أرينوس يفكر قليلاً، ثم هز رأسه تحت القناع : " للأسف لا . ففي اللحظة التي تدخل فيها جزيئات الفضة جسديك تترسب في اللحم وتندمج أو بالأحرى تنطمر فيه . وما من طريقة لإعادة الحال إلى ما كانت عليه، وأنا لا أريد أن يتخلص جسدي من الفضة ".
بدا وكأنه ما من شيء يستطيع شارلوك قوله، فصمت الرجلان لبرهة، وأخذا يتأملان المحيط . أخيراً، غادر أرينوس تاركاً شارلوك مستغرقاً في أفكاره .

بسذاجة، توقع شارلوك للحظة أنهم بلغوا اليابسة عندما لاحت في الأفق لطفة داكنة، وترافق ذلك مع هتاف البحارة واحتساء المزيد من الشراب . ولكن في الواقع، كان ما ظهر عبارة عن جزيرة بالكاد أكبر من سفينتهم . وبعد عدة ساعات، ظهرت عدة جزر أخرى؛ ربما عشر جزر أو عشرون . عندها، أمر السيد لارتشمنت بإزالة الأشرعة للتخفيف من سرعة غلوريا سكوت حتى تسهل السيطرة عليها، وسلكت السفينة طريقها ببطء بين الجزر، وبدأت اليابسة تظهر شيئاً فشيئاً أمامهم . لبرهة، بدت إحدى الجزر أمامهم كسائر الجزر ولكنها أكبر حجماً، وما لبثت أن ظهرت على ما هي عليه فعلاً؛ إنها اليابسة وليست مجرد جزيرة كبيرة . وبرزت التلال بوضوح في خلفية الخليج الذي يتكون منه الميناء .
لقد بلغوا شانغهاي، لقد وصلوا إلى الصين .

شعر شارلوك بخليط من المشاعر. فمن جهة، كان يشعر بالإثارة لزيارته بلداً جديداً والاطلاع على حضارة جديدة؛ حيث لن يكون أي شيء هنا كما اعتاد أن يكون (وخيل إليه أنه يسمع صوت أميوس غروي في خلفية دماغه إنها طبيعة البشر). ومن جهة أخرى، كان الأسى يملأه؛ فقد كان يعلم أنه أصبح أبعد ما يكون عن دياره ورفاقه. كانت شانغهاي نهاية رحلة الذهاب، وربما بقليل من التخطيط الجيد يمكنه البقاء على متن غلوريا سكوت، وأن يكون واحداً من أفراد طاقمها في رحلتها الطويلة إلى الديار.

هل ستكون الديار كما كانت عليه عندما يعود إليها؟

أو بالأحرى، يجب أن يكون السؤال : هل سيعود أصلاً؟

كانت الحرارة والرطوبة قد ارتفعتا مع اقترابهم من اليابسة . وكانت النسمات تدفع السفينة إلى الأمام، وتبرد أجساد أفراد الطاقم في الوقت عينه قبل أن تتابع طريقها . شعر شارلوك بالعرق يعبر كتفيه باتجاه ظهره

كلما تحرك .

لحسن الحظ، صرفت الضجة والألوان والحركة في ميناء شانغهاي انتباه شارلوك عما كان يفكر فيه . فقد كانت المراكب والسفن تعبر في كل الاتجاهات، وكانت جميعها تسير بالسرعة عينها، وكان الجميع يصرخون على بعضهم بعضاً تقريباً . في تلك الأثناء، تذكر شارلوك وصوله إلى محطة قطارات لندن في واترلو، ومشاهدته الناس وكيف تتقاطع السبل فيهم في الردهات، وكل واحد منهم يحاول بطريقة ما تفادي الاصطدام بالآخرين من دون أن ينحرف عن مساره أو يبطئ .

لاحظ شارلوك أن العديد من السفن في الميناء كانت من نوع أليك، فشعر حينها بدبيب على جلده؛ متذكراً هجوم القراصنة، ولكنه حدث نفسه قائلاً إن هذا التصميم شائع في السفن الصينية، ومن المؤكد أن القراصنة بعيدون جداً الآن.

أمر السيد لارتشمونت كل البحارة بخفض الأشرعة . كان شارلوك يعمل عندما كانت السفينة تتوقف تدريجياً في منطقة في وسط الميناء، ولم يلبث السيد لارتشمونت أن طلب من الطاقم رمي المرساة . بعد فترة من الانتظار، شاهد شارلوك مجموعة من المراكب الصغيرة تتجه نحوهم، فافترض أنهم سيقومون بنوع من الفحص والتفتيش للسفينة، أو سيكون على متن هذه القوارب أفراد من الإدارة المحلية الذين سيجرون محادثات مع القبطان قبل منحه الإذن بالرسو بشكل نهائي .

نظر شارلوك إلى الميناء، فشاهد سلسلة من الأرصفة وكواسر الأمواج التي بنيت على طول الخليج، وكان هناك برجاً مراقبة عند طرفي هلال خليج الميناء . وخلف الرصيف شاهد مخازن بُنيت بشكل متشابه . من إحدى الجهات، وعلى مسافة بعيدة خلف الضباب امتدت مدينة شانغهاي، وكان هناك سور يحيط بها، وقد قدر شارلوك أن يكون بارتفاع خمسة أضعاف السيد غروي . لقد توقع شارلوك أن وجود السور وبرجي المراقبة يشير إلى أن المدينة قد تعرضت للعديد من الهجمات عبر التاريخ . ولكن السور في الوقت الحالي متهاك، كما أن برج المراقبة أكل عليهما الدهر وشرب . أياً تكن الأحداث التي مرت على شانغهاي، إلا أنها في الوقت الراهن آمنة وهادئة كما لو أنها قط عجوز نائم، وقد ظهرت على وجهة ندوب من معارك خاضها في شبابه .

بالإضافة إلى سفن أليك الصينية، كانت ترسو في الميناء سفن تشبه غلوريا سكوت . فمن الواضح أن التجار الغربيين مرحب بهم في الصين . إلا

أن إحدى السفن على وجه الخصوص هي التي لفتت انتباهه، فقد كانت طويلة ومنخفضة الجانب ومطلية بلون أبيض؛ أو بالأحرى كانت مطلية باللون الأبيض عندما شيدت، ولكن لونها الحالي يميل إلى الرمادي . كانت تمتلك صاريتين؛ واحدة في الأمام والأخرى في الخلف، وفي الوسط كانت هناك مدخنة، وإلى جانبها كان هناك ما يشبه القفص الذي ينتأ من جانبي السفينة . كانت هناك ناعورة كبيرة قرب القفص، وقد ذكره ما شاهده بالسفينة التي سافر على متنها إلى أميركا قبل سنة أو أكثر . كانت تلك السفينة تمتلك محركاً يعمل بالبخار الذي ينتج عن احتراق الفحم، وكان ذلك يحرك ناعورتين . فعندما لا تكون الرياح كافية لدفع السفينة كان يُستعمل المحرك الذي يصدر طاقة تحرك الناعورة التي تدور في الماء دافعة السفينة إلى الأمام .

لقد بدت المدخنة جديدة أكثر من باقي السفينة، وتساءل شارلوك إن كانت قد تعرضت لحادث؛ ربما تضررت السفينة وتم تصليح المدخنة وإعادة طلائها .

انقطع حبل أفكار شارلوك عندما سمع صخباً خلفه، عندها ظهر القبطان تولوي على السطح والسيد لارتشمنت يقف خلفه بهدوء، وكان يرتدي رداءً جديداً ويحاول تصنع الابتسام .

وقف بعض رجال الطاقم بالقرب من شارلوك، وكانوا يحاولون مساعدة ثلاثة رجال على تسلق سلم مصنوع من الحبال . كان الرجال الثلاثة يعبرون من المراكب الصغيرة، وكان اثنان منهم يرتديان معطفين واسعين من الحرير المزركش يلفانها حول جسديهما، ويتنعلان حذاءين بكعبين عند نعليهما . أما الرجل الثالث فكان يرتدي معطفاً شبيهاً، ولكنه كان يضع فوقه سترة سوداء فضفاضة . اعتمر الرجال الثلاثة قبعات سوداء كانت جوانبها مستقيمة ومسطحة من الأعلى . كان المشهد العام مزيجاً غريباً من التباهي وعكسه . حيّا القبطان الرجال بحرارة، وتبادل معهم الانحناءات، ولكن بدا بوضوح أنه غير مرتاح فيما كان ينحني .

بدا الرجل الذي يرتدي سترة وكأنه المترجم . فعندما كان الرجلان الآخران يتكلمان الكانتونية كان يصغي إليهما، ثم ينقل ما يقولانه إلى القبطان بلهجة إنكليزية ثقيلة . وعندما كان القبطان يجيب، كان يعيد الأمر بطريقة معكوسة .

أياً يكن موضوع المناقشة أو المفاوضات، بدا واضحاً أنها أرضت الطرفين . وانتهى الاجتماع بمزيد من الانحناءات، قبل أن يغادر الرجال

الثلاثة غلوريا سكوت .

تحدث القبطان مع السيد لارتشمنت الذي التفت نحو أفراد الطاقم المرافقين الذين كانوا يصغون إليه بانتباه وأعلن : " سنرسو في شانغهاي لفترة قصيرة . ينوي القبطان البقاء هنا لمدة أسبوع ريثما يتسنى لنا بيع حمولتنا، والمقايضة من أجل أخرى نعود بها إلى ديارنا . سوف أنقذكم أجوركم في غرفة الطاقم في الأسفل . لقد بذلتم جهوداً كبيرة وأنتم تستحقونها . من يريد بدل أتعابه فلينتظرنى بعد ساعة، ومن لن يأتي ليأخذ أجره فسأقوم بإنفاقه على شراء فساتين ومجوهرات لنسائي في لمبيث " . ابتسم السيد لارتشمنت لدى سماعه التصفيق والصفير الذي حدث بعد تعليقه الطريف هذا، وتابع : " هذا كل ما أريد أن أخبركم به، وسألتزم به، كما أنني سأقوم بتعليق جدول مناوبة في الأسفل . أتمنى أن يتحرك كل واحد منكم ويقرأه؛ إذ يجب أن يبقى في السفينة على الدوام بعض أفراد الطاقم، بينما يكون الباكون على اليابسة؛ فسيأتي عمال ليفرغوا الحمولة ويقوموا بتحميل السفينة مجدداً . من حقكم بعد كل ما عانيتموه وما عانيناه جميعاً من فقدان زملاء أعزاء أن تحظوا ببعض المرح؛ ولكن وفقاً لجدول المناوبة . وكذلك أود أن ألفت أنظاركم إلى ضرورة أن تضعوا أيديكم على محافظكم عندما تكونون خارج السفينة، وأن تعيروا القوانين المحلية اهتماماً كي لا تتورطوا في أمور لا تحمد عقباها . ولا يظن أحدكم أنه إن تورط في أمر ما فسيجدي أنفق المال لإنقاذه " .

استغرق رسو السفينة في المكان المخصص لها في منطقة خالية بالقرب من أسطول من السفن الصغيرة معظم فترة بعد الظهر . وما إن ربطت السفينة بالبحال إلى الرصيف، وأنزلت المرساة، ومد الجسر المتحرك الذي يربط السفينة بالرصيف حتى بدت السفينة أشبه بالصحراء الخالية من أي حركة؛ فقد غادر الجميع باستثناء من كان الجدول يفرض بقاءهم على متن السفينة اليوم . في تلك الأثناء، كانت الشمس قد طفلت . خلف التلال .

غادر السيد أرينيوس السفينة وهو يضع القناع الذي يشبه ذلك الذي يضعه النحالون وبينما كان يسير على الجسر المتحرك، أوماً برأسه لشارلوك وابتسم؛ إلا أن ذلك لم يظهر بشكل جلي بسبب القناع الحاجب للرؤية . وقد أفسح البحارة الذين صادف مرورهم على الجسر المتحرك في الوقت عينه مع أرينيوس الطريق له، فقد خشوا من المرور بالقرب منه .

أخيراً، وفي الوقت الذي تحول فيه لون السماء من الأزرق إلى الأحمر، وقف شارلوك عند أعلى الجسر المتحرك، وأخذ يحدق إلى المدينة أمامه .

أراد استكشاف المدينة، إلا أنه كان يشعر بالتوتر، فقد كان يجهل العادات المحلية، ويخشى أن يورط نفسه بالمشاكل .

في تلك الأثناء، لمست يد كبيرة كتفه، كانت يد هو تشانغ الذي خاطبه بلطف باللغة الكانتونية وهو يقف خلفه قائلاً: " يمكنك الذهاب معي . يفترض بك التعرف إلى أفراد عائلتي، وسيقومون بإعداد المحار والكرنبد لك . سيعدون لك وليمة شهية لم تتذوق مثلها من قبل . " كان شارلوك يفهم كل كلمة ينطق بها هو تشانغ بالكانتونية .

ابتسم شارلوك لهو تشانغ، إلا أنه هز رأسه ورد عليه قائلاً: " كلا، إنه وقتك معهم . اذهب وقابلهم مجدداً وأخبرهم عن مغامراتك . لا أريد أن أفسد لحظة اللقاء، وألهمهم عنك بتحضير الطعام لي . "

شد هو تشانغ على كتف شارلوك وقال له: " أنت رجل حكيم، يمكنك الذهاب لرؤيتي في أي وقت. اقصد شارع رمين دونغ لو، واسأل عن عائلة هو؛ الجميع هناك يعرفون منزلي. تذكر أنه مرحب بك في أي وقت." رفع يده عن كتف شارلوك، إلا أنه لم يبارح مكانه قبل مضي بعض الوقت، وقد بدا متردداً في المغادرة . عندها، استدار شارلوك ونظر إليه . كان الطباخ ينظر إلى المدينة بتوق، وقال بعدوبة: " إنني أتساءل إن كانوا لا يزالون يتذكرونني . "

وقبل أن يتمكن شارلوك من التفوه بأي كلمة، خطأ هو تشانغ أولى خطواته على الجسر المتحرك الذي يصل سطح السفينة برصيف الميناء مغادراً . وبينما كان شارلوك يتابعه بنظراته، كان يشكره في سره، ويقدر كل ما قام به هو تشانغ من أجله . فهو لم يعلمه فقط كيفية الدفاع عن نفسه باستخدام تقنية تاي تشي، بل علمه اللغة الكانتونية التي ستتيح له التواصل بفعالية مع السكان المحليين . كان شارلوك محظوظاً بالمعلمين الذين صادفهم في السنتين الماضيتين؛ بدءاً من أميوس غروي ومروراً برافس ستون ووصولاً إلى هو تشانغ؛ من دون أن يغيب عن باله بالطبع شقيقه ومعلمه الأول مايكروفت؛ بالرغم من أن هذا الأخير نادراً ما كان يعطيه انطباعاتاً بأنه يعلمه أي شيء؛ رغم أن كل ما كان يتفوه به كان عبارة عن درس بحد ذاته .

تساءل شارلوك فجأة وهو يشعر برجفة في قلبه: هل يفكر أصدقاؤه وأفراد عائلته بالمكان الذي يتواجد فيه الآن؟ وما إن أصبح جاهزاً للترجل من السفينة حتى سمع صوتاً من خلفه يقول: " كنت دائماً بحاجة إلى أن يكون بين أفراد طاقمي رجل يعمل من دون أن يتذمر، ويعمل بجد

واجتهاد من دون أن يخشى عاقبة عمله، ثم يرغب بمغادرة السفينة من دون أن يتلقى أجره . وقد قال لي الناس إنني مجنون، ولكنني كنت أحبهم دائماً قائلاً : انتظروا وسترون، في يوم من الأيام سأحظى بمثل هذا الرجل . وأنت يا شارلوك الرجل الذي كنت أصفه لهم، أنت حقاً من كنت أبحث عنه ."

استدار شارلوك نحو مصدر الصوت، وكان على يقين من أنه صوت السيد لارتشمونت الذي كان يحدق إليه والدهشة تعلو وجهه، وكان يحمل بيده مغلفاً بني اللون وعليه لطخات إصبع يد، وسأل شارلوك : " أتريد أجرتك أم أنك تود التبرع بها لجمعية ديسترس شيبس ماسترز؟ ". فأجابه شارلوك وهو يمد يده ليأخذ المغلف : " إنني آسف . كدت أنسى ". عندها، أجابه السيد لارتشمونت وهو يقدم له المغلف : " أنت بحار جيد جداً أيها الفتى . أنسى دائماً أنك حين بدأت معي العمل كشخص متسلل على متن سفينتي، ولكنك تستحق أن تتقاضى أجراً أكبر من الكثير من البحارة الذين يأكلون أكثر مما يعملون ". وتوقف لبرهة قبل أن يتابع : " إنني أتمنى أن تعود معي على متن غلوريا سكوت، وأن لا تبقى هنا ريثما تجني ثروة ". فرد عليه شارلوك مؤكداً : " سأعود معك بالتأكيد، إنني أود العودة إلى إنكلترا ."

حينها، حدق إليه السيد لارتشمونت وقال : " هناك سفن ستغادر قبلنا عائدة إلى إنكلترا . إن كنت راغباً بالسفر على متن إحداها فبإمكاني أن أتحدث إلى قباطنتها، ويمكنني أن أحجز لك مكاناً ". فرد عليه شارلوك قائلاً : " شكراً لك . إنني أفضل المكوث هنا لعدة أيام، ثم المغادرة على متن غلوريا سكوت . في الحقيقة، لم أظن في يوم من الأيام أنني سأقول ما سأقوله الآن . ولكن صدقاً، إنني أشعر وكأن غلوريا سكوت منزلي ."

تمتم السيد لارتشمونت : " هذا صحيح ". وتوقف قبل أن يتابع بصوت أعلى : " الآن، اذهب قبل أن تغيب الشمس، وقبل أن تغادر الفئران جحورها، وابق بعيداً عن ألعاب الميسر، وعن كل النساء اللواتي سيحاولن التحدث إليك قبل أن ترغب بالتحدث إليهن ."

" صحيح سيدي ". ثم استدار وتوجه نحو الجسر المتحرك . وبينما كان يغادر، وضع المغلف الذي أعطاه إياه السيد لارتشمونت في أحد جيوب سترته . وقبل أن يرفع أصابعه من داخل الجيب لمس شيئاً ناعماً كان عبارة عن قطعة معدنية مقعرة، فأخرجها من جيبه وهو يشعر بالحيرة

حيالها، قبل أن يتذكر أنها ذلك الشيء الذي التقطه من على سطح السفينة خارج مقصورة السيد أرينيوس قبل أيام وهدق إليه بارتباك . عندها، صاح السيد لارتشمنت : " لديك 15 ثانية يا صديقي حتى تترجل، والا سيتوجب عليك البقاء على متن السفينة ". فأجابه شارلوك : " نعم، حاضر سيدي ". وأعاد القطعة المعدنية إلى داخل جيبه، بجانب المغلف الذي يحتوي أجرته قبل أن يسرع الخطى على الجسر المتحرك متوجهاً إلى رصيف ميناء شانغهاي .

الفصل الخامس

ما إن دنا شارلوك من الرصيف حتى بدا عليه التأثر بسور المدينة الذي يعلو كل شيء آخر. وكان من الواضح أن السور لم يخضع للترميم منذ مدة؛ فقد كانت الفجوات بادية عليه بوضوح، ويمكن تشبيهها بالقروح، والتي يبدو أنها آثار قذائف مدافع. بدت هذه الآثار وكأنها حديثة العهد؛ فلون الحجارة أسفلها كان فاتحاً، ولو كانت قديمة لبدت داكنة اللون أكثر مما هي عليه، كما أن الطحالب لم تنبت عليها بعد. ظن شارلوك أن حرباً دارت حول المدينة منذ فترة ليست ببعيدة، وتساءل عما حدث، وإن كان هناك احتمال بأن تنشب حرب أخرى مرة أخرى خلال فترة إقامته هنا.

كانت بوابة المدينة تقع إلى يمين شارلوك. وكان هناك حراس يعتمرون قبعات معدنية براقية، ويرتدون زياً موحداً براقاً أيضاً، ويوقفون كل من يريد دخول المدينة عبر البوابة ويستجوبونه ويتأكدون من أوراقه. مجدداً، كان ما رآه من تصرف الحراس دليلاً على عدم استقرار البلاد. وطمأن شارلوك من كل قلبه أن يعم الهدوء المنطقة أثناء تواجده فيها، فبعد مغادرته يستطيع السكان المحليون خوض الحروب كما يشاءون. نظر شارلوك وهو يسير إلى الناس الذين كانوا يهرون بالقرب منه، وكان معظمهم يرتدون ثياباً فضفاضة تلف حول أجسادهم، والتي سبق له أن شاهد مثيلاً لها عندما كان يقف على متن السفينة. وكانت الأدوات التي يستخدمها الناس هنا مزخرفة بمجملها أو مطبعة أو ملونة بألوان براقية، وكانت ألوانها تختلف بشكل كبير عن الألوان البنية والرمادية والسوداء التي اعتاد عليها في إنكلترا. ولكنه وجد أن بعض الأشياء لا تختلف عما هي عليه في بلاده. وكان بإمكانه التواصل مع الباعة عبر القيام بمجموعة من الاشارات المرسومة على لافتات علقوها فوق رؤوسهم. تقدم أحد الرجال من شارلوك بينما كان يسير، وقد بدا وكأنه في العقد الثالث من العمر، ولكن يديه بدتا وكأنهما أكبر بكثير من عمره، فقد كانتا بيضاوين ومجعدتين. فكر شارلوك في سره في أن هذا الرجل ربما يمتلك مصبغة، وقد أمضى جل نهاره وهو يضع يديه بالماء الحار والصابون. ثم مر به رجل آخر كانت ذراعه ووجهه مسفوعة بالشمس ولكن يديه بيضاوان، ففكر شارلوك في سره في أن هذا الرجل ربما كان خبازاً، وربما هذا البياض الذي يغطي يديه يعود لأثر الدقيق. كما مر به أيضاً العديد من الطباخين من أمثال هو تشانغ وكانت الجروح الدقيقة والرفيعة تغطي أيديهم وأكفهم. إلا أن معظم من شاهدتهم

كانت ثيابهم مغمضة وملطخة بالطين فقدر أنهم فلاحون أمضوا نهارهم منحنيين وهم يزرعون أو يقتلعون الخضار.

عندها، تذكر شارلوك المغلف الذي أعطاه إياه السيد لارتشمنت، فأخرجه من مخبئه في جيبه وتفحص محتواه. كان يحتوي على تشكيلة من النقود النحاسية من فئات مختلفة، إلا أنها لم تكن نقوداً إنكليزية، فقد كانت تتوسط معظمها فجوة مربعة الشكل، وكانت توجد رموز غريبة منقوشة حول حافتها. لقد افترض شارلوك أن هذه النقود صينية، واعتبر أنه أمر جيد أن يسدد السيد لارتشمنت أجور البحارة بالعملة المحلية؛ فتصرفه هذا يتفق والمنطق السليم، لأنه ما من داعٍ لأن يدفع الأجور بالجنيه الاسترليني طالما أن السكان والباعة المحليين لا يتعاملون إلا بعملتهم المحلية. ولم يكن باستطاعته أن يعرف قيمة هذه القطع النقدية، وإن كان ما أعطاه إياه لارتشمنت بدلاً عادلاً ومنصفاً مقابل العمل الشاق الذي أداه طوال أسابيع على متن السفينة؛ إلا أنه لم يعر الأمر أهمية. فالنقود لم تشكل يوماً هدفاً له وغاية، وهذا ما لم يكن ماتي يستطيع فهمه.

وقبل أن يقرر ما هي الخطوة التالية التي ينوي القيام بها، حصل له أمر مفاجئ؛ فقد قبضت يد على المغلف، وتلقى ضربة قوية على ظهره، مما ألقى به أرضاً. إلا أن شارلوك استطاع الالتفاف أثناء سقوطه، فاصطدم ظهره بالأرض بدلاً من صدره، وشعر بالحرارة تخز ظهره.

لقد كانت هناك مجموعة من ثلاثة فتیان تحيط به، وكانوا بحجمه تقريباً إلا أن شعرهم كان أسود اللون. وبالرغم من أنهم بدوا يافعين، إلا أن الفتى الذي أخذ المغلف منه كان ذا شارب خفيف، أما الفتى الذي كان يقف إلى يمينه فكانت له لحية حديثة النمو، في حين أن الفتى الثالث لم يكن هناك أثر لشارب أو لحية على وجهه إلا أن شعره كان طويلاً ومدهنًا. تابع الناس الذي كانوا في الجوار طريقهم وكأنه ما من شيء يحدث، وقد بدوا لشارلوك وكأنهم يعيشون في قلعتهم الخاصة معزولين عن العالم خارجها. عندئذ سأله الفتى الذي انتزع المغلف من يده بلغة كانتونية قائلاً: "أظن أنك لا تحتاج إلى هذا، أليس كذلك؟". فرد عليه شارلوك قائلاً: "على العكس تماماً، أنا بحاجة إليه". في تلك الأثناء، وقف شارلوك وأخذ ينفخ الغبار عن ثيابه الرثة، فنظر إليه الفتیان الثلاثة مندهشين. وسأله الفتى ذو الشعر المدهن: "أنت تتكلم الكانتونية؟! لم أكن أظن أن البرابرة البيض يتكلمون لغتنا". فأجابه شارلوك: "إنني أستطيع القيام بالكثير من الأشياء بالإضافة إلى تكلم لغتكم. هيا، أعيدوا إليّ هذا الشيء

وإلا". فسأله الفتى ذو اللحية حديثة النمو: "وإلا ماذا؟".
في تلك الأثناء، وجد شارلوك أن يديه تقومان بشكل لا إرادي
بحركات تاي تشي دفاعية، ورد على الفتى قائلاً: "وإلا سأستعده بنفسى
وعلى طريقي". فنظر الفتى إلى رفيقيه وقال: "واحد ضد ثلاثة، هذا ليس
عدلاً، فكل واحد منا بمفرده يستطيع القضاء عليك فكيف سيكون الأمر إن
هاجمناك مجتمعين".

"العدد غير مهم، أنا أرغب بمقاتلتكم أكثر مما ترغبون".
وما إن أنهى كلامه حتى سمع أحدهم يتكلم بلغة كانتونية قائلاً:
"الأمر لن يكون ثلاثة ضد واحد، بل سيكون ثلاثة ضد اثنين. واثنان منا
نحن البيض نستطيعان القضاء عليكم بيسر وسهولة".

عندئذ، استدار الفتیان الثلاثة لكي يروا المتكلم، فاستغل شارلوك الفرصة
وانتزع المغلف من يد الفتى الذي أخذه منه. عندها، حاول الفتى انتزاعه
مجدداً من يد شارلوك الذي لم يلبث أن خطأ إلى الخلف متراجعاً.
في الجهة المقابلة، وقف فتى غربي يافع، كان بسن شارلوك وطوله
تقريباً. وكان نحيلاً ويضع نظارة معدنية، وأشقر الشعر، أو بالأحرى يمكن
وصف لون شعره بالأبيض وليس بالأشقر. وكان الشعر يغطي رأسه ويصل
إلى حدود أذنيه، وكان يرتدي ثياباً صينية؛ إلا أنها كانت أجدد وأنظف من
ثياب الباقيين. تقدم ذو الشارب نحو شارلوك لينتزع المغلف من يده، في
الوقت عينه الذي قرر فيه رفيقاه مهاجمة الوافد الجديد. تقدم ذو اللحية
ليدفع كتف الفتى، فيما وضع ذو الشعر المدهن قدمه خلفه بقصد عرقلته.
في المقلب الآخر، قبض شارلوك على يد الفتى المندفع نحوه، بيده
اليمنى، ثم انحنى ولف جسده تحت الفتى، فما كان من الفتى إلا أن
ارتج بتأثير الضغط الذي طبقه شارلوك على يده. في تلك الأثناء، ألقى
شارلوك نظرة سريعة على الفتى الذي أتى لمساندته، فرآه يُبعد بسهولة اليد
التي اتجهت نحو كتفه. وخطأ إلى الأمام ثم إلى الخلف مفقداً ذا الشعر
المدهن توازنه، ثم ضربه بيده اليمنى، وانهال بأخمص يده على القفص
الصدري للفتى ذي اللحية؛ فانقلب هذا الأخير على الأرض وهو يتلوى من
شدة الألم. وقبل أن تتاح لصاحب الشعر المدهن فرصة التحرك صفعه
بمعصمه على وجهه، فتراجع الفتى المصفوع إلى الخلف والدم يسيل من
أنفه، وشعر شارلوك بأن الفتى الذي يقوم بقتل يده يحاول التحرر، فما
كان منه إلا أن قتل يده بشدة أكبر، فانقذف جسده إلى الخلف من شدة
الألم. وبعد ذلك، حرر شارلوك يده وركله على مؤخرته فسقط أرضاً على

غير هدى، لا حول له ولا قوة.

عندها، صاح الفتى أشقر الشعر بالإنكليزية: "من الأفضل أن نغادر الآن". وسحب ذراع شارلوك، وركضا ثم قال: "حسناً، هذا جيد. لقد كانوا ثلاثة، وهم يتدربون على الفنون القتالية منذ أن كانوا في الخامسة من عمرهم".

"ولكننا أبلينا بلاء حسناً".

"لقد كنا محظوظين، وأخذناهم على حين غرة". ونظر حوله قبل أن يتابع: "لقد كان رفاقهم في الجوار".

وافقه شارلوك الرأي: "نقطة جيدة".

ركضا بين الحشد وهما يتلويان وينعطفان خشية أن يكون الفتيان في أثرهما. وغيّر الفتى الأشقر اتجاههما أكثر من مرة. وأخيراً، قاد شارلوك إلى خلف بعض الأكشاك التي تبيع السمك والصلصة، وكانت هناك مجموعة من الصناديق المبعثرة على العشب فأوماً لشارلوك كي يجلس على أحدها. عندها قال له شارلوك: "شكراً لك لأنك أنقذتني. سأذكر صنيعك هذا ما حييت".

فرد عليه الفتى الأشقر: "دعك من هذا. لا شكر على واجب". عندئذ رفع نظارته عن وجهه، وأخذ ينظفها بمنديل أخرجه من جيبه وقال: "أدعى كاميرون، كاميرون ماكينزي".

فرد عليه شارلوك: "وأنا شارلوك، شارلوك سكوت هولمز".

فقال له كاميرون: "ترجلت من السفينة التي رست بعد الظهر". لم يكن يسأله، بل بدا وكأنه يعلمه أنه يعرف. "ولكنك لا تبدو كبجار عادي، فأنت أصغر من سائر البحارة، كما أنك لم تتجه مباشرة إلى الحانة كما يفعلون". وضحك مصدراً صوتاً تردد صداه في الفضاء قبل أن يتلاشى بسرعة، وقبل أن يتاح لشارلوك فهم معناه أو مغزاه. "إنهم يتقاضون أجورهم وينفقونها قبل أن يصلوا إلى بوابة المدينة؛ كما لو أن الحراس لن يسمحوا لهم بالدخول وهم يحملون النقود، فشانغهاي لا تزال مدينة معزولة".

كان كاميرون يتكلم إنكليزية ذات لكنة، فرد عليه شارلوك: "يبدو جلياً أنك تقيم هنا؛ فلغتك الكانتونية لا غبار عليها. ولكن، نظراً إلى أن إنكليزيتك مميزة، تبدو لي أميركياً. أليس كذلك؟".

أوماً كاميرون وقال: "أبي أميركي. لقد أتينا إلى هنا عندما كنت في الخامسة من عمري". ومسح جبينه بمنديله قبل أن يتابع: "أبي وكيل محلي

للسفن؛ فهو يقوم بشراء البضائع التي تحملها السفن التي ترسو هنا، ثم يقوم ببيعها مجدداً للسكان والتجار المحليين لقاء ربح. وبفضل عمل والدي علمت أن سفينة قد وصلت، ولقد شاهدتك وأنت تسير على الجسر الذي يربط السفينة بالرصيف بعد مغادرة الجميع، ولاحظت أنك في مثل عمري تقريباً، لذا فكرت في أن إلقاء التحية عليك سيكون فكرة سديدة. وعندما شاهدت أولئك القردة وهم يحاولون سلبك نقودك قررت أن أمد لك يد المساعدة. أمل أن لا أكون قد أزعجتك".

فرد عليه شارلوك: "على الإطلاق. أفهم من كلامك أنك تمضي الكثير من الوقت على رصيف الميناء مشاهداً السفن القادمة والمغادرة".
أوماً كاميرون ونظر بعيداً. بدا وكأنه يشعر بالخجل نوعاً ما: "إنني لا أذكر الكثير من الأشياء عن بلدي. حتى إن الأشياء التي أذكرها تبدو لي بمثابة حلم، أو كما لو أنني قرأت عنها في بعض الكتب. إنني أحب التحدث إلى الناس الذين أتوا حديثاً من أميركا، وسماع ما يمكنهم أن يخبروني عنها".

فرد عليه شارلوك: "لقد ذهبت إلى نيويورك إلا أنني لم أمكث فيها سوى أسبوع واحد، كما زرت الريف. هل تريد أن أخبرك شيئاً عن زيارتي؟".

هز كاميرون رأسه بحماسة: "أبي من شيكاغو، ولكن الأخبار عن نيويورك لا بأس بها كما أنها مفيدة؛ فهي مدينة كبيرة". وتوقف قليلاً وأخذ يفكر قبل أن يتابع: "إنني أفضل أن نذهب إلى منزلي بدلاً من الجلوس في هذا المكان المعتم. إنني متأكد من أن والدي لا يمانعان استضافتك على العشاء".

فرد عليه شارلوك: "لا مانع لدي؛ إن كنت متأكداً من أن الأمر لن يسبب لك مشكلة".

فرد عليه كاميرون: "أنا متأكد". ونظر إلى ثياب شارلوك نظرة منتقدة وقال: "مع أنني على يقين من أن أمي ستصر عليك كي تغيّر ثياب البحارة التي ترتديها وترتدي ثياباً من خزانتي؛ فهي متشددة جداً حيال ضرورة ارتداء ثياب ملائمة أثناء تناول العشاء".

عندها، قال شارلوك مقدراً اهتمام كاميرون: "نحن تقريباً بالحجم نفسه؟".

"ممتاز. إذًا، تعال".

تقدم كاميرون المسير باتجاه الطريق، ثم اتجه نحو أبواب المدينة. نظر

شارلوك إلى الخلف، ولاحظ وجود السفينة البيضاء الطويلة التي شاهدها عندما كان يقف على سطح غلوريا سكوت، فسأل كاميرون: "ما هذه السفينة؟ أنت تعرف كل السفن التي ترسو هنا".

نظر كاميرون إلى حيث كانت إصبع شارلوك تشير وقال: "إنها سفينة حربية أميركية، تدعى يو أس أس موناكسي، وقد رست هنا بالأمس".
عندها، رد عليه شارلوك متسائلاً: "سفينة حربية؟!". وقد تذكر آثار القنابل على السور: "لن تنشب حرب هنا، أليس كذلك؟".

"ليس الآن؛ إنها زيارة حسن نية. لقد طلب قبطان السفينة السماح له بالإبحار إلى نهر يانغتزي، وقال إن لديه أوامر بإعداد خريطة أفضل للمنطقة. لقد اتصل بأبي، ودفع له لكي يتوسط له مع السلطات المحلية بصفته أهم أميركي في المنطقة".

عندها سأله: "ولكن، ما الذي أصاب مدختها؟".
"هل انتبهت إلى ذلك؟ لقد سمعت القبطان يخبر والدي أنها دمرت بالإعصار، ولكنه قام بإصلاحها في أحد الموانئ اليابانية".

ما إن وصلا إلى سور المدينة وشاهد الحراس حتى شعر شارلوك بالارتباك. لكن الحراس كانوا يعرفون كاميرون فلوحوا له، وتجاهلوا شارلوك بالكامل، وسمحوا له بالدخول، فظن شارلوك أن كل شخص يكون برفقة شخص مسموح له بالدخول يسمح له بالدخول أيضاً.

ما إن عبرا البوابة حتى قال كاميرون موضحاً: "تدعى هذه البوابة بوابة ليينغ دراغن، وهي واحدة من أربع عشرة بوابة أخرى".

عندما كانا يسيران عبر المدينة، التفت كاميرون نحو شارلوك وقال له: "لم تفتح هذه المدينة أمام الغرباء إلا منذ سنوات قليلة. وقبل ذلك، كان يفترض بالأجانب أن يعيشوا في منطقة محددة خارج أسوار المدينة، وكان يفترض بمن يريد أن يتعامل معنا من السكان المحليين والتجار أن يتوجه إلى منطقتنا". فسأله شارلوك: "ولكن، ما الذي بدل الحال؟".

فابتسم شارلوك: "لقد شنت بريطانيا حرباً على الصين لكي تقوم بفتح أبوابها أمام الأجانب".

فقال شارلوك: "من الواضح أننا انتصرنا؛ بالرغم من أنني لم أسمع عن هذه الحرب من قبل".

فأجابه كاميرون: "صحيح. وربما سيقوم أبي بشكرك شخصياً".
فكر شارلوك بشقيقه الذي كان يشغل منصباً مهماً في الحكومة البريطانية وقال: "سأوصل الشكر إلى من يستحقه".

ضحك كاميرون وأصدر صوت نخير: "بالتأكيد. بالرغم من أن السلطات الصينية سمحت لنا بالإقامة داخل المدينة، إلا أنها تتأكد دائماً من أن الأجانب يعيشون في أماكن بالقرب من بعضهم بعضاً. وغالباً ما يقوم رجال الشرطة بالتأكد من أننا لا نتجول بعيداً عن أماكن إقامتنا. كما أنهم لا يرغبون بأن نرتدي زيهم الخاص، وعندما ينتبهون إليّ سيطلبون مني تغيير ثيابي".

لم يسبق لشارلوك أن رأى مثيلاً لمباني هذه المدينة؛ فقد كانت مؤلفة من طابق أو طابقين على الأكثر. وبدلاً من أن تكون محاطة بحدائق كما هي الحال في بريطانيا، كانت المنازل تحيط بالحدائق الخاصة بها، وكانت أسطح المباني مزخرفة بطريقة رائعة، وكان القرميد يغطيها، كما أن نهايات الأسطح كانت تتجه نحو الأعلى، وكانت التماثيل تتواجد أمام أبواب كل المنازل، وتعود لرجل أصلع سمين. وتأكد شارلوك أن لهذه التماثيل قيمة لم يتمكن من إدراك كنهها. وعند زاوية كل شارع، أو في كل فسحة بين منزلين، كانت توجد تماثيل تعود لحيوانات أسطورية. وكان معظمها يعود لحيوان يتراوح بين الكلب والأسد، وكان لبعضها قرون، أما بعضها الآخر فكان يمتلك أجنحة.

عندما لاحظ كاميرون اهتمام شارلوك بالتماثيل قال: "بيكسي كولون وتينالو".

لكن شارلوك لم ينتبه إلى ما قاله كاميرون، كما أن الأخير لم يشرح ما قاله.

لم يكن مكان إقامة آل ماكينزي بعيداً عن البوابات. ولم يبدُ المنزل من الخارج مختلفاً عن سائر المنازل. طرق كاميرون على الباب، وما لبث أن فتحه رجل كبير في السن يرتدي بذلة سوداء.

قال الرجل الكبير في السن: "سيد كاميرون، بدأت والدتك تقلق عليك". كان صوته هادئاً وخشناً.

دفعه كاميرون وتقدم قائلاً: "أنا دائماً بخير يا هاريس". ثم استدار وأشار إلى شارلوك وقال: "هذا صديقي ويدعى شارلوك هولمز، سينضم إلينا على العشاء".

فهز هاريس رأسه، وأوماً لشارلوك مرحباً وقال: "جيد جداً، سأخبر الطباخ، وأظنك ستخبر والديك بشأن الضيف؟".

"سأقوم بذلك على الفور". وأشار لشارلوك كي يتبعه، وقال: "اتبعني كي أعرفك إلى والدي".

لم يكن شارلوك يعرف كيف يكون المنزل الصيني من الداخل، ولكن المظهر الداخلي لمنزل آل ماكينزي كان كثير الشبه بمنزل عمه وعمته. فقد كانت ألواح الجدران باللون الداكن نفسه، كما أن بلاط القاعة والممر كان باللون نفسه أيضاً، أما السجاد الذي كان يتوزع في الغرف كان شبيهاً إلى حد ما بالسجاد الذي يغطي أرضية غرف منزل عمه، كما أن آل ماكينزي كانوا يوزعون التحف بالطريقة عينها. ولكن الاختلاف الوحيد كان يتمثل بالأعمال الفنية؛ فالأعمال الفنية في منزل عمه كانت عبارة عن لوحات للأحصنة، في حين أن الأعمال الفنية في منزل آل ماكينزي عبارة عن تماثيل صغيرة لثنانين، بالإضافة إلى لوحات تمثل صينيين مسنين ذوي لحى بيضاء طويلة. لم يشعر شارلوك الذي كان لا يزال يرتدي ثياب البحارة بالراحة في منزل آل ماكينزي، ولكن كامرون لم يلاحظ ذلك، بل قام بسحبه من ذراعه بحماسة إلى إحدى الغرف الجانبية. وقال: "أمي، أبي، لقد أحضرت صديقاً لي لينضم إلينا على العشاء، هل تمانعان؟".

بدا بوضوح أن الغرفة التي دخلها كانت غرفة الجلوس، فقد كانت مقاعدها مريحة، وكانت هناك طاولات في طرفها، وكان الجو فيها يدعو للاسترخاء. وكان يجلس على أحد المقاعد رجل يقرأ صحيفة، وبدا وكأنه في أواسط العقد الرابع من العمر، وكان شعره أسود قصيراً، وبدا أن الشيب بدأ يهاجم أطرافه، وكان يدخل غليوناً. وكانت هناك امرأة تجلس إلى جانبه منهمكة بالحياسة، ومرتدية فستاناً محلي الصنع من الحرير القرمزي ومطبعاً بأوراق الأشجار، أما شعرها فكان نحاسياً محمراً. وقد لاحظ شارلوك جمال عينيها الخضراوين.

"عزيزي، لقد احترنا في أمرك وقلقنا عليك، لماذا تأخرت؟ بالطبع، لا مانع لدينا إن أحضرت صديقاً لك، شرط أن تخبرنا بذلك قبل فترة وجيزة من إحضاره". ثم لاحظت وجود شارلوك فحيته.

أحنى شارلوك رأسه، وبدا له أنه يفترض به القيام بهذه الانحناء التي تنم عن تهذيب، وقال: "عذراً على تطفلي. لقد التقيت كامرون منذ قليل، وقد مد لي يد المساعدة عندما كنت في ورطة، وأنا أدعى شارلوك هولمز".

عندها، وقف والد كامرون، ووضع الصحيفة جانباً، ومد يده ليصافح شارلوك: "إنني مسرور بلقائك. أنا السيد ماكينزي وهذه زوجتي. أهلاً بك في منزلنا. ليس هناك الكثير من الغربيين الذين يأتون إلى هنا ويقابلهم كامرون، والذين يمكنه أن يقيم صداقة معهم. لذا، نحن مسروران بوجودك

هنا".

ثم ألقى نظرة ثاقبة على ثياب شارلوك وقال: "هناك سفينة رست بعد ظهر اليوم أظنها غلوريا سكوت وأنت من طاقمها".
أوماً شارلوك بخجل وقال: "قصتي طويلة". وعندما هم بالتكلم، قاطعته السيدة ماكينزي وقالت: "سيحين موعد رواية القصص لاحقاً. كاميرون، خذ صديقك إلى الأعلى، ودعه يجرب بعضاً من ملابسك، فنحن نريده أن يكون مهندياً عندما يجلس لتناول العشاء. سينضم إلينا على العشاء قبطان وكبار قادة السفينة يو أس أس موناكسي". وجعدت أنفها وتابعت: "نحن في العادة يا شارلوك لا نكون على هذا القدر من الرسمية، ولكنك تعلم كيف يكون قبطان السفينة".

عندها، تذكر شارلوك القبطان تولاوي وقال: "نعم. سيدي وسيدتي، إنني لا أود أن أسبب لكما المتاعب، سيكون من السيئ وجودي فيما أنتما تنتظران ضيوفاً. سيكون من الأفضل أن أغادر".
حاول شارلوك تجاهل تعابير وجه كاميرون الذي كان يشبه وجوه الشخصيات في الكتب الهزلية؛ والتي كانت خليطاً من عدم التصديق والإحباط.

حينها، ربت السيد ماكينزي على كتف شارلوك وقال: "إنك لعلی خلق حميد؛ تماماً كما يمكن أن أتوقع من شخص بريطاني. لا تقلق يا بني، فلدينا طعام وكراسٍ بما يكفي للجميع. وأستطيع أن أوكد لك أنك ستتناول طعاماً جيداً ولذيذاً لن تتذوق مثيلاً له في كل الصين".
"مالكوم". بدأت السيدة ماكينزي تتكلم، فنظر إليها زوجها، فقامت بدورها بالنظر إلى شارلوك ثم عاودت النظر إلى زوجها. من الواضح أنها كانت تسعى من وراء ذلك إلى توجيه رسالة.

حينها سأله السيد ماكينزي: "أين ستمضي أيامك يا بني؟". فتح شارلوك فمه ليتكلم، ولكنه انتبه إلى أنه لا يملك جواباً فقال: "أعتقد أنني سأبقى على متن غلوريا سكوت". بقيت السيدة ماكينزي تنظر إلى زوجها. وبعد لحظات قال: "ستوزع وقتك بين السفينة ومنزلنا، يبدو أن كاميرون يحب صداقتك، وهو لا يظهر مثل هذا الشعور دائماً". هنا قال كاميرون: "إن الجميع يقولون إنني كثير الانتقاد؛ لأنني أقول ما أريده وما أفكر فيه، وليس ما يريدون هم أن يسمعوه". هنا قال السيد ماكينزي: "يا بني، إذا كنت تستطيع التأقلم مع هذا الوضع فنحن نرحب بك هنا". وعندها، نظر إلى ساعة تتدلى من سلسلة معلقة في جيب سترته وقال: "سيكون العشاء

بعد ساعة. اصعدا واستحما، والبسا أفضل الثياب؛ فالقبطان براين رجل مهم". قاد كاميرون شارلوك ولكن ليس إلى الأعلى؛ فكما لاحظ شارلوك، لم يكن هناك في الواقع طابق في الأعلى، بل عبر ممر طويل ينتهي بباب أفضى بهما إلى ساحة مربعة غير مسقوفة كانت جميلة المنظر، فيها جلاميد من الحجارة وشجيرات ومقاعد للجلوس، وكانت تزينها فوانيس ورقية لامعة أنارت جانبي الساحة، إلا أن الظلام كان يخيم نسبياً على وسطها، فيما حلقت فوق رأسيهما طيور الليل. اجتازا الساحة إلى الجهة المقابلة؛ حيث تقع غرفة كاميرون التي كانت مليئة بمجسمات السفن، بالإضافة إلى صور تظهر شوارع أميركا، وكانت العربات والأحصنة تظهر في معظم الصور.

فتح الفتى الأشقر خزانة ثيابه، وألقى نظرة على الثياب المعلقة فيها وقال مخاطباً شارلوك: "اختر ما تريد أن ترتديه، اختر سترة وسروالاً. سيكون أبي مرتدياً ثياباً خاصة بالمساء، كما أظن أن والدتي سترتدي فستاناً كثير الزركشة، ولا أظنهما يريدان منا أن نرتدي ثياباً مثل ثيابهما. إن استطعنا أن نتدبر أمرنا ونكون أنيقين فستسير الأمور على خير ما يرام".

حدق شارلوك بدهشة إلى صف الألبسة في الخزانة، فقد نسي كل ما له علاقة بتنسيق الثياب؛ فهو منذ فترة لم يبدل ثيابه، كما أنه نسي كل ما له علاقة بالتصرف بكياسة في المجتمع، ونسي ما يفترض به أن يرتديه عندما يكون مدعواً على العشاء، عدا عن كيفية استخدام أدوات المائدة. قال كاميرون قاطعاً على شارلوك حبل أفكاره: "سأخبر الخادمة كي تجهز الحمام. من النظر إليك، يمكنني أن أتوقع أنك لم تستمتع بحمام دافئ منذ فترة طويلة".

بعد أن أمضى شارلوك كل الفترة الماضية في عرض المحيط، لم يكن متأكداً من أنه يريد أن يرى المياه مجدداً. ولكن بعد لحظات، وبينما كان يحدق إلى الحمام وهو ينتظر أن تتحرك مشاعره تجاه المياه بشكل إيجابي، عقد العزم وخطا نحو المغطس. وما إن غمرته المياه الدافئة حتى شعر بالاسترخاء في عضلاته، وأحس بأن طبقات الملح التي كانت تكسو جلده بدأت تذوب وتتلاشى.

ما إن أنها ارتداء ملابسها حتى توجه شارلوك وكاميرون إلى الجهة الأخرى من المنزل. استطاع شارلوك أن يسمع صوت المناقشات والأحاديث من بعيد. كان مالكوم وزوجته يرحبان بالضيوف في الحديقة، وكان الخدم الذين يحملون الصواني المليئة بكؤوس الشراب التي يقدمونها للضيوف منتشرين في الأرجاء، فيما كان هاريس يقف في ركن قصي وهو يتابع كل

شاردة وواردة تتعلق بحسن الضيافة.

كان الضيوف من يو أس أس موناكسي يرتدون زي البحارة الموحد الأزرق، بالإضافة إلى سترات طويلة سوداء تصل إلى ركبهم وتمتلك صفيين من الأزرار ذهبية اللون التي تمتد من الأعلى حتى أسفل السترة. وكانوا يعتمرون قبعات بيضاء تعلوها سلاسل ذهبية، وكان اثنان من الضيوف يرتديان ثياباً رسمية مدنية، وقد افترض شارلوك أنهما على علاقة عمل تجارية مع السيد مالكوم ماكينزي. كانت السيدة ماكينزي السيدة الوحيدة في الحفل، ولم يبد أن ذلك يزعجها، بل على العكس؛ إذ بدت وكأنها تنتقل بسهولة ويسر بين الضيوف وتتأكد من أن كل واحد منهم أخذ كأساً من الشراب، ولديه شريك يتحدث إليه.

قال كاميرون وقد بدا كئيباً: "إنني أكره هذا النوع من الحفلات؛ إذ غالباً ما ينتهي بي الأمر وأنا أتحدث إلى أكثر الأشخاص إثارة للمل. ولكن المشكلة تكمن في أنني أخبرهما دائماً بما أعانيه ولا يقدمان لي حلاً". عندها قال له شارلوك: "ولكنك تتكلم معي الليلة".

فرد عليه كاميرون: "نعم، هذه الليلة مختلفة". وأوماً إلى أحد الخدم الذي مر بالقرب منهما، والذي كان يحمل صينية مليئة بكؤوس الشراب، فأخذ كاميرون من الصينية كأسين، ومرر إحداهما لشارلوك وقال له: "خذ هذه، يفترض بالشراب أن يجعل الليلة تمر بسرعة".

كان من السهل تمييز القبطان براين، فقد كان أكبر الرجال سناً، وكان يمتلك العديد من الجدائل الزينية الذهبية، بالإضافة إلى عدد من النجوم الذهبية التي تزين ثيابه، والتي تجعل عدم تمييزه بين الحضور ضرباً من المستحيل. كما أن صوته كان الأكثر جهورية بين الجميع، وقد أصغى إليه شارلوك بانتباه عندما كان يروي قصة تحطم المدخنة، وكيف حطم الإعصار المدخنة وكأنها مصنوعة من ورق ونسيج وليس من معدن صلب.

عندما بدا للسيدة ماكينزي أن القبطان يود التكلم طوال الليل قامت بمقاطعته وسألته: "كنت أود أن أسألك، ما الذي يعنيه اسم سفينتكم؟".

أجابها القبطان وهو يُغيّر لهجة حديثه التي بقي فيها الكثير من الجاذبية: "سيدتي، موناكسي هو أحد روافد نهر بوتوماك العظيم. وأصل الاسم هندي، وهو الاسم الأصلي للنهر. وقد أخبرني بعض الضالعين بلغة الهنود أن الاسم الهندي يعني النهر كثير المنعطفات". نظر القبطان إلى حشد المستمعين وتابع: "لقد حصلت معركة بين الولايات قبل ست سنوات في هذا النهر، وتمت تسمية سفينتنا على اسم المعركة، كي لا تنسى ذكرى

تلك المعركة".

ذُكرت الإشارة إلى الحرب بين ولايات الولايات المتحدة شارلوك بالوقت الذي كان فيه في نيويورك، وبمقابلته السيد دوك بالتينز الذي كان يقف إلى جانب دعاة الكونفدرالية- الجانب الذي خسر الحرب- والذي كان يخطط لإقامة دولة كونفدرالية مع كندا. أياً يكن ما حصل في الحرب الأمريكية، بدا أن ندوبها عميقة جداً.

عندئذ قالت السيدة ماكينزي مقاطعة حبل أفكار شارلوك: "كم هذا رائع! أنا أخشى أننا أمضينا فترة طويلة خارج بلادنا، وبما أن الأخبار كانت تردنا متأخرة، فنحن لم نعلم بما يحدث بين دعاة الفيدرالية والكونفدرالية". وضعت السيدة ماكينزي يدها على ساعد القبطان، وسألت بصوت منخفض: "هل كان الأمر سيئاً جداً؟".

ربت القبطان على يدها مطمئناً وقال: "سيدتي، ليس من السهل ولا من المقبول أن تسعى الدولة إلى تفتيت ذاتها. إنه لأمر في غاية السوء أن يقتل الأب ابنه ويقتل الأخ أخاه. ولكن، يجب علينا أن نتذكر أن أميركا دولة فتية، كما أنها تتكون من مكونات عديدة ومتناقضة، وكل منها لا يوافق على ما يطرحه الآخر، ولهذه الأسباب يمكننا توقع الشجار والنزاع". حينها انضم السيد مالكوم إلى المجموعة وقال: "إن هذا الأمر لا يحدث في الدول الفتية فقط؛ فالصين دولة قديمة، ولكن هناك متمردين فيها حتى الآن، وهم يقومون بشن الهجمات بين الفينة والأخرى".

تذكر شارلوك آثار القنابل على أسوار المدينة، وما سمعه فسر له سبب وجودها؛ فقد كانت هناك معارك من أجل السيطرة على المدينة. عندها، تقدم إلى الأمام كي يتسنى له أن يسمع على نحو أفضل.

تابع السيد ماكينزي حديثه وقال: "غالبية سكان الصين من عرق الهان، وقد عاشوا هنا منذ مئات السنين إن لم نقل آلاف السنين. إلا أن المشاكل بدأت عندما تعرضوا للغزو من قبل المانشو الذين أتوا من الشمال؛ إذ عندها سيطرت سلالة كينغ على البلاد بأكملها، وأصبح الهان محكومين بعد أن كانوا حاكمين".

فسأله القبطان براين: "يمكنني أن أفترض أن الهان لا يعجبهم الأمر؟". فرد عليه السيد ماكينزي: "في الحقيقة، معظمهم لا يعيرون الأمر أهمية بطريقة أو بأخرى؛ فهم يسعون للعيش بسلام. ولكن هناك مجموعات صغيرة من المتمردين الهان استمرت بمهاجمة سلالة كينغ خلال السنوات العشرين الماضية. المحليون يطلقون عليهم اسم متمرودو تايبة، نسبة

إلى المنطقة التي بدأوا نشاطهم فيها. وبين الحين والآخر تحدث معارك في مكان ما، فيقوم المتمردون بالاستيلاء على إحدى المدن قبل أن يقوم جنود سلالة كينغ بطردهم منها. وقد سقطت مدينة شانغهاي بيد المتمردين في العام 1853 ولكن سلالة كينغ استعادتها بعد عدة أسابيع. وبين عامي 1860 و1862 هاجم متمرديو تايبة المدينة مرتين، واستولوا عليها، ودمروا الضواحي الشرقية والغربية منها، ولكنهم فشلوا في المحافظة على سيطرتهم؛ فقد كانوا يطمحون إلى طرد الغزاة المانشو؛ ولكن المانشو وسلالة كينغ لم يكونوا يعتبرون أنفسهم غزاة، ولم يكن لدى الثوار مخطط واضح لجعلهم يرحلون، وقد أخفقوا في مسعاهم".

شد كاميرون كم شارلوك وقال له: "تعال، هذا ممل جداً. لنذهب إلى مكان ما في الحديقة حيث يمكننا التحدث عن أميركا". استدار كاميرون وذهب، وكان من الواضح أن شارلوك ينوي اللحاق به، ولكن كاميرون اصطدم برجل كان يمر خلفه. كان ذلك الرجل يرتدي بذلة، وكانت ياقته وكماه الأبيضان تبرز بوضوح لون بشرته الغريب. لقد كان السيد أرينيوس.

الفصل السادس

ارتد كاميرون إلى الورااء مصدوماً، وقام شارلوك بالتقاطه قبل أن يتعثر ويقع أرضاً.

عندها، قال أرينيوس بصوته الجاف والهامس كما عهدته: "ألست البحار الصغير هولمز؟". وأخذ يتفحصه من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، ثم قال: "تبدو مهندياً على نحو رائع على عكس ما كنت عليه عندما التقينا على متن السفينة. في الحقيقة، اعترف بأنني تفاجأت برؤيتك هنا؛ فقد كنت أعتقد أن هذه الأمسية مخصصة لرجال الأعمال وكبار الرسميين، ولم أكن أعرف أن أحد البحارة من طاقم السفينة سيدعى إليها".

أخذ شارلوك نفساً عميقاً وقال: "إنه لمن دواعي سروري أن أراك مجدداً". توقف وأشار إلى كاميرون وتابع: "لقد دعيت من قبل السيد والسيدة ماكينزي لتمضية الوقت هنا طيلة الفترة التي سترسو فيها السفينة، وهذا ابنيهما كاميرون؛ إننا صديقان".

نقل أرينيوس نظراته بين شارلوك وكاميرون الذي تراجع خطوة إلى الخلف. عندها، قال شارلوك: "يعاني السيد أرينيوس من مشكلة جلدية ليست خطيرة، كما أنها ليست معدية".

الآن، أدرك شارلوك أن أرينيوس مدعو للعشاء، وتمكن من رؤية الضيوف وهم يحدقون إلى الرجل ذي البشرة غريبة اللون بين الحين والآخر، إلا أنهم لم يكونوا منزعجين أو متوترين من وجوده، بل كانوا مهتمين بلون بشرته الغريب. لقد كان الرجل يجذب اهتمامهم كما لو أنه مغناطيس، إلا أنهم كانوا على درجة عالية من التهذيب، ولهذا لم يتفوهوا بأي كلمة أو يقوموا بأي شيء من شأنه أن يثير الهرج والمرج. إلا أن ما أثار اهتمام شارلوك هو أنه بالرغم من دهشة المحتشدين من مظهر الرجل إلا أنهم لم يتحلقوا حوله ولم ينهالوا عليه بالأسئلة؛ وهذا ما لم يستطع شارلوك أن يفسره. فهو يعلم أنه إن كان لديه سؤال فيجب عليه أن يطرحه.

لقد بدا من الواضح أن لكاميرون ماكينزي مقارنة للحياة شبيهة بمقاربتة، فقد سأل أرينيوس: "هل تسبب لك مشكلتك الجلدية الألم؟". ثم تقدم أكثر نحو أرينيوس متفحصاً وجهه.

فرد عليه أرينيوس: "كلا، على الإطلاق أيها الصديق اليافع. في الحقيقة، العكس هو الصحيح. لقد شربت غبار الفضة مع زيت الخروع لسنوات،

وهذا ما منح بشرتي هذا اللون اللامع الجذاب. لقد حممتني الفضة من شتى أنواع الأمراض، فأنا لم أعانِ من أي مرض طيلة السنوات السابقة، حتى لو كان تقرحاً بسيطاً في الحنجرة. لقد حممتني الفضة بشكل كامل كما ترى".

أوماً كامرون وقال بجديّة: "أستطيع أن أرى. لقد أبلت الفضة بلاء حسناً في جسدك. وهل يعني هذا أن بشرتك أصبحت ذات قيمة مادية عالية؟ إنها فضية، ألا تخشى أن يقدم أحدهم على اختطافك ويعمل على تقشير جلدك وبيعه؟".

ضحك أرينيوس، وبدا صوت ضحكته كحفيف ورق الأشجار: "للأسف لا. إن الفضة في جسدي عبارة عن أوكسيدات ونيترات، وهي تحتاج إلى كيميائي بارع وحذق حتى يتمكن من استخراجها من جلدي. ولا أظن أن ما سيستخرجه سيكون ذا عائد مادي يوازي الجهد الذي سيبدله".

ثمّة أفكار سيطرت فجأة على تفكير شارلوك. بالتأكيد لم تكن على علاقة باستخراج الفضة من جلد السيد أرينيوس - الأمر الذي كان مرعباً وغير ممكن عملياً- بل كانت على علاقة بإمكانية أن تأخذ الفضة أشكالاً مختلفة؛ مثل النيترات والأوكسيدات وغيرها. فإن كان هناك شخص ضليع بالكيمياء ويعرف كيفية تمييز العناصر فيمكانه تحويل شيء إلى شيء آخر. لقد بدت له الفكرة كمن يلعب بأحجار الليغو؛ فباستطاعته تحويل الأشجار إلى حجارة أو بشر.

إلا أن انضمام السيدة ماكينزي إليهم قطع حبل أفكاره كالعادة. فقد لمست رذن أرينيوس وقالت: "السيد أرينيوس أليس كذلك؟ إنه لمن دواعي سرورنا تواجدك هنا".

أوماً أرينيوس وقال: "إنني ممتن لدعوتكما لي. إنني أعلم أن وجودي يثير المتاعب في المناسبات الاجتماعية، لذا اعتدت على تناول الطعام بمفردي عندما أكون مسافراً".

فردت عليه السيدة ماكينزي وهي تبتسم: "ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ يفترض بك أن ترى تأثيرات بعض العقاقير والعلاجات المحلية، وعندها ستري أن لا شيء يثير المتاعب في مظهرك. ذات يوم، اشترى زوجي علاجاً لتساقط الشعر من السوق المحلية، أظن أن هذا حدث منذ سنة تقريباً، وبالطبع لم يخبرني بالأمر، ولكنه أخذ يدهن به فروة رأسه سراً كل ليلة. إلا أنه ذات صباح استيقظ وكان لون شعره أخضر براقاً، ولم يقتصر الأمر على اللون الأخضر بل كان هناك طفح جلدي يغطي فروة رأسه ووجهه

ويديه. وقد بذلت جهدي طوال ذلك اليوم لأتظاهر بأنه ما من خطب في زوجي، وأخبرت الخدم أن يتصرفوا مثلي، لقد كان الأمر مسلياً.

حينها سألتها السيد أرينيوس: "وهل مظهري يسليك بالطريقة نفسها؟". ولوى شفثيه مبتسماً، ولكن صوته لم يكن ينم عن مزاح.

فردت عليه السيدة ماكينزي مطمئنة إياه وهي تلمس رذنه مجدداً: "بالطبع لا. فنحن ممتنان جداً لوجودك معنا هنا. ونحن متشوقان لكي نسمع عن أسفارك. الآن، تعال لتلتقي بزوجي".

تقدمت السيدة ماكينزي أرينيوس، وابتعدا عن الفتيتين. لاحظ شارلوك أن عدداً لا بأس به من الحاضرين كان يتابع بنظراته السيد أرينيوس.

عندها قال كامرون: "كم يبدو غريباً هذا الرجل! أتساءل إن كان بإمكانني أن أجعل جلدي كالدرع إن تناولت الحديد يومياً".

فرد عليه شارلوك: "ستعاني من ألم في البطن إن تناولت الحديد، هذا إن كنت محظوظاً".

شاهد شارلوك السيدة ماكينزي والسيد أرينيوس يقتربان من والد كامرون، وعندها ابتعدت السيدة ماكينزي كي تهتم بضيف آخر. وجد شارلوك نفسه يثبت نظره على السيد أرينيوس والسيد مالكوم، لم يبدوا بالنسبة إليه كرجلين يلتقيان للمرة الأولى، فقد بدا جليا أنهما يعرفان بعضهما من قبل، أو أنهما سمعا عن بعضهما مسبقاً.

شاهد شارلوك السيد أرينيوس وهو يضع يده في جيب سترته ويخرج منه حزمة دفع بها إلى السيد مالكوم الذي ما لبث أن وضعها مسرعاً في جيبيه. لقد كانت عملية تبادل بريئة، ولكن هناك شيئاً ما في السرعة التي حاولا أن يتما بها العملية، ومن نظرهما حولهما ليتأكدا من أنه ما من أحد شاهدهما دفع شارلوك للتساؤل عما تضمنه هذه الحزمة.

تحدث الرجلان ثانية أو ثانيتين. ولكن، كان هناك حذر، وتمكن شارلوك من رصد غضب السيد أرينيوس من الطريقة التي كان يقف بها، وبدا على السيد ماكينزي أنه يقف بشكل دفاعي، إلا أنه كان من الواضح أن أرينيوس على وشك أن يفقد صوابه.

عندها قال شارلوك: "هيا بنا، أرنى الحديقة. إنني لا أريد أن أقف هنا لوقت أطول؛ فرمما أتى أحد ما ليتحدث إلينا من باب الذوق واللياقة، وأنا أكره الأحاديث القصيرة".

أوماً كامرون، وقاد الطريق على طول الممرات التي تعبر الحديقة التي كانت أشجارها مقلمة على نحو حسن. وفي النهاية، وجد صخرتين

كبيرتين، موضوعتين بالقرب من بعضهما بعضاً فوق بقعة من الرمل. كان الرمل مُدمم وقد جرف لكي يشكل سلسلة من الدوائر متحدة المركز بالقرب من الصخرتين. لم يعر كاميرون هذا العمل الفني أهمية، وخطا فوق الرمل وجلس على إحدى الصخرتين، إلا أن شارلوك بدا أكثر حذراً واهتماماً، وحاول أن لا يترك أثراً لقدميه على الرمل إلا أن جهوده باءت بالفشل. عندها سأله كاميرون: "كنت ستخبرني عن أميركا".

أجابه شارلوك: "صحيح. ولكنني في البداية أود أن أسألك عن شيء ما. لقد أشرت سابقاً إلى حرب نشبت بين بريطانيا والصين، ووالدك أشار إليها الآن، ما الذي حصل بالفعل؟ إنني لا أتذكر أنني سمعت عن هذه الحرب قبلاً، أو أخبرت عنها عندما كنت في المدرسة؛ فأنت تعلم أنهم يعلموننا في المدارس الكثير عن الحروب في تلك المادة التي تدعى التاريخ".

هز كاميرون كتفيه وقال: "في الواقع، كانت هناك حربان، وكلتاهما لم تستغرقا وقتاً طويلاً، ويسميها الصينيون حربي الأفيون".

عندها سأله شارلوك: "حربا الأفيون؟". وشعر برجفة بسيطة؛ فقد كان يعلم أن الأفيون نوع من المخدر، فقد طبقه عليه عملاء بارادول تشامبر في أكثر من فرصة؛ إذ كانوا يذيون الأفيون بالكحول ويسمون الناتج اللودونيوم، والذي كان يجعله يغيب عن الوعي لبضع ثوانٍ، ويجعله يحلم أحلاماً غريبة.

قال كاميرون: "الأفيون شيء يستخرج من الخشخاش، ويستطيع الناس أن يدخلوه بالغليون فيشعرهم بالاسترخاء، وينسيهم الهموم؛ على الأقل لبعض الوقت. البريطانيون جعلوا الهنود يزرعون الخشخاش ويستخرجون الأفيون منه، وكانت سفنهم تجلبه إلى الصين وتبيعه أو تبادله مع الحرير وغيره من السلع".

"هذه هي طبيعة التجارة؛ أن تشتري أشياء وتبيعها محاولاً تحقيق بعض الأرباح".

هنا قال كاميرون: "ولكن الأفيون يحمل على الإدمان، فعندما تستخدمه مرة لا يمكنك الإقلاع عن استخدامه. ومما سمعته وشاهدته، إن العديد من التجار والمزارعين وحتى الموظفين المدنيين كانوا يمضون معظم أوقاتهم وهم يدخلون الأفيون. ونتيجة لذلك، هجر المزارعون الحقول، وتركت المحاصيل كي تفسد، وشحّت البضائع في الأسواق، وقد وصل الأمر إلى درجة أن الشوارع كانت تفرغ من المارة لأن معظم الناس كان يجلسون في منازلهم مدخنين الأفيون".

عندها علق شارلوك: "من البديهي أنه أمر سيئ".
فقال له كاميرون: "إن المانشو يوافقونك الرأي، لذا سنوا القوانين التي
تحظر بيع الأفيون".

فقال شارلوك: "آه". وهو يدرك المضاعفات المترتبة على ما قاله
كاميرون، فتابع: "وبعدها تدهورت سوق المستوردين البريطانيين، وكانوا لا
يزالون يجلبونه من الهند، ولكنهم لم يستطيعوا بيعه".
عندها، أوماً كاميرون برأسه وقال: "سمعت أي يقوله إن الاقتصاد
البريطاني كان يعتمد على المدخول المتأتي من بيع الأفيون".

"بالمقدار نفسه الذي كان التجار والمزارعون الصينيون يعتمدون عليه".
توقف شارلوك قبل أن يتابع: "لذا، اندلعت الحرب من أجل الاستمرار ببيع
الأفيون للصينيين؛ بالرغم من أن ذلك كان يؤدي إلى إدمانهم عليه ويجعل
حياتهم بائسة".

هز كاميرون كتفيه وقال: "لا تنشب الحروب دائماً لأسباب نبيلة، فهي
قد تنشب لأسباب وضیعة؛ بالرغم من أن الحكومة البريطانية سوقت بأن
حربها تهدف إلى الدفاع عن التجارة الحرة التي كان الإمبراطور الصيني على
حد زعمها يقوم بقمعها".

"أياً يكن الدافع للحرب، تجارة الأفيون سيئة، ولم يكن يفترض
بالبريطانيين بيع الأفيون، كما لم يكن يفترض بهم شن حرب من أجل
الاستمرار ببيع هذا المخدر".

رد عليه كاميرون قائلاً: "أوافقك الرأي. ولكن البريطانيين انتصروا. وبما
أن تدخين الأفيون في بريطانيا مسموح، فقد زعم البريطانيون أنهم لم
يقوموا بأي شيء سيئ، واتهموا الإمبراطور بالمبالغة برد فعله".

عندها، قال شارلوك متمتماً: "ربما لم يكن يفترض بنا الانتصار بالحرب".
ولم يكن يستطيع التوقف عن التساؤل عما إذا كان شقيقه مايكروفت على
علم بهذا الأمر، فقد كان شقيقه يعمل بالكتب الخارجي الذي يعنى
بالعلاقات الدولية، فهل كان متورطاً في حرب الأفيون؟ هل كان مؤيداً أم
معارضاً لتلك الحرب؟ قرر شارلوك أن يطرح هذا السؤال على شقيقه عندما
يراه مجدداً، وكان على قناعة بأنه سيراه مجدداً.

عندما فكر بمايكروفت وبالأفيون استعاد الذكريات حول كيفية قيام
بارادول تشامبر بتخديره، وتذكر ذلك الشعور الذي كان ينتابه عندها
والمتمثل بانعدام الوزن. هذه كانت فكرة سيئة، ولكن شيئاً غريباً وخطيراً
بذلك الشعور أغواه. إنه بالتأكيد لا يريد أن يمر بتلك التجارب مجدداً.

ولكن، بالرغم من ذلك، كان هناك شيء غريب يجعله يتوق إلى ذلك الشعور الذي كان الأفيون يشعره به، والطريقة التي يجعله بها ينسى كل همومه.

عندها، قال له كاميرون: "والآن، ماذا عن أميركا؟".

عندها، بدأ شارلوك يخبره عن تجاربه في نيويورك، وعن رحلاته بالقطار في البراري الأمريكية. ولكن، عندما أخبره عن مغامراته مع ماتي وفرجينيا في أميركا، كان كاميرون يصغي بانتباه شديد، وبين الفينة والأخرى كان يطرح سؤالاً عن تفصيل معين أو يطلق تعليقاً، ولكن شارلوك كان المتكلم معظم الوقت.

بعد عشرين دقيقة سمعا صوت جرس، وكان ذلك إشارة إلى أن موعد العشاء قد حان. حينها، توجه شارلوك وكاميرون إلى غرفة الطعام، حيث كان الجميع قد اتخذوا أمكنتهم. ولحسن حظهما، جلسا مقابل بعضهما. ولحسن حظهما أيضاً، كان الضيوف الذين كانوا يجلسون بالقرب منهما منشغلين بأحاديثهم وتجاهلوهما. وعندما أنهى شارلوك روايته، وأنهى كاميرون أسئلته، انتقلا للحديث حول أمور أخرى من قبيل تجربة كاميرون في الصين ومغامرات شارلوك في إنكلترا.

بين الحين والآخر، كان شارلوك يستمع إلى مقاطع من المحادثات التي تدور حوله؛ فقد كان القبطان براين وكبار مساعديه يتحدثون عن رحلاتهم، أما السيد ماكينزي فكان يتحدث عن الصين، في حين أن رجال الأعمال كانوا يروون قصصاً عن الأماكن الغريبة والأشخاص الغرباء الذين تاجروا معهم. وقد تمكن شارلوك من سماع السيد مالكوم وهو يسأل القبطان: "هل سيستقبلك الحاكم في أثناء تواجدك هنا؟".

هز القبطان كتفيه ورد: "يجب أن أعترف أنني أشعر بالتشوش من كثرة تنوع رتب ذوي المقام الرفيع. لقد توقعت أنه يفترض بي أن أرسل أوراق اعتمادني إلى حاكم شانغهاي، ولكن مترجمي أخبرني أنه كان غير مؤهل لتسلمها".

أكد السيد ماكينزي على أقول المترجم وقال: "هذا صحيح. فبالرغم من أن شانغهاي مدينة كبيرة من وجهة نظرنا، إلا أن حاكمها يتبع لحكومة مقاطعة جيانغزو، وقصره يقع في نايجينغ".

فرد القبطان: "أعتقد أننا سنلتقي حاكم جيانغزو في مكان ما في أعلى النهر أثناء احتفال خاص".

إن اهتمام شارلوك بالمحادثة لم يكن كبيراً، إلا أنه تلاشى ما إن وصل

الطعام الذي كان مدهشاً؛ فقد قدمت قطع لحم البط مع صلصة الخوخ، وتلتها شرائح لحم الحمل المبهرة التي قدمت مع تشكيلة من الخضار المقرمشة، في حين أن التحلية كانت عبارة عن زلاية محشوة بالفاكهة. أكل شارلوك بقدر ما استطاع، ولكن النكهات جعلته يتذكر الطباخ هو تشانغ، ويتساءل عن كيفية استقبال عائلته له من جديد، وقرر أن يبحث عنه في الغد.

عند الانتهاء من تقديم الطعام، اقترح السيد ماكينزي أن ينسحب الرجال لتناول الشراب وتدخين السيجار، فأخرجت السيدة ماكينزي الفتيين من غرفة الطعام وقالت لهما: "سيتحدثون لساعات، ولن يكون حديثهم مهماً لكما، كما أن الغرفة ستمتلئ بدخان السيجار، لذا أقترح عليكما الذهاب إلى النوم. شارلوك لقد طلبت من مدبرة المنزل أن تجهز لك سريراً منفصلاً في غرفة كاميرون". وفجأة تثاءبت، وغطت فمها بيدها وتابعت: "وأنا سأفعل الشيء عينه. لقد كان يوماً متعباً".

بعد الوقت الذي أمضاه شارلوك في المنزل، أصبح يعرف الطريق الذي يؤدي إلى غرفة كاميرون عبر الحديقة. سار أمام كاميرون على الممرات المبلطة بصمت، ومرا عبر الأجمات والمنطقة الرملية حيث جلسا سابقاً. كانت السماء فوقهما سوداء وصافية، وكانت النجوم تتلألأ فيها، وكان ضوء القمر الفضي يغمر كل شيء. عندها، تذكر شارلوك السيد أرينيوس وبشرته الرمادية المزرقعة.

فجأة، تحرك شكل أسود بين الأجمات، فتوقف شارلوك.

فسأله كاميرون الذي كاد يصطدم به من الخلف: "ما الخطب؟".

فرد عليه شارلوك: "أظن أنني شاهدت حيواناً".

عندها، فتح كاميرون فمه ليقول شيئاً، إلا أن شارلوك أوماً له كي يصمت، ثم وقف مصغياً السمع، محاولاً أن يسمع صوت تنفس أو حركة؛ إلا أنه لم يكن هناك أي صوت.

عندها، خطا نحو الأجمة حيث رأى الشكل الأسود. ربما كان قطة أو

كلباً؟ ولكن، هل توجد كلاب أو قطط في الصين أصلاً؟!

خطا خطوة أخرى، ولكنه لم ير شيئاً؛ ربما كان مخطئاً.

خطا خطوة ثالثة، واستعد للعودة أدراجه من حيث أتى والذهاب إلى

غرفة النوم. عندها، حرر نفسه الذي نسي أنه يكتمه وهو يحدث نفسه قائلاً إنه ربما كان أحد طيور الليل أو شيئاً وهمياً. ربما كان التعب والتوتر من جراء تواجده في بلد أجنبي قد جعلاه يخطئ الظن.

عندها، انطلق حجر من وسط الأجمة، ولو لم يصطدم في طريقه بأحد الأغصان لكان قد أصابه في وسط جبهته، غير أنه ارتطم بوجنته وارتد بعيداً. أجفل شارلوك مصدوماً، وأحس بشيء دافئ ورطب على بشرته؛ إنه دم، لقد جرحه الحجر.

عندها، صاح بسبب الاعتداء الذي تعرض له. وقبل أن يتمكن كامبيرون من الرد عليه، أبعد شارلوك نفسه عن الأجمة، ولكن حجراً آخر غزل باتجاه عينه اليمنى، فما كان منه إلا أن انحنى متجنباً إياه، وحلق الحجر فوق رأسه بعد أن لامس شعره.

بعد ذلك، انبثق ظل أسود من الأجمة، وأسرع الخطى متوجهاً نحو العشب، ولم يكن ضوء القمر كافياً لكي يتمكن شارلوك من التحقق من تفاصيل الكائن المتحرك؛ إلا أنه كان بنصف طول شارلوك، ولم يكن هذا الأخير متأكداً إن كان يعدو أو يطفو أو يحلق أو يتدحرج. وقبل أن يتمكن من التركيز عليه اختفى في العتمة.

ترك شارلوك كامبيرون حيث كان يقف، وأخذ يطارد ذلك الكائن. وعندما ركض عبر الأجمة خدشت الأغصان وجهه. كانت بتلات الورود وأوراق الأشجار تتساقط ما إن يدوسها. وعندما وصل إلى منطقة خالية من الشجيرات، لاحظ أن الكائن الأسود كان يتسلق جذع شجرة رمادي اللون كان ينبثق من الأرض. ركض شارلوك عبر المسافة التي تفصله عن الشجرة، ولاحظ أنه يترك آثار أقدام تشبه فوهة البركان في الفسحة الرملية. لقد كانت هذه الفسحة الرملية غير تلك التي كانا يجلسان فيها منذ قليل. قفز شارلوك وهو يركض فوق جلمود صخر كان يعترض طريقه. كان هناك جذع شجرة على بعد بضعة خطوات منه فقفز فوقه من دون أن يخفف من سرعته، وتمسكت أصابع يديه بالأغصان المنخفضة بينما كان يحاول تسلق جذع الشجرة. ولم تمضِ ثوانٍ إلا وكان يرتفع على الجذع، بدا له الأمر وكأنه يتسلق حبال صواري غلوريا سكوت، وتمكن من رؤية ظل أسود يتلوى في أعلى الأغصان، كانت أوراق الشجرة تصطدم بوجهه بالقرب من المكان الذي أصابه به الحجر، وكان الدم يسيل على خده.

انبثق رأسه من بين الأوراق كما ينبثق رأس سباح من بين أمواج المحيط المتلاطمة. وخلف الأوراق، استطاع رؤية سطح منزل آل ماكينزي، وكانت بعض حجارة السطح الحمراء في غير مكانها. كان هذا هو الأثر الوحيد الذي تركه خلفه ذلك الكائن الذي كان يطارده. لقد اختفى، وربما قفز إلى الشارع، ولم يعد باستطاعته القبض عليه.

عاد شارلوك أدراجه وهو يشعر بألم في عضلاته نتيجة تحركه بطريقة مفاجئة. وكان الجرح في وجهه ينبض ألماً، وتوقع وجود خدوش على وجهه تسببت بها أعضان الأشجار وأوراقها.

ما إن رأى كاميرون شارلوك حتى قال له: "تبدو كما لو أنك جريت عبر وشيعة بالمقلوب".

فرد عليه شارلوك وهو يلهث: "إنه أمر مسألٌ جداً".

"ما الذي حدث؟"

"أنت، ماذا رأيت؟"

فهز كاميرون كتفيه وقال: "أشياء أتت نحوك من الأجمة. لم أكن متأكداً إن كانت طيوراً أو سوى ذلك".

"لم تكن طيوراً، بل كانت حجارة".

"حسناً، كانت حجارة. وأنت ركضت فركضت خلفك. ولكن ما إن وصلت إلى منتصف الطريق حتى وجدتك تتسلق الشجرة، ثم نزلت مجدداً. إن كنت تلعب معي فأنت الفائز، ولكن يفترض بك في المرة القادمة أن تخبرني عن قواعد اللعبة".

فرد عليه شارلوك قائلاً وهو يحاول أن يبقي صوته هادئاً قدر المستطاع، بينما كان قلبه لا يزال يخفق بشدة في صدره: "أظن أنه كان لديكم ضيف غير مدعو".

"أي نوع من الضيوف غير المدعويين؟ أتقصد لصاً؟"

هز شارلوك كتفيه وأجاب: "لم أستطع رؤيته، ربما كان حيواناً وربما إنسان". عندها، عبس وهو يحاول أن يرسم صورة ذهنية للكائن الذي بالكاد لمحّه وتابع: "ربما كان رجلاً صغير الحجم جداً".

عندها قال كاميرون: "ورمى عليك حجرتين وفقاً لما تقوله".

رفع شارلوك يده نحو خده، وأحس برطوبة الدم على يده، ولكن بدا له أن الجرح لم يكن بليغاً، وقال: "ربما رأيت قرداً؛ فالقردة باستطاعتها رمي الحجارة. هل توجد قردة في الصين؟"

"هناك الكثير منها في شانغهاي. يجلبها البحارة عندما يأتون، ويتركونها هنا عندما يغادرون".

عندئذ قال شارلوك: "دعنا نبحث عن أي آثار".

سار شارلوك عائداً إلى الرمال في الفسحة الرملية. لو كان شارلوك يأمل أن يجد آثار مخالِب أو آثار أقدام فيفترض به أن يشعر بالإحباط؛ لأن آثار قدميه طمست كل أثر للمتطفل.

عندها، صرخ كاميرون قائلاً: "يفترض بي إخبار والدي". وبعد قليل، تابع قائلاً وقد بدا متشككاً: "يفترض به استدعاء رجال الشرطة المحليين". هز شارلوك رأسه وقال: "لا فائدة ترجى من الأمر؛ فأنا لست متأكداً مما رأيته. وأياً يكن ما رأيته فقد ذهب الآن. وإذا أخبرت والدك الآن فستفسد الحفل من دون سبب جلي. دعنا نخبره في الصباح عند الفطور". تفقد شارلوك خده مجدداً، كان النزف قد توقف تقريباً، فتبع كاميرون عبر الحديقة وهو يقظ ومنتبه لأي حركة قد تحدث بين الشجيرات.

عندها قال كاميرون: "يفترض بك تنظيف نفسك، سأجلب لك بعض الماء وثياباً".

بعد أن أزال الدم عن وجهه والقذارة عن يديه، بدّل شارلوك ثيابه، وصعد إلى السرير الذي أعد له، واستغرق بعض الوقت حتى يغط في النوم. لم يكن سبب ذلك التوتر والحماسة التي رافقت المطاردة، بل بسبب اعتياده على النوم في أرجوحة شبكية معلقة بين كلابتين تهتز مع حركة البحر، فيما كانت الأمواج تضرب هيكل السفينة. فقد بدا له السرير المسطح والفرش المريح متناقضين مع ما اعتاد النوم عليه. أخيراً تمكن من النوم، ولكنه تمنى لو أنه لم يستطع. فعلى متن غلوريا سكوت كان ينام فوراً من شدة التعب بمجرد أن يستلقي على الأرجوحة، ولم يكن يتذكر أحلامه عندما يستيقظ في الصباح. ولكنه الآن على سرير كاميرون وفي منزل آل ماكينزي وجد نفسه يحلم بفرجينيا وهي تقف في وسط حقل في فارنهام، وشعرها الأحمر يلمع تحت أشعة الشمس. وعندما حاول أن يقترب منها تراجعت خطوتين إلى الوراء مقابل كل خطوة خطاها نحوها. كانت شفتاها تتحركان وتقولان له شيئان، إلا أن الرسالة التي أرادت أن توصلها له لم تصل، أو بالأحرى لم يستطع فهمها؛ فقد كان صوتها خافتاً. وفي النهاية، تحولت فرجينيا إلى نقطة داكنة في وسط الحقل الأخضر وما لبثت أن غادرت.

استيقظ شارلوك والدموع تغطي وجنتيه، ولكنه لم يكن متأكداً من سبب بكائه.

اغتسل الفتیان، وارتديا ملابسهما بسرعة. كانت لدى كاميرون ملابس صينية بديلة ارتداها شارلوك الذي أحب فكرة اندماجه بالمجتمع بواسطة الثياب.

كان الفطور يشبه أي فطور يمكن أن يتناوله المرء في إنكلترا؛ فقد

كان يتألف من اللحم المقدد والبيض المخفوق والنقانق بالإضافة إلى الكثير من التوست. كان طعم النقانق حريفاً، أما اللحم المقدد فقد كان مقرمشاً إلى حدّ أنه كان باستطاعته أن يسمع صوت تكسره في فمه، ولكنه كان أقرب طعام يتناوله منذ أشهر للطعام الذي اعتاد تناوله. كما كانت هناك قهوة؛ قهوة سوداء داكنة كثيرة السكر. لقد نسي كيف يكون مذاق القهوة الجيدة.

جلس السيد ماكينزي عند رأس الطاولة يقرأ الصحيفة، لم تبدُ صحيفة صينية، وظن شارلوك أن السفينة يو أس أس موناكسي قد جلبت معها حزمة من الصحف الأميركية، وبذلك يتمكن والد كاميرون من الاطلاع على ما فاتته من أخبار أميركا في العام الماضي أو نحو ذلك. كان يقوم بتقليب الصفحات، ثم يعود إليها مجدداً كمن يحاول التأكد من أنه فهم المعنى المقصود بدقة.

أعلن كاميرون فجأة: "لقد شاهدنا لصاً البارحة".

رفع السيد ماكينزي عينيه عن الصحيفة، وحدث نحو كاميرون وهو يعبس.

عندها، سألت السيدة ماكينزي: "ما الذي تعنيه بقولك إنكما شاهدتما لصاً؟". وقد بدت مهتمة بل قلقة.

ضحخ كاميرون صوته وقال: "بينما كان نسير في الحديقة قاصدين غرفة النوم، لمح شارلوك شيئاً ما بين الشجيرات، وتقدم ليلقي نظرة، ولكن أحدهم ألقى عليه الحجارة".

عندئذ، تدخل شارلوك مصححاً: "أحدهم أو أياً يكن؛ فأنا لست متأكداً من أن ملقي الحجارة إنسان".

فقال كاميرون: "ولكن الكلاب لا ترمي الحجارة وكذلك القطط".

فرد عليه شارلوك: "ولكن القردة تستطيع، ولا أعرف إن كانت لديكم هنا في الصين حيوانات أخرى شبيهة بالقردة تستطيع رمي الحجارة".

عندها قال السيد ماكينزي: "إنني أعتقد أن من ألقى الحجارة أحد الأولاد الصينيين. أنا أشك في أن يقوم أحد اللصوص بإلقاء الحجارة؛ فهم يفضلون إلقاء السكاكين، وتلك النجوم المعدنية حادة الأطراف. أعتقد أنكما تضخمان الأمر".

عندئذ، رفع السيد ماكينزي الصحيفة مجدداً وأخفى وجهه خلفها، وقلق شارلوك عندما لاحظ أن براجمه بدت بيضاء؛ ربما لأنه كان يقبض بشدة على أوراق الصحيفة. يبدو أن كان هناك شيئاً ما يقلق السيد

ماكينزي.

بعد الفطور سأل كامرون إن كان باستطاعتها التجول في المدينة. فقالت السيدة ماكينزي: "كونا حذرين، وعودا قبل العشاء. من فضلكما أحضرا بعض البرتقال الجيد معكما". ثم استدارت وخاطبت زوجها: "ماذا بشأنك مالكوم؟ كنت أتمنى أن أتحدث عن بعض تفاصيل حفل الكوكيتيل الذي سنقيمه في الغد. الطباخ يتحدث عن ذلك منذ الآن ويشتكى". أخفض السيد ماكينزي الصحيفة مجدداً، وقال وقد علا وجهه تعبير المستغرق بالتفكير: "أخشى أنني لا أستطيع التحدث هذا الصباح. سأكون في مكتبي، لدي بعض المستندات التي يفترض بي الاطلاع عليها". "ألا يمكن أن تؤخر النظر فيها قليلاً؟". أجابها السيد ماكينزي بحدة: "كلا. يفترض بي الاطلاع عليها اليوم". مما أجفلها.

لسبب ما تذكر شارلوك الرزمة التي اعطاها السيد أرينوس للسيد ماكينزي أثناء عشاء الليلة الماضية، وتساءل عن ماهية المستندات التي يشير إليها السيد ماكينزي؟

فردت السيدة ماكينزي بصوت خافت: "حسناً، ربما يمكنني زيارتك لاحقاً، وسأجلب لك كوباً من القهوة وبعض البسكويت، وعندها سنتحدث". أجابها السيد ماكينزي بشدة: "سوف أغلق الباب. هذه المستندات حساسة جداً، ولا يمكنني أن أسمح لأي كان بالاطلاع عليها. لا أريد أن أكون فظاً عزيزتي". وتابع بلهجة أكثر نعومة: "عندما أنتهي سأتي إليك، وعندها يمكننا أن نتحدث بقدر ما تشاءين، وحول كل ما تريدين". فردت عليه والدة كامرون بصوت محايد: "افعل ما تراه مناسباً". ولكن شفتيها كانتا مضمومتين ووجنتيها محمرتان.

نظر شارلوك نحو كامرون فهز صديقه كتفيه، وبدا عابساً كما لو أنه يريد أن يعرف ما الذي يجري. فمن الواضح أن ما جرى لم يكن سلوكاً عادياً يمكن أن يجري إلى طاولة الفطور.

تابع الجميع تناول فطورهم في جو من الصمت، فبدا والد كامرون خجلاً من ثورة غضبه، أما والدة كامرون فبدا أنها لا تريد أن تفتتح محادثة أخرى كي تتجنب أي ثورة هيجان أخرى من زوجها. أما كامرون فقد أمضى الوقت وهو يقلب النظر بينهما بعصبية محاولاً أن يفهم ما يحدث، وحاول شارلوك بدوره أن يفهم ما الذي يجري، وكان مهتماً على وجه الخصوص بمعرفة سبب عدم رغبة والد كامرون بمعرفة ما حصل ليلة

أمس؛ فمن خلال خبرته كان يعلم أن معظم مالكي البيوت لا يرغبون بأن يزورهم اللصوص ويرغبون بتوقيفهم، وليس أن يدعوا أنه ما من خطب قد حدث .

بعد تناول الفطور توجه الفتيان إلى المدينة . كانت السماء زرقاء صافية، ولكن بالرغم من ذلك كانت هناك قرصة برد في الهواء؛ مما يعد بأن يكون النهار جيداً .

عندها سأل كاميرون : " ما الذي تريد أن تقوم به؟ " .
تذكر شارلوك ما كان يفكر به إلى طاولة العشاء ليلة أمس وقال : " في الواقع، أرغب بالبحث عن أحد الأصدقاء " .
" لم أكن أعلم أن لديك أصدقاء في شانغهاي " .

" إنه طباح كان على متن غلوريا سكوت، ولديه عائلة هنا " . حاول شارلوك تذكر العنوان الذي أعطاه هو تشانغ إياه قبل أن يغادر السفينة وتابع : " قال لي إنني أستطيع أن أجده في رينمن دونغ لو، شرقي شارع رينمن أليس كذلك؟ " .

أوماً كاميرون : " إنني أعلم أن يقع، ولكنني لا أظن أنه أفضل مكان تقصده في شانغهاي، هل أنت متأكد من أنك تريد أن تذهب وتقابل ذلك الرجل؟ " .

فرد عليه شارلوك : " نعم، متأكد " . توقف قبل أن يتابع : " هذا إن كنت ترى أن زيارة المكان آمنة " .

أجابه كاميرون : " إن حدث خطب ما يمكننا القتال أو الهرب " .
سارا معاً عبر شوارع شانغهاي، وكما كانت الحال بالأمس كان هناك ناس في كل مكان يحملون السلال أو يدفعون العربات، وبعضهم يمتطون الأحصنة، فيما آخرون يدفعون قطيعاً صغيراً من الماشية . وكان معظم الناس يعتمرون قبعات من القش تقيهم حرارة أشعة الشمس، وكانت هذه القبعات بعكس القبعات التي اعتاد شارلوك أن يراها في لندن؛ فقد كانت عريضة الحافة، وغير مرتفعة التاج، وهذا ما ذكر شارلوك بطريقة أو بأخرى بسقف منزل آل ماكينزي .

كان من الواضح أن كاميرون يعرف الطريق جيداً، فقد قاده عبر أزقة ضيقة، وعبر شوارع عريضة، وحيث كانت توجد عند زوايا الشوارع الكثير من المحلات والأكشاك .

فجأة، دوى صوت تردد صداه في أرجاء المدينة، مما جعل شارلوك وكاميرون يقفان في مكانيهما، وتوقف الناس أيضاً وأخذوا يتحدثون بصوت

منخفض . عندها، سأل شارلوك : " ما هذا الصوت؟ ".
فعبس كاميرون وقال : " يبدو وكأنه بوق سفينة، أظن أن يو أس
أس موناكسي تستدعي بحارتها . لتتابع مهمتها في رسم خريطة لكل
منعطفات نهر يانغتزي ".

لاحظ شارلوك أن الناس في الطريق لم يكونوا مسرورين وقال : " إنني
لست متأكداً من أن المحليين يوافقون على هذا العمل ".
" لم يثر أحد هذا الموضوع بالأمس، أو على الأقل لم يتم التطرق
إليه بوجودنا . ولكن، يمكن أن تتساءل عن سبب رغبة الحكومة الأمريكية
في الحصول على خرائط دقيقة لنهر صيني يبعد آلاف الأميال عن المياه
الأميركية . إنني أشك في أنهم يقومون بذلك بحسن نية ". هز كاميرون
كتفيه : " من الواضح أنهم يظنون أنهم سيحتاجون إليها في وقت ما من
المستقبل، وأظن أن هناك سببين لذلك؛ أحدهما عسكري، أما الآخر فهو أن
التجار الأمريكيين سوف يستعملون النهر ". وأشار إلى المحليين الذين كانوا لا
يزالون يتمتمون مع بعضهم بعضاً بصوت منخفض . " ربما هم يتناقشون
حول السببين اللذين ذكرتهما لك وأيهما يفضلون ".
أخيراً، انعطفا عند إحدى الزوايا، وأبطأ كاميرون خطواته قبل أن
يتوقف .

" هذا هو شرقي شارع رمين ".
أوماً شارلوك : " حسناً، دعنا نسأل عن مكان إقامة عائلة هو ".
ابتسم كاميرون لامرأة عجوز كان فمها خالياً من الأسنان وتبيع
الفاكهة عند قارعة الطريق، وقال لها فجأة شيئاً بالكانتونية؛ إلا أنه قال ما
قاله بسرعة كبيرة لم يتمكن معها شارلوك من التقاط المعنى، فردت عليه،
وأشارت إلى أحد المنازل الذي لم يكن يختلف عن سائر المنازل، إلا أنه
كان بعيداً نوعاً ما . وكسائر البيوت الأخرى، كانت جدرانه من الجص
الأبيض وسقفه من الآجر الأحمر، فيما كان الباب مطلياً باللون الأخضر .
خطا الفتیان خطوات قليلة باتجاه المنزل، وعندها فتح الباب، وخرجت
منه امرأة تركض وتبكي .

وصاحت بالكانتونية : " إنه مريض ". وأخذت تبحث بيأس عن
المساعدة، وتابعت قائلة : " ساعدوني، زوجي مريض وأظن أنه يحتضر! ".
ظهر الرعب جلياً على وجه المرأة، وبدت يائسة، وبدا بوضوح أنها
تخشى على حياة زوجها .
تحلق الناس حولها، وحاولت أن تلفت انتباههم . عندها، تقدم

شارلوك منها بالرغم من حقيقة أنه أوروبي وليس صينياً، فاقتربت منه
وقالت له مجدداً: "زوجي يدعى هو تشانغ. أرجوك، هل يمكنك
مساعدتي؟".

الفصل السابع

فجأة، أحس شارلوك بقلبه يتجمد، وأحس بأن أي حركة سيقوم بها ستحطم قلبه، فسألها: "لقد كان بحالة جيدة بالأمس، فماذا حصل؟". بالرغم من الشلل الذي ضرب قلبه إلا أنه كان هناك سباق في ذهنه بين الحقائق والذكريات، فهو تشانغ لم يبدُ مريضاً عندما كان على متن غلوريا سكوت، كما أنه بدا مسروراً وبصحة جيدة عندما كان يسير على الجسر المتحرك الذي يربط السفينة بالرصيف؛ بالرغم من حقيقة أنه كان يشعر بالتوتر نوعاً ما من لقاء عائلته التي طال ابتعاده عنها. إن أصاب مرض ما البحارة فهذا يعني أن الجميع مصابون، فقد أمضوا معاً وقتاً طويلاً على متن السفينة، وبالتالي يفترض بشارلوك أن يكون مريضاً هو أيضاً. ولكن المرجح أن هو تشانغ التقط عدوى مرض محلي بعد أن ترجل إلى اليابسة. غير أن السؤال الذي شغل تفكير شارلوك كان: أيمن أن يتفاعل مرض ما بهذه السرعة؟

شدت المرأة رذن شارلوك وقالت: "ساعدني".

خطا كاميرون خطوة إلى الوراء وقال: "شارلوك، إن كان هناك مرض منتشر هنا فيفترض بنا البقاء بعيدين. لقد سبق لي أن شاهدت انتقال المرض بسرعة من شخص إلى آخر. لذا، يفترض بك الابتعاد كي تحمي نفسك".

ألقي شارلوك نظرة يائسة حوله على أمل أن يتقدم أحدهم ويعرض المساعدة؛ لربما كان هناك طبيب بين الموجودين يرغب بتقديم يد العون، ولكن كل المحليين تجاهلوا ما يحصل؛ حتى إنهم لم يجروا أي تواصل بصري معها.

عندها، سأل شارلوك المرأة متجاهلاً نصائح كاميرون: "هل هناك أحد غير هو تشانغ مريض؟". هزت المرأة رأسها وقالت: "لا". وخطت خطوة إلى الوراء، وبدا من الواضح أنها تأمل أن يتبعها شارلوك، وتابعت قائلة: "ما من أحد مريض لا أنا، ولا ابني، ولا أحد من الجيران على حدّ علمي". ونظرت حولها بهمارة وتابعت قائلة: "لا تعر تصرفاتهم اهتماماً؛ إنهم يخشون أن يكون هو تشانغ قد جلب معه مرضاً غريباً من المكان الذي كان مسافراً إليه، إنهم جنباء".

عندئذ، نظر شارلوك نحو كاميرون وخاطبه بإلحاح قائلاً: "انظر، هو تشانغ صديقي، وربما أعز أصدقائي، وإذا إن كان بحاجة إلى المساعدة

فسأسى إلى تقديمها له".

فرد عليه كامرون وهو يهز رأسه: "إذا كنت تريد أن تقدم له المساعدة فيجب عليك أن تحضر أحد المعالجين المحليين لكي يلقي عليه نظرة؛ إذ لا يمكنك القيام بأي شيء بمفردك".

نقل شارلوك نظراته بين كامرون وزوجة هو تشانغ التي كان الهلع بادياً عليها وقال: "لنلقِ على الأقل نظرة عليه، فرما يكون قد تناول شيئاً ما سبب له ما يعاني منه".

وأوماً للمرأة الصينية كي تقوده إلى داخل البيت، فبادلته الإيماءة، وحلت على وجهها للحظة مسحة من الامتنان بدل القلق.

سأل كامرون شارلوك وهو يتبعه عبر المدخل المعتم: "وهل تعرف الفرق بين ألم المعدة والمرض المعدي؟".

فنظر إليه شارلوك من فوق كتفه وقال له: "أوافقك الرأي، إنني لا أعرف. ولكن، يجب عليّ القيام بشيء ما للمساعدة، ولو كان مجرد بعث الطمأنينة في نفسه ونفس زوجته".

احتار كامرون بأمر شارلوك، وهزّ كتفيه، ثم تبعه وهو يقول بهدوء: "هذا غباء، بل قمة الغباء، لو علمت أمني بما نقوم به لجنت حتماً".

كان المنزل من الداخل بارداً، وعبقت فيه رائحة جميلة وغريبة. كانت جدران المنزل مصنوعة من الجص الخشن، وعلقت لوحات على الجدران. لم تكن اللوحات مصنوعة من القماش ويحدها اطار كما هو شائع في بريطانيا، بل كانت مصنوعة من قطع من الخشب مربوطة ببعضها بعضاً ويمكن أن تلف. وفي زوايا الغرف، كانت هناك كوات في الجدران وضعت فيها تماثيل خشبية صغيرة لتنانين أو رجل سمين. لم تكن هناك كراسٍ، وإنما مجرد وسائد موضوعة على الأرض، حيث كان الناس يجثون أو يجلسون مصالين أرجلهم وبالقرب منهم طاولات منخفضة.

سألته زوجة هو تشانغ: "تقول إنك صديق زوجي، ولكن لم يسبق لنا أن التقينا؟ أنت لا تقيم في شانغهاي أليس كذلك؟".

أجابها شارلوك: "لقد كنت معه على متن غلوريا سكوت، وأخبرته أنني سأتي لزيارته عندما يعود إلى منزله".

"إذاً، أنت شارلوك، لقد أخبرنا عنك". ابتسمت الزوجة بسرعة قبل أن يستعيد وجهها تعبير القلق. "لقد قال لنا هو تشانغ إنه يتمنى أن تنضم إلينا وتتناول إحدى الوجبات معنا، لأن لديه أخباراً يود إطلاعك عليها، ولكنه مرض فجأة".

"نعم، أنا شارلوك، وهذا صديقي كاميرون".
أومأت برأسها على نحو بسيط، وهزت كتفيها وقالت: "أنا تسي هوين".

قادتهم تسي هوين عبر ممر كان من الواضح أنه يفضي إلى غرفة النوم. كان السرير فيها منخفضاً وقريباً من سطح الأرض؛ حاله كحال الطاولات في الغرفة السابقة، إلا أن النوافذ كانت مرتفعة جداً؛ حتى إنها أعلى من المسافة التي يمكن أن يصل إليها رأس رجل، كان هو تشانغ يرتجف وهو مستلق على سرير والعرق يغطي وجهه طامساً أثر بدور الجدري. وما إن اقترب منه شارلوك حتى لاحظ أن عينيه حمراوان كالدم.
"صديقي شارلوك". قال هو تشانغ مستوضحاً، كان من الواضح أنه يريد أن يضيء الحيوية والحب على صوته، إلا أنه بدا ربيعاً وواهنأً.
"ما الخطب هو تشانغ؟".

هز هو تشانغ رأسه وقال: "لا أعلم. كنت على خير ما يرام عندما خلدت إلى الفراش بالأمس، إلا أنني استيقظت باكراً جداً قبل شروق الشمس، لا أعلم ما الذي أيقظني، ولكنني عندما حاولت النهوض من الفراش لم تسعفني ساقي وسقطت أرضاً، وبدأت أرتجف، وشعرت وكأن ناراً تسري في عروقي، وأن فمي جاف؛ جاف جداً أكثر من صحراء".
عبر فتى عتبة الغرفة حاملاً إبريق ماء، وكان بعمر شارلوك وكاميرون ولكنه أنحف. وبدا من الواضح أنه صيني ويحمل مزايا هو تشانغ عينها، وافترض شارلوك أنه ابن هو تشانغ. قدّم الفتى الإبريق إلى هو تشانغ، وكان التعبير الذي يعلو وجهه شبيهاً بتعبير والدته؛ هلع بالكاد لا يزال تحت السيطرة.

"هيا، اشرب هذا، لقد أحضرته لك من النبع".
حمل هو تشانغ الإبريق، وأفرغه في فمه على ثلاث دفعات، ثم مسح فمه بالجهة الخلفية من يده، وقال: "هذا سيساعدني، شكراً". ونظر نحو شارلوك وابتسم قائلاً: "كنت أود رؤيتك". وربت على السرير بجانبه وقال: "اجلس، أريد أن أخبرك شيئاً، وأريدك أن توصل رسالة من أجلي".
سأله شارلوك: "ما هي؟".

"أعتقد أنني لن أكون على متن غلوريا سكوت عندما تبحر مجدداً".
فرد عليه شارلوك: "أعرف ما تشعر به الآن من جراء ما تعانیه، ولكنك ستتخطى الأمر بسرعة".
"لا. إنني أقصد أنني تلقيت عرض عمل آخر".

فسأله شارلوك متفاجئاً: "كطباخ؟".

"نعم، على متن سفينة كبيرة شاهدتها راسية بالأمس في الميناء، إنها سفينة أميركية".

"أنقصد يو أس أس موناكسي؟". هز شارلوك رأسه محاولاً تخيل الطباخ الصيني هو تشانغ وهو يعد الطعام للمئات من رجال البحرية الأميركية بدلاً من بضعة بحارة بريطانيين على متن غلوريا سكوت. فسأله: "كيف حدث هذا؟".

نظر هو تشانغ إلى زوجته وابتسم: "بالأمس عندما عدت إلى المنزل تحدثت مع تسي هوين، وأقنعتني أنه لا يفترض بي البقاء بعيداً عن البيت لوقت طويل، وأخبرتني أن هو فانغ يي بحاجة إليّ وهو يكبر". سعل وحاول إغلاق فمه بالجهة الخلفية من يده وتابع: "أدرت أنها محقة في ما تقوله. وبينما كانت تعد العشاء، توجهت إلى الميناء. لأرى إن كان أحد ما يبحث عن طباخ، وفي مقهى قريب من الميناء، أعلمت أن السفينة الحربية الأميركية تبحث عن مساعد طباخ، فعرضت خدماتي وقبلت مباشرة". ابتسم وتابع: "كانوا يبحثون بيأس عن رجل يعرف ما يفترض به القيام به. لقد وجدت أن كبير الطباخين قد طلب كمية كبيرة من المياه العذبة. في الحقيقة، لقد كانت السفينة متجهة إلى نهر يانغتزي، حيث تتوافر المياه العذبة بقدر ما يشاءون، وأخبرتهم أنهم ليسوا بحاجة إلى هذه الكمية من المياه العذبة، ولكنهم لم يصغوا إليّ".

"هل أعلمت القبطان تالاوي بما تنوي القيام به؟".

"لقد أرسلت رسالة للسيد لارتشمنت، وأنا أعلم أنه والقبطان سيتفهمان قراري" ونظر إلى زوجته، وتابع: "لقد أمضيت الكثير من الوقت بعيداً عن عائلتي، وأنا مشتاق للعيش معها مجدداً. ستبحر السفينة الأميركية لعدة أسابيع في نهر يانغتزي، وسأعود قبل أن يشتاق إليّ أحد، وعندها سأبحث عن فرصة عمل هنا في شانغهاي".

"ولكن، متى ستبحر؟". سأله شارلوك وهو يشعر بالحزن لأنه لن يكون معه في رحلة العودة إلى بريطانيا.

فأجابه هو تشانغ: "في الغد". وبدا وجهه رمادي اللون. "ولكنني لن أستطيع اللحاق بها نظراً إلى حالتي الآن. فما من أحد يريد أن يحضر له طباخ مريض طعامه. أريد أن أرسل رسالة إلى قبطان يو أس أس موناكسي أخبره فيها أنه يفترض به البحث عن مساعد طباخ غيري".

فكر شارلوك في سره أن الوقت أصبح ضيقاً لكي يتمكن القبطان من

تدبر أمره، ولكنه ابتسم لهو تشانغ وقال له: "سأنقل رسالتك. وأنا على يقين من أنك ستعثر على عمل جديد هنا من دون عناء".
هز هو تشانغ رأسه وردّ: "لا أظن ذلك؛ إن بقيت على ما أنا عليه".

عندها، سأله شارلوك: "هل تناولت شيئاً ما يمكن أن يكون قد سبب لك ما تشعر به".

فرد عليه: "لم أتناول شيئاً لم يتناوله ابني وزوجتي". تشنج وجهه، وفجأة انحنى إلى أحد جانبيه، ووضع إبريق الماء الذي شرب منه منذ برهة على الأرض. خطت تسي هوين إلى الأمام حتى تسند كتفيه.

في أثناء عودته إلى السرير بدا شاحباً ومرتجفاً، إلا أن شارلوك لاحظ شيئاً على ظهره، ولم تتح له فرصة رؤيته لأكثر من لحظة، قبل أن يغطيه قميص هو تشانغ القطني، إلا أن ما رآه لفت انتباهه.

فقال له: "انحن إلى الأمام".

فرد عليه هو تشانغ قائلاً: "ماذا؟".

فقال له شارلوك مجدداً: "انحن إلى الأمام".

نظرت تسي هوين وولدها إلى بعضهما بعضاً بحيرة.

حدق هو تشانغ نحو شارلوك لبرهة، ثم أوماً برأسه، فساعده ولده وزوجته على النهوض من السرير، وقام شارلوك بإزاحة القميص القطني المبتل عن كتفه.

هناك، أسفل عنق هو تشانغ وفي أعلى رفش كتفه كانت هناك علامتان حمراوان؛ إحداهما كانت أصغر من الأخرى، وبدأت الثانية ممزقة عند أطرافها. وكانت العلامتان تبعدان عن بعضهما نحو سنتيمترين، وكان الجلد حولهما يظهر طفحاً أحمر اللون.

لهثت تسي هوين وصرخت قائلة: "إنها لدغة أفعى". وقفزت مبتعدة عن السرير، وأخذت تحدق برعب إلى الأرض وصاحت: "فانخ يي تراجع، ربما لا تزال أسفل السرير".

بدوره أراد جسد شارلوك الابتعاد، ولكن دماغه كان مشغولاً بفكرة وجود إحدى الزواحف السامة أسفل السرير. ونظراً إلى الصراع الذي كان دائراً بين جسده وعقله تجمد جسده في مكانه، فما كان من كامبرون إلا أن شده من كتفه وسحبه محرماً إياه.

سحب هو تشانغ ركبتيه نحو صدره، وأخذ ينظر حوله بعصبية وقال: "لم أشعر بأي لدغة".

وقف شارلوك على بعد خمس أقدام من السرير، ثم جثا على ركبتيه، وأخذ يحديق أسفل السرير، متوقفاً أن عليه شيء، ولكن لم يكن هناك شيء ما. لقد كانت المساحة أسفل السرير خالية تماماً. وقف، وهز رأسه وقال: "إن تواجدت هنا أفعى من قبل فقد ذهبت الآن".

هتفت تسي هوين منتحبة بأسى: "بالطبع، كانت توجد أفعى، وأنت شاهدت أثر اللدغة، كيف حصل هذا؟".

جال شارلوك ببصره في أرجاء الغرفة، وهو مستغرب مثلها، وقال وهو مستغرق بالتفكير: "النوافذ مرتفعة جداً، ولا أستطيع أن أرى كيف ستجد أفعى سبيلاً لها لكي تتسلق، كما أن غرفة النوم تقع في آخر الممر، وعلى الأفعى أن تزحف على طول الممر في رحلتي الإياب والذهاب، فكيف يمكنها القيام بأمر كهذا؟".

فاقترح كاميرون قائلاً: "ربما دخلت عبر إحدى الفجوات".

جال شارلوك بعينه في أرجاء الغرفة، ومسح بناظريه على وجه الخصوص الخط الذي تلتقي عنده الجدران بالأرض المبلطة وقال: "إنني لا أستطيع أن أجد أي فجوات".

فرد عليه ابن هو تشانغ فانغ يي بفخر قائلاً: "لم ترَ أي فجوات لأنه ما من فجوات، فقد جعلتني أمي أملأ الفجوات بالطين، كي لا تستطيع الجرذان والفئران عبورها وأنا أقوم كل أسبوع بتفحصها كي أتأكد أنه ما من فجوات أخرى قد ظهرت".

عندها، قال هو تشانغ بوهن وهو مستلقٍ على السرير: "ولد بار". وبدا شاحب الوجه.

حينها سأله شارلوك: "متى قمت بتفحصها آخر مرة؟". أجابه الفتى: "بالأمس".

نظر كاميرون حوله، ورفع عصاه وقال: "سأقوم بتفحص الغرفة الأخرى، لربما كانت لا تزال هنا؟". ونظر إلى تسي هوين وقال: "ما لم يكن لديك مانع؟".

فأومأت له برأسها وقالت: "توخَّ الحذر".

وقال له شارلوك: "انظر أسفل المفروشات".

عندها، خطى فانغ يي إلى الأمام وقال: "سأساعدك، مجموعتان من العيون أفضل من مجموعة واحدة". وأوماً برزانة لكاميرون. بدا على تسي هوين أنها تريد قول شيء، ولكن نظرة من زوجها حالت دون تفوهها بأي

كلمة. عندها، قال هو تشانغ بوهن: "دعيه يذهب، إنه فتى شجاع، وأنا فخور به".

ما إن غادر كامبيرون وفانغ يي الغرفة، حتى أشار هو تشانغ إلى زوجته وشارلوك كي يقتربا من سريره.

وقال: "من الأفضل أن لا يكون هنا. إنني لا أريده أن يراني على هذه الحالة". في تلك الأثناء، سعل هو تشانغ وتمكن شارلوك من رؤية الدم على شفثيه، وتابع: "ربما كان من الأفضل أن أكون مريضاً بدلاً من أن تكون أفعى قد لدغنتي فلا شفاء يرجى من لدغات الأفاعي. لا تدعاه يدخل مجدداً، فلا يفترض بالولد أن يرى والده وهو يعاني سكرات الموت". بدأت تسي هوين تبكي. ولكنها سيطرت على دموعها، ومسحت عينيها بباطن يدها، واتسعت عيناها وبدا الرعب فيهما.

رد عليه شارلوك بإصرار أكثر مما يشعر به حقيقة وقال: "لن تموت". ولكن، عندما نظر إلى هو تشانغ تيقن من أن الرجل محق، وشعر فجأة بالدموع تتدفق من عينيه، وقال: "يجب علينا إحضار أحد المعالجين. أين يمكننا إيجاد أحدهم؟". وتبادل النظرات مع تسي هوين وتابع قائلاً: "سأذهب برفقة كامبيرون لإحضار المعالج، وسأخذ فانغ يي معنا".

هزت تسي هوين رأسها بامتنان، وكانت الدموع تملأ عينيها. وتمكن شارلوك من رؤية أنها فهمت ما يريد شارلوك القيام به؛ إنه يريد أن يتيح لها الفرصة لتوديعه؛ طالما أنه سيموت.

عاد كامبيرون وفانغ يي إلى غرفة النوم، وأعلن الأخير بفخر: "ما من أفاعٍ في المنزل، لقد بحثنا في كل مكان". ونظر إلى والده، وفجأة بدا الحزن في عينيه، وقد خمن هو أيضاً ما يجري.

فقال شارلوك: "لنذهب ونحضر المعالج".

دونت تسي هوين بسرعة ملاحظة على قصاصة ورق بواسطة ريشة، وقالت لكامبيرون وهي تعطيه إياها: "هذا هو العنوان، وهذه ملاحظة للمعالج، أسرعوا قدر استطاعتكم، هل أنتم مستعدون؟".

أوماً برأسه ومسح بعينه الملاحظة وقال: "أعرف المكان".

نظر شارلوك إلى هو تشانغ وأوماً مودعاً، فرد الطباخ التحية وابتسم.

بوهن.

وقال: "هيا بنا، لنذهب".

كان ضوء النهار في الخارج ساطعاً، وقد استغرقوا بعض الوقت كي تعتاد عيونهم عليه. تقدم كامبيرون المسير، وكان هو فانغ يي يسير في

النهاية، وهو ينظر إلى الخلف؛ إلى حيث كان والده يرقد مريضاً، وربما يعاني سكرات الموت .

بينما كانوا يسيرون صرخ شارلوك لكاميرون وسأله : " هل هناك الكثير من الأفاعي السامة في الصين؟ "

فرد عليه كاميرون : " البعض منها، تكون عادة في الضواحي . لم يسبق لي أن سمعت بوجودها في المدن، من دون أن ينتهي بها المطاف في قدر الطبخ ."

عندئذ سأله شارلوك : " هل يأكل الصينيون الأفاعي؟ "

فأوماً كاميرون برأسه وقال : " يأكل الصينيون كل شيء ."

في البداية، كان كاميرون يقود المسير عبر الشوارع المزدهمة، ولكن هو فانغ يي حاول اللحاق به وصاح : " تمهل، فأنا أعرف إلى أين يجب أن نذهب ."

ولكن كاميرون حاول مرتين أن يدفع فانغ يي بمنكبيه كي يتقدم الجميع، إلا أن شارلوك أمسك به في النهاية من كتفه وقال له : " دعه يسير في المقدمة . إنه بحاجة إلى أن يشعر أنه يقوم بشيء من أجل والده ."

فرد عليه كاميرون : " أعتقد أنك محق، لو كنت مكانه لشعرت بالأمر عينه ."

أخيراً، وصلوا إلى كوخ صغير، بعيد نوعاً ما عن سائر الأبنية، وكانت التعاويذ والحلي المتدلية من السقف بواسطة حبال رفيعة تتأرجح بلطف . لاحظ شارلوك أن الحديقة كانت تحيط بالكوخ من الخلف والأمام، وكانت تضم نباتات تختلف عن الشجيرات والجنبات المزهرة التي يزرعها الجميع . حتى إن الشجيرات المزهرة كانت أزهارها ذابلة! كانت النباتات عبارة عن أشياء رفيعة تشبه الأعشاب الضارة التي لا يرغب أحد بأن تنبت في أرضه .

توجّه هو فانغ يي نحو مدخل الكوخ الذي لم يكن لديه باب؛ بل كانت هناك ملاءة تنسدل من الأعلى وتقوم مقام الباب، فطرق هو فانغ يي على إطار الباب .

وقال : " سيدي المحترم، نحن بحاجة إلى مساعدتك ."

عندما انضم شارلوك وكاميرون إلى هو فانغ يي، ظهر رجل طاعن في السن من خلف الملاءة . ربما كان الرجل الأكبر سناً الذي شاهده شارلوك في حياته . كان جلده مجعداً جداً وجافاً بتأثير أشعة الشمس، ولم تكن

عيناه ظاهرتين بوضوح خلف تجاعيد وجهه، وقد ذكرته هذه التجاعيد بشقوق الطين الجافة في أعلى البركة . كان الرجل نحيفاً، وينسدل شاربه الأبيض عند جانبي فمه حتى يصل إلى حدود الترقوة، وكان أصلع الرأس إلا من جديلة بيضاء تزين الجزء الخلفي من رأسه، وهي بالكاد أثخن من شاربه . ولاحظ شارلوك أن فم العجوز خالٍ من الأسنان عدا واحدة، كما لاحظ أن لثته سوداء اللون .

تمتم الرجل العجوز بنبرة عالية وقال : " من أنتم كي تقلقوا منامي؟ "

عندها، انحنى هو فانغ يي بسرعة وقال : " أرجو أن تقبل اعتذاراتي أيها المعالج الموقر، ولكن والدي مريض، وقد أرسلتني والدي كي أتوسل إليك لتساعده . "

حذق العجوز إلى هو فانغ يي لفترة، ولمعت عيناه خلف ثنيات أجبانه، وخطا نحو الحديقة، وما لبث أن نظر إلى شارلوك وكاميرون . كان العجوز يتكئ على عصا خشبية، كانت عبارة عن جذع شجرة وقال : " يوجد غريبان أيضاً، إنها أيام ممتعة، حقاً ممتعة . "

فما كان من هو فانغ يي إلا أن نظر إلى رفيق دربه وقال بشبه اعتذار : " كانا يزوران والدي، وتبعاني إلى هنا . "

كان كاميرون على وشك التجادل مع العجوز، إلا أن شارلوك ربت على ظهره، فما كان منه إلا أن أمسك لسانه عن الكلام، وقدم قصاصة الورق التي أعطته إياها تسي هوين إلى المعالج .

فتح المعالج العجوز قصاصة الورق وقرأ ما كتب عليها، ثم أوما برأسه ببطء وقال : " لدغة أفعى، الأمر جدي وخطير، كما أن العلاج مكلف . "

فرد عليه هو فانغ يي بعدوانية معترضاً وقال : " نستطيع أن ندفع ما تريده . "

وقال كاميرون معقّباً : " وإن لم يستطع الدفع فأنا أستطيع . " ونظر إلى شارلوك وتابع : " أعرف أن الأمر برمته غير منطقي، ولكنني لن أدع صديقك يموت إن كان باستطاعتي الحيلولة دون ذلك . "

فرد شارلوك قائلاً : " شكراً لك، إنني أقدر لك معروفك . "

عندها قال العجوز المعالج : " دعوني أحضر الأشياء التي سأحتاج إليها . " وعوضاً عن دخول الكوخ كما توقع شارلوك توجه العجوز إلى الحديقة، وانحنى كما ينحني من هو في ثلث سنه، وقطف عدة نباتات متنوعة،

وتفقد أوراقها وسويقاتها، وأخذ بعضها ورمى البعض الآخر على الأرض، ثم غادر . في النهاية، كانت هناك نحو عشر نباتات تتدلى من يده .
لَوْح للفتيان بالنباتات التي يحملها بيده وقال : إنها الدواء، وهي جيدة جداً للدغات الأفاعي والحشرات ."

كانت رحلة العودة أبطأ من رحلة القدوم، وكان العجوز يسير أسرع مما توقع شارلوك، ولكنه لم يكن يستطيع الركض، أو ربما لم يكن يريد؛ لم يكن شارلوك متأكداً أي من الاحتمالين هو الصحيح . توقف العجوز مرة أو مرتين ليتحدث إلى الناس في الطريق، وقام هو فانغ يي بسحبه من المحادثة كي يتابع المسير مجدداً .

وعندما وصلوا إلى شرقي شارع رهنين، كانت تسي هوين تقف خارج البيت وتنظر إلى الطريق بيدين مرتجفتين . وعندما لمحت الفتیان برفقة المعالج العجوز رفعت يديها باتجاه حنجرتها تعبيراً عن ارتياحها .
عندما اقترب هو فانغ يي من والدته سألتها : " كيف أصبح والدي؟ ".
أجفت تسي هوين وقالت : " لم يتحسن ". وقامت بضم يديها إلى بعضهما، وانحنت باتجاه المعالج الذي اقترب من عتبة البيت وقالت :
" شكراً لقدمك، إنني مدينة لك بالشكر ."

فما كان من العجوز إلا أن أحنى رأسه بدوره وقال : " فلنر ما نستطيع القيام به، ولكنني لا أتعهد بأي شيء ."
دخل العجوز المنزل وهو يتكئ على عصاه وتبعته تسي هوين، التي كانت يداها لا تزالان ترتجفان، وتحرك هو فانغ يي خلفها، فما كان من شارلوك إلا أن وضع يده على كتفه وقال له : " انتظر هنا معنا؛ فالعجوز يريد أن يعمل، وربما سيصرف وجودك انتباهه، ويفترض بوالدتك أن تقلق على والدك وليس عليك ."

نظر هو فانغ يي إلى شارلوك، والدموع تترقرق في عينيه : " ولكنه ربما يموت ."

أوماً شارلوك وقال : " صحيح، لذا لا يفترض بك الدخول، كي لا تتشوه ذكراه في ذهنك ."

بينما كان الفتیان الثلاثة ينتظرون في الخارج بدا الوقت وكأنه يمر بطيئاً . ابتعد كاميرون قليلاً، ثم ما لبث أن عاد وهو يحمل بطيخة قام بتقطيعها إلى شرائح بواسطة سكين كان يحملها في جيبه، وقام الفتیان بتناول شرائح البطيخ، وتبادلوا حديثاً قصيراً .

خرجت تسي هوين من المنزل بعد وقت قصير من انتهائهم من

تناول البطيخ، وبدأت متعبة ومستنزفة .

" كيف ... ؟ " . بدأ هو فانغ يي بالسؤال ولكنه لم يستطع إنهاءه .
هزت تسي هوين كتفيها وقالت بسرعة : " إنه مريض جداً، ويبدل
المعالج كل ما يستطيع القيام به لإنقاذه ."

ثم عادت إلى الداخل، وعاد الفتیان الثلاثة إلى الانتظار .
بعد ساعة أو نحو ذلك، خرج المعالج العجوز من الباب وأوماً إلى
شارلوك : " أيها الغريب تبدو ذكياً، أتتذكر أين يقع كوخى؟ " .
أجاب شارلوك : " أعتقد ذلك يا سيدي ."

" من المهم جداً أن تذهب إلى هناك بسرعة وتحضر نبتة من
الحديقة . إنها نبتة طويلة تصل إلى حدود خصرك، ولها أزهار زرقاء صغيرة،
وأوراقها مجعدة . هل فهمت ما أريده؟ " .

ردّ عليه شارلوك قائلاً : " نعم، فهمت " . وأوماً نحو هو فانغ يي
وقال : " ولكن، ألا يفترض به أن يذهب؟ أقصد أنه يعرف المنطقة أفضل
مني ولن يتوه " .

نظر المعالج إلى هو فانغ يي وقد علا وجهه تعبير غريب وقال
بسرعة : " يفترض به البقاء هنا، في حال ... " .
" فهمت " . ونظر شارلوك إلى كاميرون وقال : " ولكن، صديقي يعرف
المنطقة أكثر مني " .

فرد عليه المعالج : " صحيح، ولكنه لا يبدو ذكياً مثلك، وقد لا
يحضر النبتة المطلوبة، اذهب الآن " .
" حاضر سيدي " .

ركض شارلوك عبر الطريق التي سبق له أن عبرها مع كاميرون وفانغ
يي . لقد ركض بسرعة بقدر ما ساعدته قدماه، وكان قلبه يضرب بعنف
في صدره، وشرايينه تضخ الدم نحو عنقه وصدغيه . وعندما وصل إلى كوخ
المعالج العجوز، توقف لثانية، ووضع يديه على ركبتيه، واستنشق الهواء
بقدر ما يستطيع؛ الأمر الذي أحرق رئتيه . وما إن استطاع التحرك مجدداً
حتى دخل الحديقة، وتجول بداخلها بسرعة مستعرضاً النباتات؛ فقد كانت
إحداها طويلة جداً، والأخرى قصيرة جداً، وهذه لا تمتلك أزهاراً زرقاء،
وهذه أوراقها غير مجعدة . وفي النهاية وجدها؛ كانت بالقرب من السياج،
وكانت تتطابق مع وصف المعالج . عندها اقتلعها شارلوك من التربة وعاد
بها راكضاً إلى منزل هو تشانغ .

عندما وصل إلى المنزل، وجد أن كاميرون وفانغ يي يجلسان بصحبة

تسي هوين خارج المنزل، وكانت تسي هوين تنتحب، فيما فانغ يي يضع
يده على كتفها ويبيكي بدوره .
سار كاميرون نحو شارلوك .
وقال : " لقد فارق الحياة " . لقد كان وقع هذه الكلمات أشبه
بصخور ثقيلة تلقى فوق رأسه .

الفصل الثامن

قال شارلوك: "يبدو أنني تأخرت". وفجأة أحس بالضعف واستنزاف قوته.

هز كاميرون رأسه وقال: "لم يكن للأمر علاقة بتأخرك، فقد فارق هو تشانغ الحياة بعد مغادرتك بعشر دقائق. لقد أتى المعالج وقال لنا: لقد انضم إلى الأسلاف الصالحين. وهذه هي العبارة التي يقولها الصينيون عندما توافي المنية أحدهم. في تلك الأثناء، لم تكن أنت قد وصلت إلى حديقة كوخ المعالج بعد، ولم يكن باستطاعتك القيام بأي شيء؛ حتى لو طرت بدل أن تركض".

كان شارلوك يستمع إلى كلمات كاميرون، ولكن كلماته بدت وله كأنها تأتي من مكان بعيد وتمر عبر طبقات كثيفة من القطن والصوف. وجد شارلوك أن موت صديقه كان حدثاً جليلاً لم يكن مستعداً للتعامل معه؛ فهو لم يحضر نفسه لما حصل. لقد كان الأمر ببساطة أن هو تشانغ لم يعد موجوداً.

شعر شارلوك بإحساس غريب. شعر بأنه منفصل عن العالم، وبأنه يطفو قليلاً فوق سطح الأرض، وأحس بأن العالم يميل تدريجياً إلى جهة واحدة.

انحنى شارلوك، ووضع يديه على ركبتيه، وأخذ يتنفس ببطء في محاولة منه لتهدئة نفسه.

لقد سبق له أن رأى أشخاصاً يموتون من قبل؛ كما حصل عندما ترك مدرسة دييدن للصبيان وانتقل إلى فارنهام؛ حيث رأى جثة في الغابة خارج عربة عمه وعمته، كما رأى لاحقاً جثة رجل في حصن نابولنيك الذي كان البارون موبرتس يستخدمه كقاعدة له، كما شاهد جثة دوق بلازاستر التي مزقتها أنياب الكوجر (أسد أميركي)، كما شاهد جثة رجل قضى نحبه مطعوناً في دياغينيز، وشاهد جثة أحد البحارة الذي وقع وحطم رقبتة على متن غلوريا سكوت، بالإضافة إلى الأشخاص الذين ماتوا خلال العاصفة والمعركة مع القرصنة، ولكن جميع من سبق ذكرهم لم يكن يعرفهم، أو على الأقل لم تكن تربطه بهم صلة وثيقة، فلم يسبق للموت أن غيب صديقاً له من قبل.

ولكن هو تشانغ لم يكن صديقاً مقرباً؛ حاول شارلوك أن يواسي نفسه، إذ لم تكن علاقته به كعلاقته بهاتي أو أميوس غروي أو فرجينيا.

وعندما فكر بفرجينيا سرت قشعريرة في جسده. كما أنه لم يكن أحد أفراد عائلة هولمز المقربين كمايكروفت أو شقيقته إيمًا. لقد قام الرجل الصيني بتعليمه الكثير من الأشياء، وكان مهماً في حياته، وسيترك غيابه ثغرة كبيرة سيكون من المستحيل ملؤها.

سأل شارلوك كاميرون قائلاً: "كيف تعاملت تسي هوين وفانغ يي مع الأمر". تمكن شارلوك من سماع صوته المبحوح الذي كان أقرب إلى الهمس. فأجابه كاميرون: "زوجته منهارّة؛ فالأمر صعب، وخاصة أن زوجها كان بعيداً عنها لوقت طويل، وقد فقدته في الوقت الذي عاد فيه. أما الفتى فهو يحاول أن يتحلى بالشجاعة، بصراحة، لا أعلم إن كان يعرف كيف يجدر به أن يشعر، ويبدو لي أنه ينساق وراء مشاعر والدته وتصرفاتها". ألقى شارلوك نظرة على باب المنزل، حيث ظهر المعالج العجوز الذي كان لا يزال يتكئ على العصي، ومر بالقرب من تسي هوين وفانغ يي متجهاً نحو شارلوك وكاميرون، ونظر بهدوء إلى النبتة التي كانت تتدلى من يد شارلوك وقال: "سأخذ هذه النبتة وأحاول زراعتها من جديد، ربما ينجح الأمر".

حينها سأله شارلوك: "ماذا حصل؟". نظر المعالج العجوز إليه متفاجئاً وقال: "أنت تعرف ما حصل، لقد لدغته أفعى، وقمت بكل ما أستطيع القيام به، لكن وضعه كان متدهوراً، والسم سرى في جسده، ولم يكن باستطاعتي القيام بأي شيء لمساعدته". سمع شارلوك نفسه يطرح السؤال التالي: "هل أنت متأكد من أنها لدغة أفعى؟". لوهلة، بدا شارلوك متفاجئاً من الكلمات التي خرجت من فمه، والتي كانت تعبر عما يجول في خاطره. وأوماً المعالج العجوز وقال: "كانت اللدغة ظاهرة بشكل واضح على ظهره".

فرد عليه شارلوك سائلاً: "ولكن، كيف يمكن للأفعى أن تصل إلى غرفة النوم؟ فالنافذة مرتفعة جداً، ولا يمكن لأي أفعى أن تصل إليها. وإن دخلت من باب البيت فيفترض بها اجتياز عدة غرف والمرور بالعديد من الأشخاص قبل أن تصل إلى هو تشانغ".

فقال المعالج العجوز وهو يهز كتفيه: "من يستطيع توقع حركات الأفاعي؟! إنني لا أشك قطعاً بأنها لدغة أفعى، وأن السم الذي ضخته بجسده هو الذي قتله، لقد سبق لي أن شاهدت مثل هذه اللدغات سابقاً".

فسأل شارلوك مستغرباً: "في المدينة، وفي غرفة نوم؟".
رفع المعالج العجوز حاجبه الأبيض الرفيع وقال: "هل لديك تفسير أفضل؟".

فرد عليه شارلوك مدعناً: "لا. لا أعتقد".
تقدم المعالج العجوز وأخذ النبتة من يد شارلوك، وشاهده شارلوك وهو يتجه ببطء نحو تسي هوين التي كانت لا تزال تبكي، والتي أخرجت بعض النقود المعدنية من محافظتها وأعطته إياها. أحنى المعالج رأسه، وشكرها، وتابع طريقه مبتعداً، وكانت النبتة لا تزال متدلّية من يده. تمنى شارلوك لو أن المعالج لم يأخذ منها ثمن النبتة التي وصلت بعد موت هو تشانغ ولم تستعمل.

كان فانغ يي يقف محدقاً إلى المنزل، فما كان من شارلوك وكاميرون إلا أن انضما إليه.

قال كاميرون بارتباك: "أنا متأسف لما حلّ بأبيك".

وقال شارلوك بدوره: "وأنا أيضاً".

لم يجب فانغ يي بأي كلمة وظل يحدق.

حينها قال شارلوك بهدوء لكاميرون: "أتمنى لو أنني أستطيع أن أرى جثة هو تشانغ".

"ماذا؟".

"أتمنى لو أستطيع أن أرى هو تشانغ مجدداً".

"إنه تصرف مروع، أليس كذلك؟".

هز شارلوك كتفيه: "حقاً؟ إنه ميت ولا أظنه يمانع".

"ربما تمنع زوجته وولده".

فنظر شارلوك نحوهما وقال: "لا يفترض بهما أن يعرفا أصلاً".

"ما الذي تريد أن تشاهده في جثته؟".

"أريد تفقد اللدغة التي كانت على ظهره".

سرت قشعريرة في جسد كاميرون وقال: "لا تذكرني".

"ألم يلفت نظرك أن هناك شيئاً غريباً فيها؟".

"مثل ماذا؟".

هز شارلوك رأسه محاولاً أن يتذكر شكل الجرح الذي كان في ظهر هو تشانغ. كان هناك جزء من شارلوك يفكر بموت هو تشانغ على أنه أحجية لم يستطع التعامل معها عاطفياً، ولكن جزءاً آخر كان يعرف أن هناك أحجية حقيقية. فرد عليه قائلاً: "لست متأكداً، علامتا الناين أثارتا

انتباهي. إن كانت ناجمة عن نابين حقاً فقد كانا مختلفي الحجم، أحدها أكبر من الآخر؛ فقد بدا الجرح ممزقاً".

"ما الخطب في الأمر؟ ربما كان نابها مكسوراً، ما الذي يعنيه هذا؟".
"لا أعلم، ولكن صديقاً متقدماً في السن أخبرني ذات مرة أنه يفترض بي النظر إلى الأشياء التي تكون خارج السياق. وهذه الأشياء هي التي تخبرك بأن هناك شيئاً مثيراً للاهتمام قد حصل".

"وهل أفعى مكسورة الناب هي الشيء المثير للاهتمام؟".
"هذا يعتمد على السبب الذي كسر الناب". ونظر إلى حيث كان الفتى ووالدته يحتضان بعضهما وقال: "أعتقد أنها ستسمح لي بالدخول إن طلبت منها؟".

نظر كاميرون إلى تسي هوين، ثم عاد بنظره إلى شارلوك وقال:
"زوجها ميت، أكره أن أفكر كيف سأشعر إن مات والدي فجأة. كيف ستشعر لو مررت بهذه التجربة؟".

من دون إرادة، وجد شارلوك أن أفكاره قادتته فجأة إلى والده الموجود في مكان ما من الهند. ربما هو ميت، ربما قتل في إحدى معارك الجيش البريطاني مع السكان المحليين، وربما لم يصل خبر مقتله إلى إنكلترا. وربما وصل إلى والدته وشقيقه وشقيقته ولكنهم لم يستطيعوا اعلامه بذلك. حاول تحليل مشاعره ولكنه لم يستطع. كان هناك شيء ما، مزيج من المشاعر الفوضوية التي لم يستطع التخلص منها.

وجد نفسه يقول: "أحياناً أتساءل كيف أن والدي ليس ميتاً بالنسبة لي، فأنا أجد صعوبة تزداد يوماً بعد يوم في تذكر ملامح وجهه وصوته وضحكته. في الماضي، كانت لدي ذكريات عنه، ولكنني الآن بالكاد أتذكر أنه كانت لدي ذكريات".

همس كاميرون: "هذا مريع".

"حقاً". حذق شارلوك إلى فانغ يي وتابع: "ربما الأمر المريع هو كثرة الاهتمام". وهز جسده وقال: "انظر لقد وعدت هو تشانغ بأن أخبر قبطان يو أس أس موناكسي بأنه لن يستطيع السفر معه ويفترض بي الوفاء بوعدتي".

"وأنا أفترض أنه يجب عليّ أن أخبر والدي ووالدتي بما حصل، فأنا لا أرى أن لي فائدة هنا".

نظر شارلوك حوله، ولم يبد له أن أحداً يهتم لوفاة الرجل، وقال:
"أعتقد أن وجودك هنا كافٍ، سأعود في غضون ساعة أعدك".

"حسناً".

غادر شارلوك المنزل متجهاً إلى الهضاب التي تقابل رصيف الميناء، كانت خاصرته تؤلمه من جراء الركض، وكان يسير منحياً بعض الشيء كي يبقى الأمل تحت السيطرة، لم يسبق له أن لاحظ أنه يمكن رؤية البحر من خلال الفجوات بين المنازل، كما كان باستطاعته رؤية الصواري من خلف أسطح البيوت. وعندما اقترب من الواجهة البحرية، تمكن من رؤية دولاب يو أس أس موناكسي يغطي على المشهد.

عندما مر عبر البوابة الموجودة في السور الذي يحيط بالمدينة والتي يحرسها حراس يرتدون الألبسة الموحدة، تساءل فجأة عن كيفية تمكنه من دخول المدينة مجدداً. لكنه عمد في تلك الأثناء إلى طرد تلك الأفكار من رأسه، فهو سيواجه هذه المشكلة لاحقاً إذا اضطر للتعامل معها.

توجه مباشرة نحو رصيف الميناء وقصد السفينة الأمريكية، كان هناك الكثير من البحارة والسكان المحليين بالقرب من السفينة، وكانت عيناه تبحثان من عصابة الفتيان التي حاولت بالأمس سرقة نقوده. ولكن، بالرغم من وجود الكثير من الفتية الذين كانوا في مثل سنه بين الناس، إلا أنه لم يستطع تمييز أفراد تلك العصابة بين الحشد، وربما الأهم أن أيّاً منهم لم يستطع تمييزه.

كانت هناك عدة جسور خشبية تربط بين الرصيف ويو أس أس موناكسي، وكان يحرس كل جسر جنديان مسلحان من البحرية الأمريكية بلباسهما الأزرق الداكن. وكان البحارة الحراس ينظرون بحذر إلى الناس الذين كانوا يمرون بالقرب منهم.

لاحظ شارلوك أن العديد من المحليين الصينيين كانوا يلقون نظرات بغیضة باتجاه السفينة والبحارة. وبين الحين والآخر، كان أحد الصينيين يتفوه بإهانة باتجاه الأميركيين. وقد تمكن شارلوك من فهم الكلمات- فقد كانت لغته الكانتونية تصبح شيئاً فشيئاً أفضل كلما سمع المزيد منها- وفكر أنه من الجيد أن البحارة الأميركيين لم يكونوا قادرين على فهم ما يقوله الصينيون. بعض الصفات التي كانوا يطلقونها عليهم كإهانات كانت بشعة جداً، والبحارة مسلحون. وبرأيه عندما تجتمع الإهانات مع الأسلحة وحدة الطباع تكون النتائج وخيمة.

عندما أصبح بالقرب من الجسر الخشبي، شاهد شارلوك بقلق مجموعة صغيرة من المحليين تتجمع على بعد أقدام عدة من السفينة. أنحنى أحدهم ورفع ملفوفة متعفنة وألقى بها عالياً في الهواء فصدمت رأس أحد

البحارة الأميركيين، وانفجرت متشظية إلى قطع صغيرة من الخضار والرذاذ. تعثر البحار من جراء الضربة، ثم ما لبث أن التفت ورفع بندقيته باتجاه الحشد، وبدا على وجهه الغضب والاشمئزاز. فما كان من زميله إلا أن قبض على ذراعه، وحثه على خفض ماسورة بندقيته، وأخذ البحاران يتجادلان قليلاً بينما كان الحشد يهزأ بهما.

وما لبث المحتشدون أن قذفوا ملفوفة أخرى سقطت على الأرض بين البحارين اللذين نظرا إلى شارلوك غير متأكدين إن كان يفترض بهما استرجاع الجسر الخشبي أو القيام بردة فعل أو التظاهر بأنه ما من شيء قد حدث.

انكسر التوتر الذي كان آخذاً بالتصاعد عندما بدأ شخص ما بالتقدم من الجسر الخشبي باتجاه رصيف الميناء. لقد كان ذلك الشخص الرجل الذي شاهده شارلوك بالأمس في حفل عشاء آل ماكينزي؛ إنه القبطان براين بمظهره المهيّب، وبكامل لباسه، ومعطفه الذي يصل إلى حدود ركبتيه. وتبعه موظفان صينيان يرتديان رداءيين منمقين بالإضافة إلى المترجم. تذكر شارلوك أنه رأى الموظفين أيضاً في حفل العشاء بالأمس.

حتى من هذه المسافة، تمكن شارلوك من رؤية عيني براين الزرقاوين اللتين تنظران إلى كل ما يحدث أمامه. وما إن وصل إلى نهاية الجسر الخشبي حتى فرقع الموظفان الصينيان بأصابعهما حتى يلفتا الانتباه. ومن دون أن يتوقف، خطا بخطوات واسعة بين الحشد، وصرخ بالإنكليزية: "ما معنى هذا؟". وانهمك المترجم بالترجمة.

نظر أفراد الحشد بعضهم إلى بعض، ولم يبدُ أنه كانت لدى أي منهم نية التحدث.

تابع القبطان براين قائلاً: "نحن ضيوف هنا. لقد أخبرنا الحاكم بأننا ضيوف شرف". وتوقف قليلاً ليتيح للمترجم ترجمة ما يقوله وتابع: "العالم أجمع يتحدث عن حسن ضيافة الصينيين، ولكنني أشعر بالإحباط لأنني أرى أن ما يقال ليس صحيحاً". توقف مجدداً، ولاحظ شارلوك أن بعض أفراد الحشد يشعرون بالخجل من أنفسهم. تابع القبطان: "حيثما رست هذه السفينة مدّت يد الصداقة ومدّت لها يد الضيافة. لا تجعلوا من هذا الميناء مختلفاً عن غيره في التعامل معنا، ولا تشعروا أسلافكم وإمبراطوركم بالعار جراء تصرفكم المتنمر هذا".

أسرع المترجم في نقل هذه الكلمات إلى لغته الأم، بينما جال القبطان براين ببصره على الحشد الواقف أمامه، ولم يبدُ أن أحداً كان يرغب

بالنظر إلى عينيه بشكل مباشر . بعد أن أنهى المترجم ترجمته، انتظر براين قليلاً، ثم استدار على نحو مفاجئ، حيث أخذ يخطو خطوات واسعة عائداً إلى سفينته، متأكداً من أنه لن تلقى عليه أي ملفوفة متعفنة كالتي ألقيت على البحارة . انتظر الموظفان الصينيان لبضع ثوانٍ قبل أن يستديرا ويتبعاه، بينما كان المترجم يحدق إلى الحشد بتوتر، وعندما وجد نفسه وحيداً أخذ يعدو بسرعة للحاق بهم .

كان لدى شارلوك انطباع بأن الحشد أخذ يتشتت كما لو أن الريح هبت على أشرعتهم . وأدرك أنه إذا لم يتصرف بسرعة فسيفقد فرصة التكم مع القبطان، فانطلق مسرعاً نحوه وما إن سمع الموظفان وقع قدميه حتى التفتا نحوه، وقام البحاران المسلحان اللذان يقفان أسفل الجسر المتحرك بالتلويح له بسلاحيهما، فخفف من سرعته ورفع يديه في الهواء .
فصاح شارلوك : " مهلاً، أنا بريطاني، وأدعى شارلوك هولمز، ولدي رسالة يجب أن أبلغها للقبطان ."

عندها، خاطبه القبطان بعد أن استدار إليه قائلاً : " أنت الفتى الذي كان في حفل عشاء آل ماكينزي البارحة . إنني أتذكرك، لم تتسن لي فرصة التحدث إليك ."

فرد عليه شارلوك : " لقد كنت مشغولاً جداً، ولم أكن ذا شأن حتى أزعجك . إنني ممتن لرغبتك بالتحدث إليّ ."

ابتسم براين وقال : " تبدو صادقاً وظيفياً يا بني . لا يجرؤ أي من موظفيّ على قول شيء يعتقدون أنني لا أوافق عليه، كم هو غريب هذا البلد ! يقول الناس شيئاً عندما تكون معهم، ويقولون عكسه بعد أن تغادرهم . الآن، أخبرني بالرسالة التي أتيت لتنقلها إليّ ."

أخذ شارلوك نفساً وقال : " حاضر سيدي . لقد استخدمت منذ فترة قريبة مساعد طبّاح، إنني آسف لأنني مضطر إلى إخبارك أنه توفي اليوم، وكانت آخر كلماته لي أنه يود أن يعمل معك، وأنه لن يجد أفضل من العمل لديك، ولكن القدر اختار أن يضع نقطة النهاية في سيرة حياته قبل أن يتمكن من وضع خدماته تحت تصرفك ."

عبس القبطان براين، فانحنى أحد موظفيه نحوه وهمس شيئاً في أذنه، فأوماً برأسه، واستدار مجدداً نحو شارلوك وقال : " سنبحر باتجاه نهر يانغتزي في غضون ساعة . لقد تأخر الوقت كي نبحث عن مساعد طبّاح آخر، يجدر بنا تدبر أمرنا من دونه . أفترض أن الأمر مزعج، خاصة وأننا استبدلنا الطباخ الرئيس بآخر محلي . ولكن، أياً يكن الأمر، إنني أقدر

جهودك لإيصال الرسالة".

أوماً القبطان، واستدار متجهاً نحو السفينة يو أس أس موناكسي .
ولكن، بعد قليل حدى إلى الخلف باتجاه شارلوك وسأله .:

" هل كنت تعرفه؟ "

" نعم "

" هل كان رجلاً صالحاً؟ "

أوما شارلوك وقال : " كنت برفقته على متن غلوريا سكوت "

" إذًا، تعازي الحارة لك؛ فمن الصعب العثور على رجال صالحين،

ويبدو أن العثور على الطباخين أكثر صعوبة . ولكن، ما سبب وفاته؟ "

" لدغة أفعى "

هزَّ القبطان رأسه بحزن وقال : " لدغة أفعى! ". يبدو أن هناك

الكثير من الأفاعي في الجوار، فطباخنا الرئيس قضى نحبه أيضاً بلدغة أفعى

قبل أيام معدودة . إنني أعدك أنك لن تجد أفاعي ذات أجراس في وسط

المدن عندما تزور الولايات المتحدة "

ما إن وصل القبطان إلى متن السفينة حتى دوّت صفارة في مكان ما

على السطح، وعندها أجفل البحاران المسلحان اللذان كانا يقفان أسفل

الجسر المتحرك، وأسرعوا بالعدو باتجاه السفينة . وكما شاهد شارلوك، سحبت

في الوقت عينه الجسور المتحركة بواسطة أيدي خفية . وفي غضون ثوانٍ

معدودة لم يعد هناك شيء يربط السفينة باليابسة سوى حبال التثبيت .

لقد أصبحت السفينة الآن عالماً آخر؛ عالماً أميركياً .

انتظر شارلوك هنيهة، ولكن السفينة لم تتحرك، فافترض أنهم ينتظرون

تزايد البخار في المراجل، أو يدققون النظر في بعض الأوراق . وفي النهاية،

سيتحركون في أي لحظة .

أخيراً، استدار وتوجه نحو سور المدينة .

ما إن اقترب من البوابة حتى ألقى نظرة على الحارسين اللذين

يرتديان زياً موحداً أصفر وأحمر اللون، ويعتمران خوذة تبتدوان كدلوين،

وتذكر فجأة خوفه السابق من عدم قدرته على دخول المدينة مجدداً .

وفكر في ما يجب عليه القيام به؟

نظر إلى ثيابه، لحسن الحظ كان يرتدي ثياباً صينية اختارها من

خزانة كاميرون؛ مما جعله يبدو كفتى صيني . ولكن وجهه كان يشي بأمر

آخر، فقد كانت عيناه وبشرته كافية لظهار العكس .

أخذ دماغه يفكر في ما يجب عليه القيام به لكي يتنكر .

جال ببصره في الجوار، فوجد متسولاً عجوزاً في الجهة الأخرى من الطريق، وكان يعتمر قبعة عريضة الحافة مصنوعة من القش كي تقي وجهه من أشعة الشمس، وكان يحدق إلى المارة ويمد يده مستعظياً . عبر شارلوك الشارع باتجاهه، فلمعت عينا العجوز عندما دنا منه شارلوك . قال العجوز : " أرجوك، أعطني قطعة نقدية نحاسية يا سيدي لكي أبتاع كوب شاي وطبق نودلز ".
فرد عليه شارلوك : " سأعطيك قطعتين نقديتين نحاسيتين لقاء قبعتك ."

عندها حدق العجوز وقال : " ثلاث قطع وسأعطيك إياها ".
فجادله شارلوك : " ثلاث قطع كثيرة جداً لشراء الشاي والنودلز ".
فابتسم العجوز، وكشف عن فم كثير الأسنان بالنسبة إلى عجوز مستعظٍ وقال : " لدي شهية كبيرة ". وربت على معدته .
أدخل شارلوك يده في جيبه، وأخرج ثلاث قطع نقدية نحاسية، بالإضافة إلى قطعة معدنية غريبة لم يستطع مباشرة معرفة ما هي . رمى شارلوك بالقطع النقدية إلى العجوز وقال له : " حاول ألا تشرب الشاي دفعة واحدة كي لا تصاب بعسر الهضم ".
فتمتم العجوز قائلاً : " المقايسة أمر مجزٍ ". ورفع القبعة عن رأسه، ورمى بها إلى شارلوك . وقال له : " حافظ عليها ".
توقف شارلوك هنيهة، محدقاً إلى الشيء المعدني الذي كان يحمله بيده، وتذكر أنه وجده على أرضية السفينة أمام مقصورة السيد أرينيوس . وبالرغم من تذكره من أين جلب هذا الشيء، إلا أنه لا يزال يجهل ماهيته . فكّر لثوانٍ في رميته، ولكنه يكره الغموض، لذا قرر الاحتفاظ به حتى يعرف الغرض الذي يستخدم لأجله .

وضع شارلوك القبعة على رأسه فغطت وجهه، ووجد قضيباً من الخيزران وبجانبه دلوان محطمان، فأخذهما ونفض الغبار عنهما، ووضعهما على جانبي القضيب، وأسند القضيب ووازنه على كتفه اليمنى، قبل أن يتنفس بعمق ويتوجه نحو البوابة .

تمكّن من السير خلف مجموعة من العمال العائدين من مكان ما من حوض السفن . كانوا يدمدمون ويتدافعون، فوجد أنه إن بقي خلفهم، وأحنى جسده قليلاً ليموه طوله فقد يكون ذلك تمويهاً فعالاً لعيون الحارسين .

فجأة، صاح أحد الحارسين : " أنت الذي تحمل الدلوين ".

أبقى شارلوك رأسه منخفضاً، فلو شاهد الحارسان وجهه فسيعلمان علم اليقين أنه ليس شرقياً، كما أنهما سيعلمان ذلك إن فتح فمه وتكلم؛ فلكنته الكانتونية لا تزال فاضحة .

تقدم أحد الحارسين نحو مقدمة طابور العمال، فأخذ شارلوك يفكر يائساً بقصة مناسبة تفسر سبب تسلله متنكراً بزي عامل صيني . ونظر إلى الأعلى مستعداً لقول شيء ما، فوجد أن الحارس يخاطب امرأة صينية تقف في مقدمة الطابور . كانت المرأة مثله، توازن دلوين على قضيب من الخيزران، بدا أنهما يحتويان شيئاً شبيهاً بالحليب وربما هو حليب بالفعل . قال لها أحد الحراس : " نحن عطشانان، أعطينا بعض الحليب وإلا فلن ندعك تهرين "

تنفس شارلوك الصعداء بالرغم من تأسفه لما يجري مع المرأة، وكان مسروراً لأن الحارسين لم ينتبها إليه . فقد مر عبرهما محني الرأس بينما كانا منهمكين بشرب الحليب من الدلوين .

وما إن عبر سور المدينة حتى تنفس الصعداء مرة أخرى، وفكر أن ما يشعر به غريب فعلاً؛ فبالأمس كانت غلوريا سكوت منزله، وكانت شانغهاي غريبة وغير مألوفة بالنسبة إليه . ولكن، ها هو اليوم يشعر أن شانغهاي موطنه؛ فقد أصبحت الحشود والروائح والمنازل مألوفة بالنسبة إليه . ربما تمكن من التأقلم في غضون يوم واحد فقط . ولكن، ماذا بشأن فارنهام التي تبدو كعالم آخر، إنها تبدو كالحلم .

تحرك بسرعة، فرغم أنه لم يكن يعلم ما ينتظره في منزل تسي هوين، إلا أنه شعر بأن لديه واجباً بالعودة إلى منزلها . فقد كان كاميرون يتوقع عودته، كما أنه أحب ابن هو تشانغ من خلال الساعات القليلة التي أمضاها معه .

فجأة، لاح في طريقه وجه غربي . وبعد أن نظر شارلوك مرتين، أيقن أنه يعرفه؛ فقد كان مالكوم ماكينزي والد كاميرون . إن السبب الذي صعب على شارلوك تمييز والد كاميرون بسهولة هو عبوس وجهه وقلقه . كان شارلوك على وشك متابعة طريقه عندما لاحظ أن كائناً ما كان يتبع مالكوم ويتخفى بين الحشد خلفه .

الفصل التاسع

أياً يكن الذي يتعقب السيد مالكوم ماكينزي لم يستطع شارلوك تحديد شكله، ولم تكن لديه أكثر من فكرة مشوشة عن حجمه؛ فقد كان بحجم كلب كبير.

إلا أنه بسبب حركته تمكن من تشبيهه بكائن ضبابي يمر أمام جدران أو نباتات. حاول شارلوك تغيير اتجاهه محاولاً الحصول على رؤية أفضل، ولكن ذلك كان ضرباً من المستحيل. فأياً يكن متعقب السيد مالكوم، فقد بدا أنه يختفي على الدوام وراء أحد المارة، أو وراء شجرة أو عربة. وكانت قدرته على الاختفاء مدهشة.

شك شارلوك في أن المتعقب هو الكائن عينه الذي لمحه في حديقة منزل آل ماكينزي ليلة البارحة. ربما لم يكن لصاً، وربما كان يتعقب السيد ماكينزي من بعيد لسبب ما. وربما كان لصاً لا يزال يتعقب ضحيته. في النهاية، تنازعتهم رغبتان؛ فمن جهة كان يريد العودة إلى كامبيرون وهو فانغ يي ووالدته، ومن جهة أخرى كان يريد التعرف إلى الكائن الذي يتعقب السيد مالكوم. وأخيراً، كانت الغلبة للخيار الثاني. وبدلاً من التقدم إلى الأمام انعطف، وأبقى السيد مالكوم في مرمى نظره. وكان يعلم أنه إن أبقى نظره على السيد مالكوم فسينتهي به المطاف وبالسيد مالكوم وبالكائن الذي يتعقبه في المكان عينه، أياً يكن ذلك الكائن الذي كان يتعقب مالكوم.

ولكن ما أثار دهشته هو أن أياً من المارة لم يلاحظ الكائن الغامض الذي كان ينسل بينهم. لقد التفت بعضهم قليلاً مرتبكين عندما مر بهم ذلك الكائن، ولكنهم، عندما لم يتمكنوا من رؤيته حگّوا رؤوسهم ومضوا في سبيلهم.

لحسن الحظ، كان بإمكان شارلوك تتبع السيد مالكوم والمتعقب من دون أن يراه أي منهما، ويعود ذلك في جزء منه إلى أن متعقب السيد مالكوم كان مركزاً على ضحيته، بينما كان السيد مالكوم ينظر إلى الأمام مروعاً ومشدود الفك. ومن جهة أخرى لأن تنكر شارلوك كان فعالاً. فكّر شارلوك برمي قضيب الخيزران والدلوين لكي يسهل تحركه بين الحشد، ولكنه قرر في النهاية الاحتفاظ بها فباستطاعته التخلص منها لاحقاً ساعة يشاء.

توجه السيد ماكينزي نحو الهضبة، وكلما أصبح أقرب من قممها بدت

الأبنية مزخرفة على نحو أفضل. كانت بعيدة عن بعضها بعضاً، وكان كل واحد منها يمتلك مساحة خالية تحيط به؛ مما صعب عمل المتعقب، إذ قلت الأماكن التي يمكنه التخفي خلفها. وقد أتاحت الفرصة لشارلوك مرتين لرؤية المتعقب وهو يعدو في مناطق مفتوحة. ولكن، بالرغم من ذلك لم يتمكن من رؤيته جيداً؛ فكل ما كان يعرفه هو أنه يعدو على ساقين، على مسافة غير بعيدة عن سطح الأرض.

أخيراً، لم يبقَ أمامهم سوى بناء واحد ضخيم يهيمن على قمة التلة، وكانت جدرانها بيضاء تبهر العينين، ويغطي القرميد الأصفر سطحه، وتحيط به أشجار الكرز. شاهد شارلوك حراساً يرتدون الزي الموحد عينه الذي يرتديه الحارسان عند سور المدينة، وكانوا يقفون عند مداخل البناء العديدة وعند زواياها، فخمّن شارلوك أن هذا البناء لا بد أن يكون مقرّاً لشخصية مهمة، وقد يكون مقر الحاكم الذي أشار إليه القبطان براين.

كان هناك عدد قليل من الناس في الجوار مقارنة بالعدد الكبير الذي شاهده في المدينة، وظن أن معظمهم ممن يسعون وراء أمر ما داخل المقر، أو من العاملين فيه.

من أعلى التلة، استطاع شارلوك رؤية مدينة شانغهاي بأكملها منبسطة في الأسفل. ورأى الشوارع الفرعية الملتوية، كما تمكن من رؤية الطرقات العامة، بالإضافة إلى المنازل المربعة التي تخفي حداثتها داخلها والتي تبدو من بعيد كبقع خضراء متناثرة. كما تمكن أيضاً من رؤية سور المدينة الذي بها. وشاهد خلف السور مياه بحر الصين الجنوبي الزرقاء تلمع تحت أشعة الشمس، بالإضافة إلى عدة سفن مصطفة في حوض الميناء، وكانت غلوريا سكوت إحداها، وقد ميزها من صواريتها التي أصبحت مألوفة له بعد أن أمضى أشهراً على متنها، كما شاهد الهيكل الرمادي اللون ليو أس أس موناكسي. وكان دولابا البخار يتحركان فيها، بينما كانت المدخنة تنفث دخاناً أبيض. لقد كانت موناكسي تستعد لمغادرة الميناء متجهة نحو نهر يانغتزي.

أعاد شارلوك انتباهه إلى الأبنية، ولاحظ أن السيد ماكينزي كان يتجه مباشرة إلى المدخل الرئيس للزوار، ولكنه لاحظ اختفاء الكائن الذي كان يتعقبه. كانت البوابة الرئيسة ضخمة، ومؤلفة من مصراعين، ومصنوعة من الخشب السميك، وعليها رتاجات. وكان يقف أمام كل مصراع أربعة حراس، بينما وقف أمام البوابة موظف صيني رسمي يرتدي معطفاً مطرزاً عريض الردين، ويعتمر قبعة سوداء عديمة الحافة، ولاحظ أن الناس كانوا يتوجهون نحوه ويتكلمون معه قليلاً، فيسمح لبعضهم بالدخول بينما لا يسمح للبعض

الآخر. في الواقع، لم يسمح لمعظم الناس بالدخول. كما لاحظت عينا شارلوك أن بعض الناس كانوا يعطون هذا الموظف أكياساً صغيرة مليئة بالنقود، وكانت هذه العملية تتم بسرعة، فيخفي الموظف الأكياس في رديه العريضين والطويلين. ربما كانت عملية رشوة.

كانت هناك بعض الأكشاك التي تبيع الشراب والطعام والقبعات التي تقي من أشعة الشمس بعيداً عن المقر. مر شارلوك أمام الموظف الذي يقف قرب البوابة الضخمة، وكان على بعد مسافة كافية أتاحت له سماع ما يقال من دون أن ينتبه إليه أحد.

انحنى وأبقى القبعة على وجهه، وهو يأمل أن ينظر إليه كمستعطي. كان مالكوم الثالث في الطابور، وبدا كثير الحركة ومرتعشاً، وكأن هناك ما يزعجه.

اختلس شارلوك النظر حوله كلما استطاع بحثاً عن المتعقب الغامض، فقد كان متأكداً بأنه لم يغادر. أخيراً، تمكن من رصده، فقد شاهد شيئاً ما يتحرك عند شجرة الكرز؛ كان المتعقب يراقب المقر. كانت الأوراق والأزهار تخفيه، لكن شارلوك لاحظ أن الأغصان كانت محنية تحت ثقله، وكانت الطيور قد هجرت هذه الشجرة، بينما عجت الأشجار الأخرى بالطيور؛ لقد كان واضحاً أن هناك شيئاً ما يخيفها.

أخيراً، عندما وصل والد كاميرون إلى الموظف الذي يقف عند البوابة الرئيسة قال بلغة كانتونية: "أدعى مالكوم ماكينزي، وأنا بحاجة للتحدث مع الحاكم تشن في أمر ملّح".

سأله الموظف بهدوء: "هل لديك موعد؟".

فرد السيد ماكينزي: "لا، ليس لدي موعد، ولكن الأمر ملّح".

عندها، قال الموظف بعد أن أخرج يديه من كميته ولوّح بهما: "حسناً، كل من لديه حاجة تكون ملّحة، وما هو مهم وطارئ بالنسبة لأحدهم يعتبر تافهاً لغيره".

فرد عليه السيد ماكينزي بإحباط ظاهر: "أؤكد لك أن الأمر طارئ وملّح".

عندها قال الموظف برباطة جأش: "ما من أحد يأتي لمقابلة الحاكم من أجل أمر بسيط وغير مهم ويحتمل الانتظار".

كان ماكينزي على وشك أن يقسم، ولكنه عوضاً عن ذلك دفع يده في جيبيه، وأخرج قبضة من النقود وقال: "هل يجعل هذا من حاجتي أمراً طارئاً وملّحاً؟". وهو يدفع بقطعة نقدية تحت أنف الموظف.

بدا الموظف متأماً وقال: "للأسف لا". شك شارلوك في أن المشكلة كانت تكمن في الطريقة التي عرض بها السيد مالكوم الرشوة وليس في مقدارها. وربما لأن الموظف كان يفضل أن يرشى من مواطنين صينيين وليس من الغرباء.

عندها، سأله السيد ماكينزي من بين أسنانه المطبقة: "هل يمكنني أن أعلم كيف يمكنني الحصول على موعد مع الحاكم".

أحنى الموظف رأسه وقال: "من أجل الحصول على موعد عليك التحدث إلى السكرتير المسؤول عن مواعيد الحاكم. إنه موجود في الجهة الأخرى من المبنى؛ عند بوابة النعمة السماوية".

كان السيد ماكينزي يقبض يديه ويرخيها وسأله: "أيمكنني أن أترك رسالة للحاكم؟".

فرد عليه الموظف قائلاً: "يمكنك أن تترك رسالة، وتأكد من أنني سأوصلها إلى سكرتير الحاكم الذي سيطلع الحاكم عليها إن وجد أنها مهمة".

عندها قال السيد ماكينزي: "هل لديك ريشة وحبور وورقة؟".

فرد عليه الموظف بسلاسة ونعومة: "ما من شك في أنك ستجد أحداً يبيع هذه الأشياء في الأرجاء، وإذا دفعت له المزيد فسيقوم بكتابة الرسالة بالنيابة عنك بأسلوب جميل يشد انتباه الحاكم".

أوماً السيد ماكينزي وقال له: "شكراً لك". بالرغم من أنه بدا جلياً أنه يريد أن يقول شيئاً آخر.

شاهد شارلوك السيد ماكينزي يبتعد باحثاً عن شخص ما يستطيع كتابة الرسالة له، وقد بدا أن أحد الأكشاك القريبة من المقر يفى بهذا الغرض، فتوجه إليه. ولكن لسوء الحظ، كان بعض الأشخاص يقفون هناك قبله. شك شارلوك بأن السيد ماكينزي سيتمكن من التعرف إليه إن تبعه؛ سواء أكان متنكراً أم لا.

عندئذ نظر شارلوك نحو شجرة الكرز، وبدا له أن الغضن الذي كان منحنيّاً قد تحرر من الوزن الذي كان يثقله ويحنيه، كما أن العصافير كانت تزقزق على الأغصان العليا. لقد بدا جلياً أن المتعقب الغامض قد غادر أو انتقل إلى شجرة أخرى.

وعندما نظر شارلوك مجدداً نحو كشك كاتب الرسائل، وجد الرجل يلف ورقة ويختمها بالشمع، ويدفع بها باتجاه السيد ماكينزي الذي سحبها بسرعة من يده وركض باتجاه الموظف الذي يقف قرب البوابة، وعبر طابور

المحليين الذي سبق له أن وقف فيه، وحاول أن يسلم اللقافة إلى الموظف مباشرة. ولكن الموظف هز رأسه وقد علت وجهه مسحة من الحزن، وقال له: "أرجوك، إنضم إلى الطابور من الخلف، وسأخذها منك عندما يصل دورك".

فاعترض السيد ماكينزي قائلاً: "إنها حقاً رسالة طارئة". فرد عليه الموظف: "الأمر الطارئ اليوم سيكون مثيراً للاهتمام فقط في الغد". وأتبع الموظف عبارته بالقول المأثور التالي: تمر الغيوم أمام الشمس وتحجبها إلا أنها تتابع طريقها.

حدّق السيد ماكينزي إليه لفترة طويلة، ثم توجه متذمراً إلى نهاية الطابور. كان الطابور الآن يضم عشرة أشخاص. انتظر في الطابور، حيث كان الموظف يتحدث مع الواقفين واحداً تلو الآخر، ومالكوم يربت بلفافة الرسالة على ساقه. أخيراً، أصبح مجدداً أمام الموظف. فسأله الموظف: "طلباتك؟".

فنظر إليه ماكينزي غير مصدق: "أريد أن يطلع الحاكم على هذه الرسالة، هل من وسيلة للقيام بذلك؟".

أخذ الموظف لقافة الرسالة منه وقال: "سأمرها لسكرتير الحاكم، وبعد ذلك ستصبح الأمور وفقاً لمشئته الله". عندها، أزلق اللقافة داخل أحد ردينه الفضفازين، وصفق مرتين، فظهر موظف يافع يرتدي بدوره معطفاً وركض من داخل المقر، فمرر له لقافة الرسالة باضطراب، وأصدر له تعليمات بلغة لم يميزها شارلوك. ربما كانت لغة الماندرين التي يستخدمها الحكام من المانشو، فركض الموظف اليافع واختفى مجدداً داخل المقر.

خاطب الموظف السيد ماكينزي قائلاً: "لقد أنجز الأمر. أتمنى أن تنهال عليك النعم كما تتساقط أوراق شجرة الكرز وأزهارها كما أمل أن تزداد ثروتك ويرتفع شأنك بثبات كما يتحول الوشل إلى ساقية ثم إلى نهر". بدا لماكينزي أن هذه إجابة معيارية عندما تتحدث مع ذوي المقام العالي من الصينيين. حدق مالكوم إلى الموظف لفترة طويلة، وبدا وكأنه يفكر بقول شيء آخر، ولكنه في النهاية استدار وابتعد، وكانت يدها تتدليان على جانبيه. بدا واضحاً أن تمرير الرسالة لسكرتير الحاكم لم يبعث الطمأنينة في نفسه.

لم يتحرك شارلوك قبل مرور بضع دقائق؛ مفسحاً المجال أمام مالكوم ماكينزي كي يبتعد، ثم قام بحمل قضيب الخيزران والدلوين ونزل التلة. بدا وكأن المتعقب الغامض قد غادر أو اختفى، فلم يكن هناك ما يشير إلى

تواجهه في الأنحاء. وتوجه والد كامبيرون إلى منزله محبطاً، ولم يكن هناك من سبب لتتبعه.

كان إحساس شارلوك بالاتجاهات جيداً على الدوام، وبسرعة وجد الطريق التي تقوده إلى منزل عائلة هو تشانغ شرقي شارع رينمن. وصل إلى المنزل في غضون دقائق. فقد كانت الطريق خالية سوى من بضعة أشخاص لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة. ترك شارلوك قضيب الخيزران والدلوين عن أحد جانبي الطريق، وتقدم بحذر شديد وطرق على إطار الباب.

فتح كامبيرون الباب وبدأ متعباً ومستنزفاً.
فسأله شارلوك: "ماذا حدث؟".

وبدل أن يجيبه، انزلق كامبيرون خارج المنزل، وانضم إلى شارلوك في الشارع، وقال: "لقد انضم بعض الأصدقاء والأقارب إلى العائلة. إنهم يتكلمون بسرعة فلم أستطيع فهم ما يقولونه، كما حضر رجل دين تاوي وبدأ تحضير الجثمان للجنائز".

أوماً شارلوك وسأل: "وكيف حال تسي هوين وهو فانغ يي؟".
فرد عليه كامبيرون قائلاً: "ما هي العبارة التي تقال في مثل هذه الحالات؟ حسناً، إنهما أفضل حالاً مما نتوقع".

هز كتفيه وتابع: "هذه هي المناطق المدارية؛ حيث يموت الناس طوال الوقت. فالموت هنا أمر متوقع على الدوام، أو بتعبير آخر ليس أمراً غير عادي".

همهم شارلوك قائلاً: "هذه هي المشكلة".
"ماذا تعني بقولك هذا؟".

"إنني لا أستطيع تصديق أن أفعى وجدت طريقها إلى غرفة نوم هو تشانغ من دون أن يهد أحد لها أو يراها. فالمسافة بعيدة، كما أنه ما من نوافذ، أضف إلى ذلك أن هو فانغ يي قام بعمله على أكمل وجه، وسد كل الحفر في الجدران والأرضية".

حينها سأله كامبيرون وقد بدت على وجهه علامات الفضول: "ما الذي ترمي إلى قوله؟".

قال شارلوك وقد بدا صوته كشخص مشمئز: "لقد دفع بالأفعى إلى البيت أو السرير بشكل متعمد. أظن أن هو تشانغ قد قتل عمداً".
فسأله كامبيرون وقد بدا مذهولاً: "ولكن، لماذا؟".

هز شارلوك كتفيه وقال: "ربما لأنه عاد؛ إذ ربما كان هناك شخص ما

يكرهه بشدة مما حمله على قتله" صمت قليلاً وهو يفكر بالاحتمالات قبل أن يتابع: "وربما استاء الناس من عمله مع الأميركيين وأرادوا إنزال العقاب به؛ إذ يبدو من الواضح أن المحليين ساخطين بشدة على الأميركيين". فرد عليه كامرون قائلاً: "أرجو ألا تفهمني بشكل خاطئ، ولكنه طباخ، بل إنه مجرد مساعد طباخ".

"صحيح أنه كان يعمل طباخاً، ولكنه يعمل على متن سفينة أميركية". وفجأة قدح شيء ما في ذهنه وقال: "لقد أخبرني القبطان براين أن الطباخ الرئيس لديهم مات بلدغة أفعى أيضاً، إنني لا أجد الأمر مجرد صدفة؟". فرد عليه كامرون: "إذا!، إنها مؤامرة". وأرجع رأسه إلى الخلف، وأخذ يحدق إلى شارلوك قبل أن يتابع: "ولكن، ليست هناك أدلة سوى أنك تملك قصة تتلاءم مع الوقائع. أنا أيضاً أستطيع فبركة قصة مقبولة ومقنعة". "مثل ماذا؟".

"امنحني دقيقة كي أفكر بوحدة".

بدا شارلوك محتاراً لهنيهة، وهو يتساءل عما إذا كان يجدر به قول ما سيقوله، ولكنه في النهاية قال: "كامرون لقد شاهدت والدك منذ فترة عندما كنت عائداً من رصيف الميناء، وكان متجهاً إلى مقر الحاكم، وكان في عجلي من أمره. وكان يسعى لمقابلة الحاكم، ولكنه لم يتمكن من مقابلته، و عوضاً عن ذلك كتب له رسالة، وسلمها للموظف كي يقوم بتوصيلها له، وشدت على أنها طارئة". وتابع قائلاً: "كامرون، أظن أن والدك يعرف ما يجري. أعتقد أن الكائن الذي رأيته مساء أمس في الحديقة كان يتعقبه اليوم".

سأل كامرون بهدوء: "هل تعقبت والدي؟". لم يستطع شارلوك إخباره أنه كان غاضباً ومندهشاً، وأنه بدا كما لو أنه طرف في مؤامرة، وربما كان خليطاً من كل ذلك".

رد عليه شارلوك قائلاً: "نعم، لقد تعقبت، كنت ستقوم بالأمر عينه لو كنت مكاني".

حدق كامرون إلى شارلوك لفترة طويلة وأخيراً قال: "في الواقع، معك حق. على الأرجح كنت سأقوم بالأمر عينه". ثم تنهد ونظر بعيداً وتابع: "كان والدي يتصرف بغرابة في الفترة الأخيرة، فقد بدا سريع الغضب، ويميل للجدال، وكثير الشرود. لقد شاهدت كيف تصرف صباحاً أثناء الفطور، أعتقد أن هناك خطباً ما". لوى فمه فجأة، ولاحظ شارلوك مقدار قلق كامرون على والده، وكم كان من الصعب عليه محاولة إخفائه.

كرر شارلوك: "إنني أظن حقاً أنه يعلم بما يحدث، أو على الأقل لديه فكرة". أحس بنبضه يتسارع بسبب شدة حماسه لوضع الحقائق مع بعضها بعضاً، كما لو أنها مداميك حائط الإثبات الذي بدأ بينائه. "هل رأيت بالأمس في الحديقة الحزمة التي أعطاها السيد أرينيوس لوالدك؟ أظن أنني أعلم ما هي، فقد رأيت في مقصورة السيد أرينيوس على متن غلوريا سكوت مجموعة من الصور، بدت وكأنها شبكة عنكبوت. وأنا أعتقد أن أرينيوس قد أعطاها لوالدك". وتذكر فجأة هجوم القراصنة. "وأظن أن هناك أشخاصاً يسعون وراء مجموعة الصور هذه. فقد هاجم القراصنة غلوريا سكوت، وقد تسلل أحدهم إلى مقصورة السيد أرينيوس وكان يبحث عن شيء ما، ثم هناك ذلك الكائن الذي كان يتحرك في حديقة منزلكم بالأمس. إنني أعتقد أنه كان يبحث عن الصور أيضاً".

ومضت عينا كاميرون اهتماماً وسأل: "ماذا كان؟ هل رأيته؟".

أجابه شارلوك: "لقد تحرك بسرعة، وكان يختبئ في الظلال، فلم تتح لي فرصة النظر إليه مباشرة".

تنهد كاميرون وسأل: "إذاً، ما الذي سنقوم به؟ نحن نعتقد أن هناك مؤامرة تحاك بخصوص يو أس أس موناكسي ولكننا لا نعلم ما هي، ونظن أن والدي متورط فيها، ونظن كذلك أن تلك الصور مهمة، ولكننا لا نعرف ما هي، هل هذا ملخص جيد؟".

حك شارلوك رأسه وأجابه: "نوعاً ما. أعتقد أنه يمكننا أن نسأل والدك عما يجري، فربما سيخبرنا".

"هذا أمر محتمل ولكنه ليس مرجحاً، من الأفضل محاولة إيجاد صور العنكبوت التي تحدثت عنها، فبإمكانها أن توضح لنا الصورة أكثر".

عندها، قال شارلوك: "هيا بنا".

حدق الصبيان ببعضهما بعضاً هنيهة، وكان كل منهما يأمل أن يخطو الآخر الخطوة الأولى. وفي النهاية كسر كاميرون حالة الجمود تلك، وقال بفظاظة: "تعال لننتهي من الأمر". وفيما كانا يسيران مبتعدين، تساءل شارلوك إن كان سيرى هو فانغ يي ووالدته مرة أخرى، وإن كان سيتذكر وجهيهما بعد مرور سنة أو سنتين، أم سيتذكر اسميهما فقط. كم تمنى لو أن باستطاعته تذكر كل شيء رآه أو سمعه أو قرأه، وكم تمنى لو كانت لديه إمكانية حذف بعض الذكريات التي لا تهمه ولا يريد الاحتفاظ بها؛ مثل أسماء ووجوه الصبيان الذين درس معهم في مدرسة دييدن، ولا يريد أن يتذكرهم مرة أخرى.

سلك الصبيان طريق العودة إلى منزل آل ماكينزي عبر شوارع شانغهاي التي بدت مألوفة لشارلوك. وكان الوقت عصراً والشمس بدأت تتجه نحو الغرب، وأشعتها تلمع على صفحة السماء الزرقاء. توقف كاميرون فجأة عندما مرا بأحد الأكشاك التي تبيع النودلز، ونقد البائع بضع قطع نقدية قبل أن يتركه وهو يحمل طبقين من الخيزران يحتويان على النودلز المخلوطة مع بعض قطع اللحم والمغطاة بالصلصة، وقال لشارلوك: "خذ". ودفعت بأحد الطبقين نحوه وتابع: "لقد مر وقت طويل على تناولنا الفطور". فرد عليه شارلوك: "أعتقد ذلك". وفجأة، انتبه كم هو تواق للطعام، فأخذ طبق النودلز الذي كان معه عودان من الخيزران استخدمهما لدفع الطعام في فمه بينما كانا يتابعان سيرهما. كانت الصلصة حلوة وحريفة، وكان الطعم بشكل عام رائعاً. وتساءل شارلوك متعجباً عن سبب عدم كون الطعام الإنكليزي حريفاً.

في الوقت الذي وصلا فيه إلى بيت آل ماكينزي كانا قد أنهيا تناول الطعام، فرمى كاميرون الطبقين بعيداً، وقال بطريقة اعتذارية: "لا تحب أُمي أن أتناول الطعام في الطريق. إنها تعتقد أن ذلك يجلب أمراضاً خطيرة". فرد عليه شارلوك مقترحاً: "ربما يحميك تناول الطعام المحلي واللعب مع الأولاد المحليين من الأمراض. فالأولاد الذين يبقون في المنازل طوال الوقت ويعزلون أنفسهم عن أي شيء يلتقطون أول مرض يصادفونه". حينها، حدق إليه كاميرون: "هل تعلم أنك تفكر كثيراً؟".

عندما دخلا المنزل لم يجدا أحداً. كان باب مكتب السيد مالكوم مغلقاً؛ ربما كان في الداخل يقوم بالعمل المهم الذي تحدث عنه في الصباح؛ ربما كان شيئاً له علاقة بالرسوم البيانية العنكبوتية. لم تظهر السيدة ماكينزي في أي مكان، ولكن كاميرون قال إنها معتادة على الاستلقاء لبعض الوقت.

لم يرغب أي من الصبيين في فتح باب مكتب السيد مالكوم والدخول إليه في محاولة لإيجاد الرسوم البيانية. وبدلاً من ذلك توجهوا إلى غرفة كاميرون، حيث استلقى كاميرون مغطياً عينيه بيده، ورسم شارلوك على دفتر ما كان يتذكره من لدغة الأفعى التي رآها على ظهره هو تشانغ. كان هناك شيء لا يزال يزعجه له علاقة باللدغة، فقد كان أثر أحد النابين طبيعياً، بينما كان الآخر وكأنه مزق تركه ناب مكسور، وحاول شارلوك رسم المسافة الفاصلة بين الأثرين بشكل صحيح. لم يكن متأكداً إن كان من المهم الاحتفاظ برسمه هذا، ولكنه أراد أن يكون معه إن احتاج إليه.

ما إن أنهى شارلوك الرسم مسجلاً أدق تفاصيل الجرح الذي رآه على ظهر هو تشانغ حتى سمع فجأة صوت جرس يقرع في مكان ما في الخارج.

فقال كاميرون بعد أن رفع يده عن عينيه: "هذا الجرس يشير إلى أن وقت شاي بعد الظهر قد حان. أعتقد أننا خسرنا فرصة البحث في مكتب والدي".

فردّ عليه شارلوك: "إنك تتبجح في ما تقوله. أنا أعلم أن أياً منا لم يفكر جدياً بدخول المكتب والبحث فيه".

بعد ذلك، أسرع الفتیان بغسل أيديهما ووجهيهما، وارتديا قميصين نظيفين، وتوجها إلى المنطقة المركزية في البيت بعد أن سار كاميرون أمام شارلوك، وعبرا الحديقة.

كانت السيدة ماكينزي تجلس في غرفة الجلوس، حيث وُضع ابريقا شاي وقهوة وبعض الكيك للضيافة. وما إن رأت الفتيتين حتى ابتسمت لهما وسألتهما: "كيف كان نهاركما؟".

هزّ كاميرون كتفيه، بينما ابتسم لها شارلوك الذي بدا عليه أنه يستلطفها وقال: "كان جيداً، شكراً لسؤالك. لقد كان كاميرون خير دليل لي". فمدت يدها وعبثت بشعر ولدها الذي تراجع محرّجاً وقالت بفخر: "إنه يبلي حسناً في العديد من الأشياء". ونظرت إلى الباب وقالت: "لن ينال مالكوم حصته من الكيك إن لم يسرع بالقدوم. كاميرون، اطلب من والدك القدوم".

تناول كاميرون طبقاً وقطعتي كيك -بالرغم من أن والدته حدجته بنظرة مستنكرة- وغادر غرفة الجلوس وهو يأكل واحدة ويحمل الأخرى بيده. نظر شارلوك عبر الطاولة وقال: "هل ترغبين بأن أسكب لك كوباً من الشاي".

فردت السيدة ماكينزي: "هذا لطف منك".

سمع شارلوك في الممر صوت طرق كاميرون على باب مكتب والده.

"أبي، سيفوتك تناول الشاي والكيك".

بدا واضحاً أنه ما من جواب؛ لأن كاميرون طرق على الباب مجدداً:

"أبي، هل أنت في الداخل؟".

بدا شارلوك متوتراً بالرغم من أن السيدة ماكينزي بقيت جالسة

بهدهوء، وهي تصغي إلى ما يجري، وقد علا وجهها تعبير قلق.

طرق كاميرون مجدداً على الباب وقال: "أبي". وبعد لحظات، سمع

شارلوك صوت باب مكتب السيد ماكينزي يُفتح.
ثم ما لبث أن سمع صوت صراخ مروع: "أبي!". ثم سمع صوت
تحطم الطبق على الأرض.

الفصل العاشر

نظر شارلوك والسيدة ماكينزي نحو الممر مروعين، ثم نظرا إلى بعضهما بعضاً. بدت السيدة ماكينزي قلقة ومتفاجئة، وأدرك شارلوك أن وجهه لا بد أنه يبدو كوجهها.

أسرع شارلوك نحو الباب وتبعته السيدة ماكينزي، وكانت تضع يديها على قلبها وكأنها تحول دون انفجاره في صدرها.

كان مكتب مالكوم ماكينزي في نهاية الممر خلف الزاوية التي تلي غرفة الجلوس. عندما اندفع شارلوك خلف الزاوية، شاهد كامرون واقفاً عند مدخل مكتب والده، وقد بدا متجمداً في مكانه. كان يقبض على إطار الباب بشدة، حتى إن شارلوك تمكن من رؤية براحمه بيضاء مشعة تحت جلده المشدود، كما رأى الطبق المحطم والكيك الذي هرسته قدماه. ظهر الخدم من جهتي الممر، وكانوا صينيين وغربيين، وبدت الصدمة علامة مشتركة على وجوههم.

تقدم شارلوك نحو صديقه ووقف بالقرب منه، وحدق إلى وجه كامرون للحظة، ثم تبعت نظراته نظرات كامرون إلى داخل المكتب. ولن ينسى مهما طال به العمر المشهد الذي رآه.

لقد ذكره المكتب بمكتب شقيقه مايكروفت؛ فقد كانت رفوف الكتب تغطي الجدران التي كانت مليئة بكتب مغلقة بالجلد من ألوان مختلفة، وكان هناك إطار مزخرف في زاوية الغرفة يستند إليه مجسم للكرة الأرضية، وكان هناك مكتب في الجهة الخلفية من الغرفة سطحه مصنوع من الخشب الأسود السميك. وفي إحدى الجهات، كانت هناك أريكة مريحة، وإلى جانبها طاولة صغيرة. وكان هناك كتاب مفتوح ومقلوب رأساً على عقب، وإلى جانبه كوب شراب نصف ممتلئ يحتوي على سائل داكن.

خلف طاولة المكتب كان هناك كرسي خشبي، وخلفه توجد نافذة تطل على الحديقة الداخلية. كانت النافذة مغلقة وزجاجها غير مكسور، وكانت هناك ستارة تغطي النافذة.

كان مالكوم يجلس على الكرسي خلف طاولة المكتب، ويده أمامه على سطح الطاولة، وهو يمسك بأوراق مرسوم عليها. وكان على وجهه تعبير رعب مطلق، وعيناه مفتوحتان على وسعهما، وفمه مفتوح أيضاً.

كان جامداً لا يتحرك، ولم تكن عيناه تنظران إلى شارلوك أو كامرون أو أي شيء في المكتب، بل كانتا مركبتين على منطقة فارغة بجانب الباب.

تبع شارلوك بتأنٍ نظرات مالكوم في محاولة منه لمعرفة الشيء الذي يحدث إليه، لكنه لم يجد شيئاً على الإطلاق.

أحس شارلوك بأن قلبه يكاد يقفز في صدره، وخاف أن يسد حنجرتة ويوقف تنفسه، ولكن الشيء التالي الذي شاهده أئذره بأن تنفسه سيتوقف بشكل كامل من هول الصدمة.

كانت ذراعاً مالكوم ممدودتين إلى أقصى حدٍّ على سطح المكتب، وكان كماً قميصه وكذلك كماً سترته مسحوبة إلى وسط ساعديه، وكانت هناك علامة على ساعده الأيمن ظنها شارلوك للوهلة الأولى وشماً، ولكن عينيه لم تلبثا أن أدركتا الحقيقة المرعبة؛ لم يكن ما رآه وشماً بل آثار لدغة أفعى. كان هناك ثقبان في جلده، وكانت هناك بقعة من الدم حولهما. قال كاميرون مجدداً: "أبي".

تقدم شارلوك إلى الأمام ومر من أمام كاميرون. وما إن وصلت السيدة ماكينزي حتى شهقت ووضعت يدها على فمها. عندها، تخلى كاميرون عن جموده وأسرع نحو طاولة المكتب، ووصل مع شارلوك بالوقت عينه إلى مالكوم. كان شارلوك على وشك لمس إحدى يدي السيد مالكوم عندما وضع كاميرون يده على وجه والده، كانت بشرة مالكوم باردة، ولم يتفاعل مع اللمس.

مرر شارلوك أصابعه أسفل معصم السيد ماكينزي، ورفعها عن طاولة المكتب، محاولاً فحص النبض، لكن لم يكن هناك نبض. لم تكن الدماء تسري في عروقه، وقد بدت ذراعه كغصن شجرة لا حياة فيه. وما إن أفلت معصمه حتى اصطدم بالطاولة.

حينها قال شارلوك بصوت مرتجف: "أخشى أن يكون قد فارق الحياة". أطلقت السيدة ماكينزي صرخة، ولم تمر سوى لحظات حتى سمع شارلوك صوت صوتاً قوياً؛ لقد أغمي على السيدة ماكينزي.

عندئذ قال شارلوك باقتضاب مخاطباً الخدم الذين بدأوا بالظهور عند مدخل الغرفة: "انقلوها إلى مكان مريح ومددوها". شاهد شارلوك وجه كبير الخدم هاريس خلف الآخرين، وقد بدا شاحباً ومصدوماً فخاطبه قائلاً: "هاريس، اهتم بسيدتك، واطلب من الخدم أن ينقلوها إلى غرفتها". وعندما لم يتحرك كبير الخدم، فرقع شارلوك بأصابعه مصدراً صوتاً قوياً وقال: "وارسل أحدهم بسرعة ليأتي بالطبيب. أحضر طبيباً أجنبياً وليس أحد المعالجين المحليين. لا بد أن هناك واحداً في شانغهاي".

همهم كاميرون: "هناك طبيب يدعى فوربس، ويقيم على بعد خمس

دقائق من هنا".

حملق شارلوك بكبير الخدم، فصحا هذا الأخير من دهشته، وبدأ بإصدار التعليمات للخدم. ربت شارلوك على كتف كاميرون، ثم توجه نحو الباب وأغلقه. كان يعلم أن السيد مالكوم ميت ولا يحتاج إلى أي خصوصية، ولكنه كان يعتبر أن جثته تحتاج إلى بعض الاحترام، كما أنه لم يكن يريد أن يترك للأفعى أي فرصة للهرب؛ إن كانت لا تزال في الغرفة، لقد أراد قتلها.

ما إن أغلق الباب حتى عاد إلى كاميرون. كان صديقه يحدق بوجه والده وسأله: "ما الذي يحدث شارلوك؟ ما الذي حصل له؟".

فرد عليه شارلوك: "لقد لدغته أفعى". وتقدم وأشار إلى ذراع مالكوم وقال: "يبدو أن هناك الكثير من الأفاعي في الجوار".

فرد عليه كاميرون وهو يشعر بالدوار: "لكن، ما هي احتمالات أن تلدغ أفعى شخصين في يوم واحد حيث نتواجد".

أجاب شارلوك وهو مستغرق في التفكير: "إنه سؤال مهم جداً. ونظر عن قرب إلى اللدغة وسأل: "وما هو احتمال أن تلدغ الأفعى نفسها شخصين مختلفين حيث نتواجد؟".

عبس كاميرون: "ما الذي ترمي إليه؟".

أشار شارلوك إلى اللدغة وقال: "انظر، يبدو أحد النابين أكبر من الآخر". وأخرج من جيبه الرسم الذي رسمه عندما كان في غرفة كاميرون، والذي استند في رسمه إلى ما يتذكره مما رآه على كتف هو تشانغ، وتابع: "إن الثقبين بحجم الثقبين السابقين نفسه، كما أن النابين يتعدان عن بعضهما المسافة عينها، ويبدو من الأثر أن أحد النابين مكسور؛ ويظهر ذلك واضحاً في الرسم وعلى ذراع والدك".

نظر كاميرون في أرجاء الغرفة، وبدا وجهه ملتوياً من شدة الغضب: "أعتقد أنها لا تزال هنا، أليس كذلك؟".

"النافذة مغلقة، هل كان الباب مغلقاً عندما دخلت؟".

"أجل".

"كما أن أحداً لم يرصد أفعى تغادر الغرفة في غضون الدقائق القليلة السابقة، وقد كان هناك الكثير من الناس في الجوار، لذا يفترض أنها لا تزال هنا". وقامت عينا شارلوك بمسح سريع للأماكن المخفية في الغرفة؛ تحت المفروشات وأعلى الكتب، وخلف الستارة، وقال: "يجب أن نبحث عنها".

فتح كاميرون دولاباً في طاولة مكتب والده، وأخرج منه مسدساً وقال بسرعة: "لقد علمني والدي كيفية استخدامه".

وقبض شارلوك على عصا يُستند إليها عند المشي كانت تتكئ على اطار الباب؛ فقد كانت من حيث المبدأ أفضل من لا شيء.

وفي غضون الدقائق العشر التالية، كانا يتحركان بحذر وقلق في أرجاء الغرفة بحثاً عن الأفعى. استخدم شارلوك العصا للكز واستكشاف الأماكن المخفية، بينما كان كاميرون يقف خلفه مستعداً لإطلاق النار على أي شيء متحرك. لم تكن لدى شارلوك أدنى فكرة عن السرعة التي تتحرك بها الأفاعي، فتجربته السابقة والوحيدة مع الزواحف كانت مع السحالي العملاقة لدوك بالتزار الذي كان يعتبرها حيواناته الأليفة الشريرة. وكانت تلك الزواحف بطيئة وتتحرك بتأنٍ، ولكنه يعتقد أن الأفاعي أسرع حركة منها. في كل مرة اقترب فيها شارلوك من مكان مخفي مثل فراغ بين كتابين أو وسادة تستند إلى كرسي ويوجد خلفها مكان فارغ كان يستخدم عصاه للكز وهو يقف بعيداً وبحذر. وكان يشعر بضربات قلبه تتسارع، وبالعرق يسيل على صدره. وفكر باحتمال أن تندفع أفعى في أي ثنية عبر الهواء وتهاجم وجهه، مما جعله يشعر برعب لم يشعر بمثله منذ وقت طويل.

وبين الفينة والأخرى، كان ينظر نحو السيد مالكوم الجالس على كرسيه، ويتخيل أنه ينهض قام فجأة ويسألها عما يفعلانه. ولكن الألم كان يعتصر فؤاده عندما يتذكر أن السيد مالكوم لن يقوم بأي شيء بعد الآن، ولن يسأل عن أي شيء. لقد أحبه شارلوك واحترمه، ويبدو بوضوح مقدار الحب الذي يكنه كاميرون لوالده.

أخيراً، تقبلاً لفكرة أنه ما من أفعى في الغرفة؛ فقد بحثا في كل الأماكن التي يحتمل أن تختبئ فيها الأفعى. حتى إن شارلوك مرر العصا على أعلى الستارة، مفترضاً أن تكون الأفعى قد صعدت إلى الأعلى، ولكنه لم يجد شيئاً.

هز كاميرون رأسه وهو يقمع غضبه، وقد بدا وجهه ممتنعاً. لقد بدا جلياً أنه يريد أن يثار منها، وكان يكرر قوله: "أين هي؟".

"هل أنت متأكد أنها أفعى؟".

"نعم. ولكن الشيء الذي لست متأكداً منه هو: أنحن نتبعها أم هي التي تتبعنا؟".

نظر إليه كاميرون وسأله: "كيف يمكنها أن تتبعنا؟ فالأفاعي حيوانات غبية، ولا يمكنها أن تفكر من تلقاء نفسها".

همهم شارلوك قائلاً: "حقاً، إنه أمر غريب أليس كذلك؟". ونظر إلى الأعلى وهو يشعر بالذنب؛ لأنه يتجاهل مأساة موت السيد مالكوم ماكينزي ويركز على المشكلة المثيرة للاهتمام التي تتعلق بالأفعى، ولكن لم يبدُ أن كاميرون قد لاحظ ذلك.

فتح الباب فجأة وظهر هاريس برفقة رجل قصير أشيب اللحية وشبه أصلع، قال لكاميرون ما إن رآه: "صغيري كاميرون، لقد كان والدك رجلاً صالحاً، لن أنساه أبداً". وأسند رأسه على أحد كتفيه، وحدق نحو شارلوك وسأله: "إنني لا أعرفك. هل أعرفك؟".

"أنا شارلوك هولمز، صديق كاميرون".

"حسناً". عندها، بدا أنه لاحظ جثة مالكوم للمرة الأولى، وتقدم نحوه بحذر ليفحصه.

وسألها: "أعتقد أنكما بحثتما عن الأفعى، أليس كذلك؟ أكره أن أرى أفعى تنسل من رदन أحدهم".

فأكد له شارلوك: "ما من أفعى في الغرفة". في الحقيقة، سبق لشارلوك أن تفحص جثة مالكوم بسرعة عندما لم يكن كاميرون منتبهاً، ولم يجد الأفعى مختبئة في ردنه أو حضنه أو ملبسه أو أي مكان حوله. سأل كاميرون بسرعة الدكتور فوربس: "كيف حال أمي؟". بينما كان الطبيب يحاول أن يسمع عبر سماعتيه أي أثر لنبض القلب في صدر مالكوم.

همهم الطبيب: "لقد ألقيت عليها نظرة سريعة. إنها امرأة قوية، وهي بحاجة إلى حامض البريتوريك، فهو سيساعدها على النوم. من الواضح أنها مضطربة جداً". ثم نظر إلى كاميرون وسأله: "ماذا بشأنك أنت أيها الزميل اليافع؟ كيف تشعر؟".

أجابه كاميرون: "بالصدمة والارتباك والخوف".

"إنها ردة فعل طبيعية".

أشار شارلوك نحو الجثة وقال: "أظن...؟".

هز الطبيب رأسه وقال: "لا أثر للحياة فيه. أخشى بالنظر إلى التورم والاحمرار حول الجرح أن يكون سبب الوفاة لدغة أفعى سببت له نوبة قلبية أودت بحياته. يا للرجل المسكين!".

قال شارلوك وهو مستغرق بالتفكير: "ولكن، لم يحصل الشيء نفسه مع هو تشانغ". وعندما رفع الطبيب حاجبه تابع شارلوك: "لقد لدغة أفعى شخصاً آخر صباح اليوم؛ إنه رجل صيني، وقد مات هو أيضاً ولكن الأمر

استغرق وقتاً أطول".

عبس فوربس: "ربما كانت الأفعى التي لدغته من نوع آخر، وبالتالي كان السم مختلفاً".

فرد عليه شارلوك: "على العكس، نحن نظن أنها ليست من النوع نفسه فقط، بل إنها الأفعى نفسها".

"إذاً، فالسم يجب أن يعمل بالطريقة نفسها".

فقال شارلوك: "نقطة جيدة. فإذا كانت الأفعى هي عينها، فهذا يعني أن شيئاً ما قد تغير بين الصباح والآن، وأنا أتساءل عن ماهية هذا الشيء".

خطا الطبيب فوربس خطوة إلى الخلف مبتعداً عن طاولة المكتب وقال: "أخشى أنني لا أستطيع القيام بأي شيء أيها الفتى. لقد توفي والدك قبل وصولي، وسأدون في تقرير الوفاة أن السبب لدغة أفعى سامة. يجب إبلاغ السلطات المحلية، فقد يرغبون بإجراء تحقيق... يمكنني القيام بذلك إذا أردت". كشر وتابع قائلاً: "إنني آسف، إنها مأساة مأساة كبيرة حقاً. كان والدك رجلاً صالحاً. يجب على الخدم نقل جثته إلى غرفة النوم حيث يمكن تمديده على سريريه حتى تتم ترتيبات الدفن".

غادر فوربس الغرفة، والتزم شارلوك وكاميرون الصمت للحظة.

ثم قال كاميرون: "يجب عليّ القيام بشيء ما، يجب أن أرتب مراسم الدفن أو أطمئن على والدتي أو أنظم عمل الخدم، فبعد كل شيء أنا الآن رجل البيت". وبدا وجهه مجعداً وبدا أصغر وبدا مجروحاً: "ماذا سنفعل الآن؟ فبموت والدي انتهى العمل".

فقال شارلوك: "ربما يفترض بكما العودة إلى أميركا. من المؤكد أن والدك قد ترك ثروة بعد عمله طيلة الفترة الماضية، وربما تريد والدتك العودة إلى منزلها لتعيش بالقرب من عائلتها؛ إن كانت لديها عائلة، كما أنك كنت دائماً تريد رؤية أميركا".

أوماً كاميرون ببطء وقال: "ربما. سوف أذهب لأطمئن على والدتي، وسأتأكد من أن السلطات المحلية على علم بما حصل، وسأرسل رسالة إلى رجل الدين الكاثوليكي المحلي أيضاً. أنا متأكد من أنه سينصحنا وسيرشدنا إلى ما سنحتاج إليه في الدفن".

ثم سار مغادراً الغرفة وترك شارلوك خلفه.

بعد لحظات، دخل هاريس برفقة خادمين صينيين. كان الخادمان يحملان حمالة، وهي عبارة عن قطعة قماش طويلة وعند جانبيها، كان

هناك قضيبان من الخيزران. وكان هاريس يحمل ملاء مطوية على ذراعه.
أوماً هاريس لكاميون وقال: "لقد أمرنا...".
"...بنقل جثة السيد مالكوم إلى غرفة النوم". أكمل شارلوك بينما كان
كبير الخدم محتاراً. وتابع: "هذا جيد، أحتاجون إلى مساعدة؟".
هز هاريس رأسه وقال: "أعتقد يا سيدي أننا نستطيع تدبر أمرنا".
وأشار إلى الحمالة وتابع: "لقد كانت موجودة في الخزانة منذ سنوات، ولا
أحد يعرف سبب وجودها، ولكن من الجيد الآن أنها موجودة".
شاهد شارلوك هاريس والخادمين وهم يرفعون جثة السيد مالكوم
برفق عن الكرسي ويضعونها على الحمالة. وعندما أنهوا عملهم، وضعوا يدي
مالكوم على صدره، وقام هاريس ببسط الملاءة فوق الجثة كي لا يراها
أحد، ووجه الخادمين كي يحمل كل منهما الحمالة من جهة، فرفعها باذنين
بعض الجهد وسار هاريس أمامهما.
عندما رأهم شارلوك يغادرون الغرفة، شعر فجأة بأنه عديم الفائدة؛
فكل شخص كان يقوم بعمل ما سواه.
جال ببصره في أرجاء الغرفة وهو ينتظر أن تلتقط عيناه شيئاً ما،
وتذكر الجملة التي علمه إياها أستاذه أميوس غروي، والتي تفيد بضرورة
البحث عن شيء غير عادي يبدو خارج السياق.
أخيراً، تقدم نحو النافذة بدافع الملل والضجر أكثر من أي دافع آخر،
وأراد أن يتأكد إن كانت مغلقة حقاً، وأنه ما من شيء يستطيع الدخول
أو الخروج منها. مرر يده على حواف الإطار، وضغط مجدداً على الزجاج
ليختبره، ولكنه كان مشدوداً. كانت النافذة محكمة الإغلاق.
نظر في أرجاء الغرفة، وترك عينيه تجولان من دون أن تبحثا عن
شيء محدد؛ على أمل أن يصادف شيئاً ما يكون ذا معنى. فجأة، لاحظ
أثر لطفة على الأرض قرب الباب. ظن لثانية أنها عبارة عن قذارة جلبها
هو أو كاميون أو الطبيب، ولكن اللطفة كانت إلى يسار الباب وقرية
من الحائط. تقدم باتجاه اللطفة، وانحنى لكي يلقي عليها نظرة عن كثب.
ولما أصبح أكثر قرباً منها لاحظ أنها أثر قدم، فقد كانت آثار الأصابع
واضحة. ظن أنها أثر قدم طفل، ولكن بعض الآثار الموجودة أمام الأصابع
جعلته يبدل رأيه، فقد بدت كالمخالب؛ شيء حاد حفر السجادة وانتزع
منها بعض الألياف.
تراجع قليلاً إلى الوراء ووقف على كعبيه، وهو يفكر: هل هناك طفل
يمتلك مخالب؟ أم إنه حيوان تبدو آثار قدميه مثل آثار قلمي طفل؟ ثم

تساءل جدياً عن الكائن الذي يتعامل معه.

تذكر شارلوك الكائن الذي رآه بالأمس في الحديقة- أو بالكاد رآه- والذي كان يتعقب والد كاميرون في شوارع شانغهاي؛ هل كان موجوداً في مكتب مالكوم؟ يبدو هذا احتمالاً، ولكن، من هو؟ وماذا يريد؟ بحث حوله، ولكن لم تكن هناك آثار في أي مكان آخر على السجادة. وليست هناك آثار تشير إلى الجهة التي أتى أو غادر منها المخلوق صاحب هذا الأثر.

استقام في وقفته، وكان على وشك مغادرة الغرفة عندما لاحظ أن هناك أوراقاً على مكتب مالكوم، وكانت هذه الأوراق مبعثرة بشكل فوضوي. كانت الغرفة بأكملها مرتبة، ولم يكن شارلوك يريد أن يرى كاميرون ووالدته عندما يدخلان الغرفة مجدداً هذه الأوراق، ويتذكرا أنها آخر شيء لمسه مالكوم. أراد شارلوك أن يرتب الأوراق؛ كي يشعر بأنه قام بشيء مفيد يساعد هذه العائلة في أزمتها.

اقترب شارلوك من طاولة المكتب، وحمل عدة أوراق. كانت الأوراق موضوعة رأساً على عقب، فقام بقلب الأوراق ليرى إن كانت هناك طريقة ليرتب الأوراق فيها. لم يكن ينوي قراءة الأوراق، فرمها كانت أوراقاً متعلقة بأعمال المرحوم مالكوم. ولكن ربما كانت مرقمة مما يسهل عليه ترتيبها. نظر إلى الورقة الأولى وكاد قلبه يتوقف عن النبض.

كانت الأوراق نفسها التي وجدها على الأرض في مقصورة السيد أرينوس في غلوريا سكوت؛ تلك الرسوم البيانية التي تشبه شبكة العنكبوت. بحث بسرعة في الأوراق الباقية، وكانت كلها شبيهة بها؛ إنها رسوم بيانية تبدو مزيجاً من خطوط ودوائر تتقاطع مع بعضها بعضاً. قام بنشر الأوراق على سطح طاولة المكتب مسحوراً بها. ولكن، ما الذي تعنيه هذه الرسوم البيانية؟

ألقي شارلوك نظرة متفحصة على الرسوم البيانية في محاولة منه لمعرفة كيفية إعدادها. كانت الأوراق بحد ذاتها كبيرة ولكنها رقيقة وشفافة تقريباً. وما إن رفع إحداها أمام النافذة حتى بدت لامعة تحت أشعة الشمس.

كانت كل ورقة تمتلك عدداً كبيراً من الدوائر الصغيرة المرسومة بالحبر، وكانت الدوائر بحجم القطع النقدية المعدنية تقريباً، وكان يخرج من كل دائرة خطان باتجاهين مختلفين، وكانت هذه الخطوط تسير بشكل منحرف مشكلة مثلثات ومتوازيات الأضلاع ومستطيلات وغيرها من الأشكال الهندسية

الغريبة باستثناء... رأى فجأة أن هناك دائرتين لم يكن يخرج منهما إلا خط واحد، ولاحظ أن هذين الخطين يشكلان مساراً. وإذا وضع سبافته على إحدى هاتين الدائرتين اللتين يخرج من كل منهما خط واحد وتبعه إلى الدائرة الثانية ثم الثالثة حتى ينتهي به المطاف أخيراً في الدائرة الأخرى التي يخرج منها خط واحد فقط، ففي هذه الحالة سيكون الخط يدخل إليها فقط ولا يخرج منها. إنها رحلة. ولكن، ماذا تعني؟ وماذا تريد أن تخبره هذه الرحلة؟

نظر شارلوك إلى كل الأوراق على التوالي، ورفعها إلى الأعلى نحو الضوء؛ محاولاً أن يعرف إن كانت عينها أو تشبه بعضها قليلاً، إلا أنه وجدها مختلفة تماماً؛ بالرغم من حقيقة أنها جميعاً تتكون من دوائر صغيرة وخطوط وكانت الدوائر والخطوط، تمتلك أماكن مختلفة على كل ورقة.

ما من شك في أن هذه الأوراق كانت أوراق السيد أرينيوس التي كان يحتفظ بها في مقصورته في السفينة، والتي كان أحد القراصنة يبحث عنها. لقد كان شارلوك محقّقاً عندما أخبر كاميرون أن الهولندي سلمها لوالده ليلة البارحة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا؟ أحس شارلوك أن دماغه يعاني مع هذه المعضلة. هل كانت نوعاً من رسالة مشفرة؟ وهل هذا يعني أن مالكوم ماكينزي كان يجب أن يطلع عليها لأنه الوحيد القادر على فك تشفيرها، والتي ستبدو مبهمة لأي شخص يطلع عليها صدفة؟ وهل كان العمل المهم الذي تحدث عنه مالكوم عند الفطور عندما كان غاضباً ونزقاً هو فك هذه الشيفرة؟ إذا كان ما تقدم صحيحاً، فهذا يعني أن الرسالة المخفية داخل هذه الرسوم البيانية مهمة وربما فائقة الأهمية. وعندما قام مالكوم بفك الشيفرة توجه مباشرة إلى مقر حاكم شانغهاي ليخبره بمضمونها.

ثم مات. هل هي صدفة؟ بدأ شارلوك يشك في ذلك. كان كاميرون يقف أمام باب المكتب من الداخل ويحدق إلى شارلوك، ثم سأله: "ما الذي تقوم به؟".

فخاطبه شارلوك: "هل كل شيء يسير على ما يرام؟".
فرد كاميرون: "من الصعب قول ذلك. ماذا بشأنك؟".
"أعتقد أنني عثرت على رسالة مشفرة". وأوماً لكاميرون كي يتقدم نحوه لكي يشرح له.

ما إن شاهد كاميرون الرسوم البيانية وحدق إليها حتى عبس وقال:

"إنها لا تعني لي شيئاً".

"ألم يتلقَ والدك أي شيء يشبه هذه من قبل؟".

"ليس على حدِّ علمي".

"همممم". حدق شارلوك إلى الرسوم البيانية وقال: "يجب أن يكون هناك نوع من المفتاح حتى نتمكن من فك هذه الشيفرة".

"ماذا تعني؟".

هناك الكثير من أنواع التشفير التي يستخدمها الناس. بعضها يقوم على استبدال بعض الأحرف بالأرقام؛ مثل استبدال الحرف ألف بالرقم واحد، والحرف باء بالرقم 2، إلى النهاية... ولكنها طريقة بسيطة جداً لأنه لا يوجد رقم يمكن الاستبدال به أكبر من الرقم 28. كما أن هناك طريقة تشفير تقوم على استبدال كل حرف بالحرف الذي يليه فيستبدل الحرف ألف بالحرف باء... وهلم جراً؛ بحث يستبدل الحرف ياء بالحرف ألف. وهذه الطريقة في التشفير أصعب من سابقتها. ثم ربت على أعلى كدسة أوراق الرسوم البيانية وقال: "ولكن هذه مختلفة، فما من شيء ليتم استبداله، وليست هناك مجموعات مختلفة من الرموز والأحرف والصور".

عندها قال كاميرون: "إنها تبدو كرحلة، أترى الأوراق كم تبدو شفافة؟ إذا وضعت هذه الأوراق فوق صفحة أحد الكتب فإن الدوائر الصغيرة قد تحيط ببعض الأحرف. وإذا بدأت مع الدائرة الأولى وتبعت الخطوط، فربما ستشكل الأحرف التي تقع أسفل الدوائر وبالتالي نص الرسالة. ربما يمتلك الشخص الذي رسم هذه الرسوم البيانية كتاباً وأخبر والدي عنه".

فردّ عليه شارلوك: "هذا تحليل ذكي جداً. ولكن، ليس هناك الكثير من الكتب ذات الصفحات الكبيرة بما يكفي لكي تتلاءم هذه الصفحات معها، كما أنه ما من ضمانة بأن والدك يمتلك الكتاب ذاته الذي استخدمه راسم الرسوم البيانية؛ إلا إذا كانا قد رتبا للأمر مسبقاً". توقف وفكر هنيهة وسأل: "ما هي الكتب التي تضمن أن يمتلك الجميع نسخاً منها؟ الكتاب المقدس حسبما أفترض، بالإضافة إلى القواميس، وربما مجموعة الأعمال الكاملة لشكسبير أليس كذلك؟".

أشار كاميرون: "الكتاب المقدس كبير؛ على الأقل النسخ التي نقرأ منها في دار العبادة نهار الأحد، إنها تبدو عملاقة".

ألقى شارلوك نظرة في أرجاء الغرفة وقال: "أعتقد أنه يجدر بنا البحث عن كل الكتب الكبيرة الموجودة على الرفوف والتي يمكن أن تتوافق صفحاتها مع هذه الرسوم البيانية، ثم أن نعمل عليها صفحة صفحة وكتاباً

تلو الآخر..." عندئذ شعر بأصابعه تنقبض على شكل قبضة من شدة الإحباط. "ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في أننا إن عثرنا على الكتاب المناسب فكيف سنتمكن من معرفة الصفحة المستخدمة والتي تناسب مع كل رسم بياني؟ فما من شيء يخبرنا عما يجب علينا أن نقوم به". فقال كاميرون: "ربما هناك مفتاح يشير إلى أي كتاب وأي صفحة، وربما سلك ذلك المفتاح طريقاً مختلفاً، ربما وصل قبل عدة أيام عبر البريد".

شيء ما في دماغ شارلوك أخبره أن كاميرون قال شيئاً مهماً، وربما أشياء عدة مهمة. وهي عبارة عن جمل غريبة تكررت في الحديث مثل "تبدو كرحلة". "ربما تشكل الأحرف التي تقع أسفل الدوائر وبالتوالي نص الرسالة". "وربما سلك ذلك المفتاح طريقاً مختلفاً". رحلة. بالتوالي. طريقاً.

عندها سأل شارلوك: "المطبوعات التي يمتلكها معظم الناس هي الخرائط! كل عائلة تمتلك خريطة للعالم في منزلها، وهناك العديد من الخرائط؛ بعضها يبدو أفضل من الآخر، كخرائط المسح التي يعدها سلاح المدفعية في لندن، وخرائط سلاح البحرية للعالم. أين يحتفظ والدك بخرائطه".

صحح له كاميرون بهدوء: "أين كان والدي يحتفظ بالخرائط". أجفل شارلوك وقال: "آسف، كانت مجرد عبارة خرقاء لم أفكر فيها". هزّ كاميرون كتفيه: "لا عليك". وأشار إلى رفٍ خالٍ من الكتب، ولكنه يحتوي على عدد من الأوراق الملفوفة وقال: "إنها هناك". "ساعدني".

بسرعة، جلبا الأوراق الملفوفة واحدة تلو الأخرى. كانت عبارة عن خرائط متنوعة، واحدة للصين وأخرى لشانغهاي، ولكن بعضها كانت للعالم أجمع. ركّز شارلوك بسرعة على واحدة كانت أكثر تفصيلاً وملونة بشكل كامل، والتي أظهرت اتجاه التيارات والمناطق الضحلة من المحيطات وكتل اليابسة الكبيرة. وأشار النص المكتوب في أعلى الخريطة إلى أنها من إعداد سلاح البحرية.

"حسناً، دعنا نبسط هذه على الطاولة".

بسط شارلوك الخريطة على الطاولة، بينما جلب كاميرون بعض الدبابيس من أحد الجوارير وقام بتثبيتها على زوايا الخريطة. أخذ شارلوك الرسم البياني الأول ووضعه فوق الخريطة.

كانت الورقة أصغر من الخريطة.
سأل كاميرون: "أين تتلاءم؟ يمكننا وضعها في أي مكان".
حرك شارلوك الورقة حتى تلاءمت مع الزاوية العليا اليسرى وقال:
"لنجرّب أبسط الخيارات".

وجد بسرعة إحدى الدوائر التي يخرج منها خط واحد وقال: "هنا،
لنبدأ بهذه".

أشار كاميرون: "إنها تشير إلى إحدى المدين في آسيا، إنها أولان باتور
bator Ulan".

"حسناً، لنتبع الخط إلى الدائرة التالية".
وعندها قال كاميرون: "إنها لا تزال في آسيا، إنها تشير إلى
سنغافورة Singapore".

همهم شارلوك: "يو - أس" من الصعب القول إن كانت هذه
بداية الرسالة أو مجرد حرفين عشوائيين".
قال كاميرون: "اسكوتلاندا Scotland". وهو يضع إصبعه على الدائرة
الثالثة.

عندها قال شارلوك: "يو أس أس uss"، أعتقد أنني بدأت أكون
فكرة عما تتحدث عنه الرسالة". وأخذ ينقل إصبعه على الخريطة من
دائرة إلى أخرى، وهو يقرأ أسماء الدول والمدن والأنهار والمحيطات التي
تظهرها الدوائر، والأحرف التي تظهرها؛ بعضها كان في بداية الاسم، بينما
بعضها الآخر في وسط الاسم، ودون كل ذلك. وفي النهاية قال: "حسناً،
إلام توصلنا؟".

لم يستطع كاميرون قول أي شيء، فقد بدا وجهه كالحاء، وكانت عيناه
مرعوبتين وقال: "ستفجر يو أس أس موناكسي في نهر يانغتزي".

الفصل الحادي عشر

"هل أنت واثق؟".

"نعم إنها واضحة وضوح الشمس".

مرر شارلوك إصبعه بسرعة من دائرة إلى أخرى، لقد كان كاميرون محققاً . عندها قال له : " أعطني ورقة أخرى ."

فأعطاه الورقة التي كانت فوقها، وضع شارلوك يسار الورقة على يسار الخريطة . ولكن، هذه المرة لم تتطابق الدوائر إلا مع بعض الأحرف . عبس وفكر قليلاً . ثم أزاح الورقة، وجعل جهتها اليمنى تلامس الجهة اليسرى للخريطة . وبسرعة، تمكن من تفحص كل الدوائر فقد كانت كل الدوائر تحيط بأحرف .

فقال : " إنها طريقة ذكية كي تتمكن من معرفة تسلسل الأوراق . ابدأ بالجهة اليسرى العليا ثم الجهة اليمنى العليا، وبعدها الجهة اليمنى السفلى وتليها الجهة اليسرى السفلى ."

" ما الذي تقوله الرسالة؟ ."

مرر شارلوك إصبعه متتبعاً الخطوط . وفي كل مرة كان يصل فيها إلى دائرة كان يلفظ الحرف، وحاول أن يحفظ كل الأحرف بذهنه . ولكن، بعد خمسة أو ستة أحرف أدرك استحالة المهمة .

وعندما وصل إلى الدائرة الأخيرة قال : " جيد جداً . لنرَ ما توصلنا إليه ."

" لا شيء ذا معنى . " قال كاميرون .

فكر شارلوك قليلاً، وطلب منه أن يعكس الرسالة وقال له : " ربما بدأنا بالدائرة الأخيرة وليس الأولى هذه المرة ."

كتب كاميرون الرسالة بالاتجاه المعاكس أسفل الرسالة التي كان قد كتبها مسبقاً، وقال: " ستم اداة الثوار التايبيين بالانفجار". قرأ ذلك مذهولاً.

سأل شارلوك : " الثوار التايبيون أليسوا صيني الهان؟ ألم يقل والدك أنهم كانوا يريدون الثورة على المانشو الحاكمين ."

أوماً كاميرون : " صحيح . إنهم يهاجمون بلدة صغيرة ويحتلونها لفترة قصيرة قبل أن ينسحبوا منها؛ ليست لديهم قوة حقيقية ."

" ولكن، عندما يظن الناس أنهم من فجروا السفينة الأمريكية فسيأخذونهم على محمل الجد . " قال شارلوك .

" ولكن، ما الهدف من قيامهم بتفجير هذه السفينة؟ أقصد، لماذا يفترض بالناس أن يصدقوا أنهم قد يقدمون على هذا الأمر طالما أن الجميع يدركون أنهم يسعون لطرد المانشو من الحكم لا أكثر؟ "

هز شارلوك كتفيه وقال : " ربما يريدون أن يقولوا إن الصين يجب أن تكون للصينيين، وإنهم لا يرغبون بوجود الغرباء فيها . وربما يعتقدون أن المانشو الفاسدين تتم رشوتهم من قبل الحكومة الأميركية . ولكن الأسباب لا تهم، فالثوار التايبيون واجهة جيدة لكي تتلطي خلفها الجهة المخططة للهجوم . فالحاكم الصيني سيجد طريقة لإرسال الجنود لمطاردة هؤلاء الثوار كالكلاب؛ وهذا ما يفترض به القيام به . "

" ولكن الأسوأ من ذلك ... " قال كاميرون، وتابع بعد فترة صمت قصيرة وهو يبدو متوتراً : " لا أعرف إن كانت الحكومة الأميركية ستقبل بالأمر وتلدغ على جرحها . أظنها سترسل عندها القوات الأميركية البحرية . " عندها قال شارلوك : " وهذا قد يؤدي إلى نشوب حرب . "

" وفي الحروب، تزدهر فرص التجارة . "

نظر شارلوك نحو كاميرون وسأله : " ماذا تقصد؟ "

" أقصد أنه بما أن المانشو هم الحاكمون، فلديهم السيطرة على التجارة على كامل الأراضي الصينية . فهم يستطيعون تحديد الأسعار وتحديد السلع التي يمكن الاتجار بها، وهذا ما كان يحمل أبي على التوتر؛ فهو يرغب بتوافر الحرية الكاملة كي يتمكن التجار الغربيون من الاتجار بأي شيء، من دون أن يضطروا لدفع الرشا للحكام المانشو، إنه يسعى وراء حرية التجارة . ولكن، إذا كان هناك الكثير من الأميركيين الذين يقفون عند الساحل، وإذا كان الإمبراطور يحابي السفير الأميركي للحيلولة دون نشوب الحرب فعندها ستكون للأميركيين اليد الطولى، وستحول هذه المنطقة للولاية الثامنة والثلاثين . "

" هل الفرص التجارية مهمة إلى هذا الحد؟ " . سأل شارلوك وهو بالكاد يستطيع تصديق ما تسمعه اذناه .

قال كاميرون : " إن الحرير والفضة اللذين تنتجهما الصين يمكن أن تحولا أي تاجر غربي إلى تاجر ثري . وكل مزارع صيني زبون محتمل للبضائع الغربية . وقد اكتشفتم - أعني البريطانيون - هذا الأمر من خلال تجارة الأفيون . والأميركيون يسعون إلى حصة في هذه التجارة . "

نظر شارلوك إلى الرسمين الباقيين وقال : " يجب علينا أن نعلم ما الذي تنقله هاتان الرسالتان . "

الآن، صار الفتیان یعلمان ما یجب علیهما القیام به، ولم یستغرقهما الأمر أكثر من دقائق معدودة قبل أن یتمکنا من فك تشفیر الرسالة الثالثة التي نصت علی: " سیتم التفجیر فی نهر یانغتزی. تجنب کل المناطق علی ضفة النهر، كما یجب تجنب الصعود علی متن السفینة إذا تمت دعوتک لزیارتها".

قال کامیرون: " أیاً کان من أرسل هذه الرسالة إلى والدي، فهو یتحدث عن مجزرة ستحصل. یدو التفجیر وكأنه طريقة أخرى لجني الأموال". تنفس کامیرون وتابع: " إنهم لا یهتمون لأرواح الناس. إذ سیترب علی تفجیر السفینة التضحية بأرواح کل الأمریین الذين سیکونون علی متنها بالإضافة إلى الصينیین الذين سیکونون علی متنها أيضاً". أوما شارلوك: " وأعتقد أن هذه الأرواح البریئة ستكون ثمناً ضیئلاً مقابل الفوائد التي ستجنى من التجارة، وستدخل البحرية الأمریکية بحرب مع الصين، وستحاصر المرفأئ الصينیة، وسیترب علی ذلك إزهاق أرواح الكثير من الأمریین". عندها سأله کامیرون: " ما الذي تتوقع أن یكون مدوناً فی الرسالة الأخيرة؟".

تمتم شارلوك قائلاً: " أعتقد أنني أستطیع التخمین". لقد استغرق فك تشفیر الرسالة الأخيرة وقتاً أقل من الرسائل السابقة. وكانت الرسالة: " استعدوا لجني منافع الفوضى السیاسیة والاقتصادیة، واسعوا لإبرام أفضل الصفقات الممكنة؛ لأن ذلك یجلب فوائد عظیمة للمصانع الأمریکية. إننا نعتمد علیکم".

همس کامیرون قائلاً: " لا أستطیع أن أصدق أن والدي كان متورطاً بأمر كهذا. بدا وجهه ممتقع اللون وصوته أجش. أشار شارلوك مخاطباً کامیرون: " لا أعتقد أن والدك كان سینورط بهذا الأمر".

عندها أجابه کامیرون: " ما الذي یجعلك تقول هذا؟". فأجابه شارلوك: " نحن نعلم أن والدك كان ینتظر وصول هذه الرسالة، ولكننا یمکننا أن نحكم من تصرفه صباحاً أثناء تناول الفطور أنه لم یکن مسروراً بمضمونها، كما أنني أعلم أنه توجه إلى مقر الحاكم وهو یحمل له رسالة بالغة الأهمیة، ولا أعتقد أنه كان سیقف مكتوف الیدين أمام جریمة من هذا النوع، بل كان یسعی لإعلام الحاكم".

عندها قال کامیرون: " ولكنه مات". نظر کامیرون نحو شارلوك، وكانت عیناه حمراوین وتشیان بما تعتمل به نفسه من أسف وغضب،

وسأل كاميرون : " أعتقد أن موت والدي كان مدبراً؟ ".
هز شارلوك رأسه وقال : " إن كانت وفاته طبيعية فالأمر يكون من
عجائب الصدف . شخصياً، أعتقد أنه قتل كي لا يخبر أياً كان بما يعرفه ".
عندها، مد يده وشد بقوة على يد كاميرون وقال : " إنني متأسف بشدة
لما حل بوالدك ".

أجابه كاميرون : " ولكنه أخبر الحاكم، فما الجدوى من قتله؟ ".
هز شارلوك رأسه وقال : " أعتقد أنه تم اعتراض الرسالة من ذلك
الكائن الذي كان يتبعه . فأنا أظن أنه رأى الرسالة وهي تدخل مقر
الحاكم، وقام باعتراضها . إنني متأكد من أنه كف عن ملاحقة والدك منذ
أن سلم الرسالة للموظف، واستبدل تعقب والدك بتعقب الرسالة ".
" من الممكن أن تكون الرسالة قد دخلت المقر، لكن أحدهم قام
بإخفائها؛ شخص تمت رشوته ".

" لقد سبق أن قال لي أحد أصدقائي : ابحث عن التفصيل الأكثر
بساطة لأنه سيكون الأفضل . وفي حالتنا هذه، نحن نعلم أن هناك كائناً
كان يتعقب والدك، ومن الأفضل أن نقول إنه الذي استولى على الرسالة
بدل أن نبحث عن مسؤول تمت رشوته للقيام بالأمر ".
" ولكن، ما الوسيلة التي تمكنتنا من التأكد من أن الرسالة قد
اعترضت قبل أن تصل إلى الحاكم ".

فأجابه شارلوك : " لأنه لو لم يتم اعتراضها لكان يفترض أن يكون
هناك مسؤولون صينيون في منزلك يتقصون الأمر، وبالتالي تنعدم الفائدة من
قتل والدك ".

عندها سأله كاميرون : " أعتقد أن والدي كان يقوم بما يفرضه عليه
ضميره؟ ".

أجابه شارلوك : " نعم . هذا ما أنا واثق منه . حتى إنني واثق من
أنه قتل عقاباً له على ضميره الحي ".

فسأله كاميرون : " ولكن، من القاتل؟ ".

فأجاب شارلوك : " هذا ما يفترض بناء معرفته، وبأسرع ما يمكن ".
فسأل كاميرون : " ولكن، من الذي بعث بالرسالة؟ ". عندها، هز
شارلوك رأسه وسأله : " لصالح من كان والدك يعمل؟ ". فرد عليه كاميرون
: " لم يكن يعمل لصالح أي كان . أقصد، كانت لديه صلات بعدة شركات
أميركية، وكان يعرض بضائع تلك الشركات في الصين، ويتقاضى عمولات على
المبيعات . وأعتقد أن إحدى تلك الشركات أخبرته أن لديها خطة ترفع من

مبيعاتها مئات المرات . أعتقد أنه تورط معها، ولكنه لم يكن على علم بحقيقة نواياها، وعندما أدرك ذلك، كان السيف قد سبق العذل، وكان قد تورط ولم يعد يستطيع التراجع ."

بدت الحيرة على كاميرون وسأل : " ولكن، لماذا قتلوا صديقك الطاهي الصيني، وما علاقته بالأمر؟ ."

فأجابه شارلوك : " كنت للتو أفكر بالأمر عينه . ربما لأن قدره السيئ جعله ينال وظيفة على متن يو أس أس موناكسي . " فكر شارلوك للحظة . " أعتقد أن هو تشانغ وجد شيئاً على متن السفينة كان يمكن أن يعيق تنفيذ هذه الخطة الجهنمية، ولهذا قتل ."

سأل كاميرون ببطء : " هل يمكنك أن تتذكر ما قاله لك؟ ."

فأجابه شارلوك : " لقد قال لي إنه سيعمل على متن موناكسي، وإنه لاحظ أن الطباخ الأساسي قد طلب براميل من المياه العذبة أكثر مما هو ضروري، وأخبر إدارة السفينة أن السفينة ستبحر في النهر مما سيمكنهم من الحصول على المياه العذبة منه مباشرة، وبالتالي تساءل عن سبب كل هذه الكمية من المياه ."

" أظن أن هذه البراميل تحتوي على أشياء أخرى غير المياه؟ . " عبس شارلوك : " أظن أن هذه البراميل تحتوي على مواد متفجرة؟ ."

هز كاميرون كتفيه : " إن تفجير سفينة بهذا الحجم يتطلب كمية كبيرة من المتفجرات . " فقال شارلوك : " ولكن، كان بإمكانهم تفجيرها من خلال التلاعب بضغط محركاتها ."

فأجابه كاميرون : " ولكن هذا الأمر يفترض تواجد عدد من الاختصاصيين للقيام به . لذا، الحل الأمثل يتمثل باستخدام كمية كبيرة من المتفجرات توضع داخل براميل يزعم أنها براميل مياه عذبة ."

وافق شارلوك مومئاً : " تحليل منطقي . إذاً، كيف يمكننا التصرف بناء على هذه المعطيات؟ ."

تبادل شارلوك وكاميرون النظرات، فقال شارلوك : " أمكننا إخبار الحكومة في شانغهاي؟ ."

فأجابه كاميرون : " ولكن والدي حاول وفشل . ولنفترض أننا قمنا بذلك، ما الذي يضمن أن تأخذ الحكومة قصة فتين على محمل الجد؟ ."

" لا يبقى أمامنا من خيار سوى إيصال رسالة إلى قبطان يو أس أس موناكسي ."

" ولكن، أعتقد أن القبطان سيأخذ هذه الرسالة على محمل الجد؟

وما الذي سيضمن لنا أنه لن يرميها طالما أنه لا يعرف مرسلها".
" إذاً...".

فسأله شارلوك حينها : " ما الحل إذا؟ ". فأجاب كاميرون : " الحل أن نلحق بالسفينة ونصعد على متنها، ونخبر القبطان وجهاً لوجه . أنت تعرفه، وهو يعرف والدي، وبالتالي فرصة استماعه إلينا كبيرة ".
أوماً شارلوك بترواً وقال : " لم أستطع أن أفكر بحل أفضل ".
تنفس كاميرون بهدوء وقال : " لقد سبق لي أن أبحرت عبر اليانغتزي، ولكن ليس لمسافة طويلة . فقد سبق لوالدي أن اصطحبني في رحلات صيد قصيرة عدة مرات ".

فسأله شارلوك : " ولكن، كيف سنلحق بالسفينة؟ أعلى صهوة جواد؟ ".
فرد عليه كاميرون : " بالطبع لا . لأن الأحصنة بطيئة ". وهز رأسه :
" الطريق وعرة جداً، لذا يجب علينا سلوك طريق طويلة قبل أن تصبح الطريق سهلة، وهذا سيستغرق وقتاً طويلاً، ولن نتمكن من اللحاق بموناكسي التي تسير بسرعة . الحل الأمثل برأيي هو استعمال أحد القوارب التي تبحر صعوداً ونزولاً عبر النهر . هذه القوارب سريعة نسبياً؛ إذا أخذنا بعين الاعتبار أن السفينة بالرغم من قوة محركاتها إلا أنها بطيئة نسبياً نظراً لضخامتها ".

عندها قال شارلوك : " إذاً، فلنتحرك الآن . ولكن، ماذا ستقول لأمك؟
".

نظر كاميرون نحو شارلوك، ثم أشاح بنظره بعيداً وقد علا الحزن وجهه . " لقد قال الدكتور إنها ستنام لبضع ساعات وربما لأيام ". ولاحظ الدموع في عينيه : " كانت تحب والدي كثيراً . وقال الطبيب إنها كلما استفاقت وأدركت أن والدي قد فارق الحياة يجب أن يعيد تخديرها مجدداً...".

عم الصمت هنيهة، وبعد ذلك سأله شارلوك : " وماذا عنك؟ كم ستستغرق من وقت لكي تعتاد على رحيل والدك؟ ".
أجابه قائلاً : " لقد مات أبي إنني مدرك لذلك تماماً . وبقائنا هنا لن يعيده إلى الحياة . لذا، يجب أن أبحث عن قاتليه وأقتص منهم ".
أجابه شارلوك قائلاً : " إنني أتفهمك ".

فرد كاميرون : " لا أعتقد ذلك . مع احترامي لك، لن تشعر بما أشعر به؛ فأنت لست كباقي الناس؛ أنت لا تهتم بالطريقة عينها . ولكن، أيا يكن الأمر فأنا أشكر تواجدك هنا، وشكراً لأنك أصغيت لي ".
".

فأجابه شارلوك : " هل سنبقى هنا وتبادل المجاملات أم نتحرك لمنع تفجير موناكسي ".

عندها قال كاميرون : " ولكن، هناك شيء آخر ".
سأله كاميرون : " ما هو؟ ".

فنظر إليه شارلوك وقال له : " إنه ابن هو تشانغ . إنه من المحليين ويعرف النهر جيداً، وسيوفر علينا الكثير من الوقت الذي قد يستغرقه البحث عن قارب وملاح له . هو فانغ يي هو الشخص الوحيد الذي يمكنه مد يد العون لنا ".

صمت هنيهة ثم أضاف : " كما أنهم قتلوا والده أيضاً، والأمر يهمه بقدر ما يهمنا ". فأجابه كاميرون : " نقطة جيدة . ولكن، بأي طريقة تمكنوا من إدخال أفعى إلى غرفة نوم والده لكي تلدغه؟ إنه أمر خطير وصعب . لا بد من وجود طرائق أكثر سهولة لقتل شخص ما ".

فأجابه شارلوك : " ولكن، من الواضح أن القتلة لم يكونوا راغبين بإظهار أن هو تشانغ قد قتل، وكذلك والدك؛ الأمر الذي كان سيفتح مجالاً للتحقيق، ويلفت الأنظار . لقد أراد القتلة أن تبدو الوفاة طبيعية؛ بما أن لدغات الأفاعي شائعة في مكان كهذا لكنني أشك في أن تكون اللدغة لدغة أفعى ".

أجابه كاميرون : " أوافقك الرأي، فهذا الأمر سيكون على شيء من الخطورة؛ فالأفاعي لا يمكن التوقع بتصرفاتها، ولا يمكن أن تتأكد من أنها ستنفذ ما تريده منها ".

تابع شارلوك : " وكلما فكرت بالأمر أكثر، يزداد اعتقادي بوجود آلة ضخّت السم في جسده . لقد دست الآلة في عنق هو تشانغ وفي يد والدك بغفلة عنه، وأنا أعتقد أنها تحتوي على سمّ مستخرج من أفعى ".
فكر كاميرون وقال : " إنها شيء شبيهة بالمحقنة، وهذا ما يفسر دخول الجناة غرفة نوم هو تشانغ ومكتب والدي . أياً يكن الأمر، ففيه مخاطرة كبيرة . ولكن الأمر يتوقف على المنفذ، فإذا كان شخصاً ضخماً يبلغ من الطول ست أقدام ففي الأمر مخاطرة، ولكن ربما كان المنفذ أصغر حجماً؛ كذلك الكائن الذي رأيته في الحديقة، أو الذي كان يتبع والدي ".

أوماً شارلوك : " أياً يكن الكائن فهو يمتلك الحجم المناسب الذي يتيح له دخول المنازل وحقن الضحايا بالسم من دون أن يلفت إليه النظر ".

أمسك بيده وسأل : " ليتني أستطيع معرفته . لكن، ماذا عن الوقت

الذي استغرقه كل من تشانغ ووالدي كي يموتا؟ فإذا كانت الآلة نفسها قد استخدمت لضخ السم، فهذا يعني أن المدة التي يجب أن يموت فيها الضحية يجب أن تكون عيناها".

هز شارلوك كتفيه وقال: "ربما كان السم الذي استخدم لقتل هو تشانغ أقل فعالية. وربما استعملوا سمًا أكثر فعالية مع والدك؛ سمًا مستخرجًا من أفعى أكثر ضراوة. في الحقيقة، لا يمكن الحسم في هذا الموضوع؛ على الأقل ليس في الوقت الحالي".

سأل كامبيرون: "أتظن أنهم سيسعون لعرقلتنا؟". بدا وجه كامبيرون وكأنه مفعم بالإصرار. فأجابه شارلوك: "أتمنى ذلك. فأنا أرغب بلقائهم، وأظن أنهم يراقبوننا الآن. لذلك، يجب أن نظل متيقظين".

حمل كامبيرون مسدس والده وقال: "إنني مستعد للثأر منهم". نظر شارلوك في أنحاء الغرفة وقال: "ولكن، في البداية دعنا نتأكد من أننا نمتلك الأشياء التي نحتاج إليها. لنأخذ الخرائط والرسائل فنحن سنحتاج إليها ربما لإقناع القبطان براين بما نقوله".

سأله شارلوك: "أيفترض بك أن تخبر أيًا كان إلى أين أنت ذاهب؟".

أجابه كامبيرون: "سأكتب رسالة أذكر فيها أنني أحتاج لتمضية بعض الوقت بمفردي. وأظن أن الناس سيتفهمون ظروفي. ستعم الفوضى المكان، وسأكون مندهشًا إذا لاحظ أي كان غيابي".

بعد عشر دقائق، غادر الفتيان البيت، وكانت الشمس توشك على المغيب، وكان أصحاب الأكشاك يقفلون أكشاكهم، وعندها لاحظ شارلوك أنه يشعر بالجوع. وكان يفترض به تأمين شيء لكي يأكلانه، وكان شبه متأكد من أن كامبيرون لا يشعر بالجوع، ولكن يفترض به توفير الطاقة لصديقه. أمسك كامبيرون بيد صديقه بينما كانا يعبران الطريق، وقال له: "أنظر هناك". تتبع شارلوك بنظره المكان الذي أشار إليه كامبيرون بإصبعه، ولاحظ وجود هو فانغ يي الذي كان ينظر إليهما. عندما شاهدهما تقدم نحوهما، وأومأ لكامبيرون وقال له: "لقد سمعت الأخبار السيئة المتعلقة بوالدك. وأنا حزين لما حل به". أجابه كامبيرون: "شكرًا لتعاطفك، وأنا الآن أشعر بما تقاسيه لفقدانك والدك بطريقة مختلفة".

ابتسم هو فانغ يي بطريقة حزينة وقال: "هناك أمر ما يحدث، إنه أمر غريب. أنت تعرف عنه، ووالدي عرف عنه، وأنا أعرفه الآن".

عندها سأله شارلوك: "والأجله أنت هنا الآن؟".

هز هو فانغ يي كتفيه وقال بطريقة غريبة : " كنت أفكر بالأشخاص الذين يمكنني التحدث معهم . ومن المؤكد أنني لا أريد التحدث مع أمي التي تصدق أن زوجها قتل بلدغة أفعى . إنني أتذكر ما صرحت به حول صعوبة دخول أفعى إلى البيت، وأنا أعرف الجهد الذي قمت به لسد كل الفجوات في جدران المنزل ". ونقل نظره من شارلوك إلى كاميرون، وبدأ عليه أنه يريد أن يقول شيئاً ما ولكنه لم يعرف السبيل إلى ذلك . قال هو فانغ يي بصوت منخفض : " لقد شاهدت شيئاً ما في الأمس . لم أخبركما بذلك من قبل خشية أن تتهماني بالجنون، حتى إنني لم أخبر أمي ". تنفس بعمق وأجبر نفسه على المتابعة : " كنت نائماً، ولكنني استيقظت على صوت شيء، ورجحت أن يكون أبي من يسير في المنزل محدثاً هذا الصوت . في الحقيقة، لم أكن معتاداً على وجوده في البيت، فقد كان يشخر ويصدر أصواتاً أثناء نومه . لقد شاهدت ظلاً بجانب باب غرفة نومي، وكان الظل ضئيلاً لكي يكون ظل أبي أو أمي، وكان يتمتع بالثبات الذي يجعلني أستبعد أن يكون قطة أو كلباً أو قرداً . لم أستطع تمييز عينيه، ولكنني كنت واثقاً من أنه ينظر إليّ، لذا لم أنبس بنت شفة أو أتحرك، وبعد قليل ارتعش الظل، ونظر إليّ بعينين كالجمر، قبل أن يختفي . وأنا الآن على يقين بأنه الذي تسبب بمقتل أبي ".

عندها، أكد شارلوك كلام هو فانغ يي وقال له : " نحن شاهدنا هذا الكائن أيضاً، ولا نعلم ما هو، ولكن من المؤكد أن له علاقة بما يجري ". نظر شارلوك نحو كاميرون ثم نحو هو فانغ يي واقترح قائلاً : " فلنتكلم ونحن نسير . يفترض بنا الحصول على قارب والإبحار بواسطته عبر النهر . هل يمكنك مساعدتنا؟ "

سأل هو فانغ يي : " هل سيساهم هذا الأمر في كشف ملابس ملبسات موت والدي؟ "

أوما شارلوك : " نعم ".

عندها قال هو فانغ يي : " إذا، أخبراني ". بينما كانوا يسرون، شرح شارلوك وكاميرون لهو فانغ يي حقيقة الأمر .

بينما كانوا يسرون، لاحظ شارلوك أنهم كانوا يسرون خارج شانغهاي، عبر طريق لم يسبق له أن مر به، فقال : " أظن أننا ذاهبون خارج الخليج . أليس هناك ينتهي نهر يانغتزي، ألا يفترض أن يصب بالبحر؟ ". أجابه هو فانغ يي : " صحيح . ولكن هناك يصبح النهر أكثر اتساعاً . أرجوكم ثق بما أقوم به ".

بعد فترة، لاحظ شارلوك أنهم وصلوا إلى سور المدينة . وكانت هناك بوابة يحرسها جندي واحد يتيح للناس الدخول والخروج بسهولة ويسر؛ على الأرجح كان خطر تواجد الغرباء داخل المدينة أقل . عندها قال كاميرون : " إنها بوابة فرتيكس فونكس . وإذا افترقنا لسبب ما، فيجب علينا أن نلتقي هنا مجدداً " . خرج الفتيان الثلاثة بسهولة من البوابة . وخارجها، كانت هناك طريق واسعة توصل إلى مناطق خارج المدينة . بينما كانوا يتوجهون نحو نهر يانغتزي سأل شارلوك : " ما هي الخطة؟ " .

أجابته هو فانغ يي : " خالي لديه عدة قوارب، وأنا على ثقة بأنه سيقرضنا أحدها، إن طلبت منه ذلك " . تتأب هو فانغ يي وتابع : " على الأرجح لم يعلم بعد بما حل بأبي، ويفترض بي ألا أخبره " . كان المنظر الطبيعي خارج سور المدينة كثير التلال، وهذا ما صعب الرؤية لمسافة بعيدة . كانت الطريق متعرجة، ولكن شارلوك لاحظ أنهم كلما ابتعدوا عن شانغهاي كانوا يسلكون درباً نازلاً . كانت الطريق واسعة، وكان هناك الكثير من الناس يستخدمونها، والعربات تسلك الطريق ذهاباً وإياباً، وهي مليئة بالتبن والخضار والخشب، وغيرها من الأشياء التي لم يكن شارلوك قد سمع بها أو رآها من قبل . وقد فاجأته أشياء أخرى على الطريق؛ فبعض المزارعين كانوا يدفعون عربة، وكانت ذات عجلة واحدة في الأمام ومن خلفها توجد صارية علقت عليها شرع أحمر . لقد استغل المزارعون النسومات لمساعدتهم على دفع عرباتهم . كانت هذه الفكرة بديهية، وتساءل عن سبب عدم تطبيقها في إنكلترا .

كلما تقدموا في مسيرهم لاحظ شارلوك أن الطريق أصبحت أكثر رطوبة . كانت الحقول التي تحد الطريق مزروعة بأعشاب طويلة قد يصل طولها إلى طول الرجل . وكان التراب موحلاً، واستطاع شارلوك رؤية تمديدات المياه المصنوعة من أنابيب من القصب، والتي تجلب المياه من النهر إلى الأرض . وكان هناك ما يشبه البوابات التي تتيح للمياه العبور .

سأل شارلوك هو فانغ يي : " ما الذي يزرعونه هنا؟ " . أجابه فانغ يي : " الأرز . إننا نترك الأرز مغموراً بالمياه، ونحن نزرع الأرز أكثر من أي محصول آخر، لأننا نتناوله أكثر من أي محصول آخر " . تتم شارلوك : " مثل البطاطا في إنكلترا " . بعدها، انعطفت الطريق بمحاذاة التلة الأخيرة، وأمامهم كان هناك

امتداد من المياه الزرقاء، التي يتخللها شيء شبيه بالموج .
عندها قال هو فانغ يي : " إنه نهر يانغتزي، وهنا يبدأ العمل
الشاق "

الفصل الثاني عشر

لقد دهش شارلوك باتساع النهر مقارنة بالأنهر الأخرى التي سبق له أن شاهدها، مثل نهر التايمز بلندن أو نهر هدسون في نيويورك. لقد بدت الضفة الأخرى وكأنها تبعد عنهم أميالاً. كان الضباب يغطي الحقول، وهذا ما جعل المنطقة تبدو وكأنها مكان خيالي خلاب. كانت التلال تحيط بضفتي النهر؛ مما صعب الرؤية لأكثر من ميل.

قال كاميرون بفخر: "إنه ثالث أطول نهر بالعالم. وهو ينبع من جبال التبيت، ويسير لمسافة ستة آلاف ميل قبل أن يبلغ المحيط". نظر كاميرون إلى شارلوك وقال: "ألا يفترض بي أن أهتم بالمكان الذي أحيأ فيه؟".

استطاع شارلوك رؤية مئات وربما آلاف القوارب في النهر. منها ما كان صغيراً ولا يتسع لأكثر من شخص مع المجداف، ومنها ما كان كبيراً ويحتوي على أربعة أشعة تشبه المراوح، وتحمل طاقماً كاملاً.

قرب ضفتي النهر، كانت هناك مئات القوارب مسطحة القعر. وبدت تلك القوارب بيوتاً، أو على الأقل أكشاكاً. لاحظ شارلوك أنها لم تكن قوارب للإبحار بل قوارب للسكن. كانت عبارة عن قرى بنيت على ضفتي النهر. بحث الفتیان الثلاثة عن السفينة الأميركية في النهر، إلا أنهم لم يجدوا لها أثراً. كان شارلوك متأكداً من أنهم كانوا سيشاهدونها لو كانت لا تزال في الجوار. أشار هو فانغ يي إلى مكان على يساره، وهو عبارة عن رصيف للقوارب مصنوع من القصب. وكان هذا الرصيف يخترق مياه النهر قليلاً، ويلى قرية القوارب. قال هو فانغ يي: "هنا يسكن خالي".

عندها، قال شارلوك: "إذاً دعونا نزل إلى هناك".

نزل الثلاثة إلى أسفل التلة، وكانوا يهرسون التراب الطري أسفل أقدامهم. بعد بضع دقائق اجتازوا قرية القوارب، ووصلوا إلى رصيف القوارب. هنا، طلب هو فانغ يي منهما أن ينتظراه هنا على الضفة، واتجه نحو ثلاثة رجال صينيين كانوا يعملون على متن أحد القوارب. حضن أكبرهم الذي يمتلك شارباً أسود كبيراً هو فانغ يي، وابتسم لرؤيته ابن اخته.

تكلم هو فانغ يي، وأصغى له الرجل. نظر شارلوك حوله، التقت الضفة بالمياه بشكل حاد حيث كان شارلوك يقف مع كاميرون. وبدت له نباتات تنمو من مياه الضفة، بعضها كان يشبه الأرز البري، وبعضها كان شبيهاً بالقصب. كما شاهد بتلات ورود تطفو على سطح المياه. وعندما دقق شارلوك النظر، استطاع رؤية جذور الورد الداعمة أسفل المياه.

كان المنظر جميلاً؛ لأن الشمس منخفضة، والضباب يكسو تلال الضفة الأخرى. كان من الصعب أن يتوافق جمال النهر مع ما سيحصل بعد قليل. في مكان ما في النهر، كان هناك سفينة أميركية تقل مئات البحارة. وإذا حصل الانفجار، فمن المرجح أن يُزهق أرواحاً. ولن يكون ذلك إلا بداية الأمر، فالحكومة الأميركية ستُرسل القوات البحرية التي ستحاصر الموانئ الصينية، وسيُرسل الإمبراطور الصيني سفنه للدفاع عن تخوم بلاده، وستنشب الحرب.

وذلك لكي يجني بعض رجال الأعمال الأموال، ويستوردوا موادهم الأولية بأسعار منخفضة، ويصدروها برسوم جمركية منخفضة.

لم يكن شارلوك قد فكر بمستقبله عندما سيعود إلى إنكلترا؛ هذا إن عاد. إذ لم تكن هناك وظيفة يطمح لتوليها، ولكنه لم يكن يرغب بالعمل لصالح الحكومة مثل أخيه؛ فهو لم يكن يتمتع بالموصفات الدبلوماسية، وكان لديه خيار بأن يباشر مشروعه الخاص. ولكن، عندما رأى جشع التجار الذين قد يتسببون بحرب من أجل جني الأرباح وعد نفسه أن لا يعمل مع شركة. وهذا ما لم يترك له الكثير من الخيارات.

بدوره، كانت لدى كاميرون أفكاره المظلمة عن يو أس أس موناكسي. نظر كاميرون إلى عيني شارلوك وقال: "يجب أن نحاول اللحاق بموناكسي بواسطة قارب، ويجب أن نقابل القبطان براين الذي أعتقد أنه سيتعرف علينا، وعلى الأرجح سيستمع إلينا وسيترك لنا فرصة إقناعه بوجهة نظرنا".

أشار هو فانغ إلى صديقيه من مكانه على الرصيف، فسارا على الرصيف متجهين نحوه. وعندما وصلا قام هو فانغ بي بتعريفهما على خاله وابنيه، وقال لهما: "لقد أذن لنا خالي باستخدام أحد قواربه للقيام برحلة في أعلى النهر، ولكنه يريد أن يتأكد من أننا نعرف كيفية تحريك الأشرعة ورفعها وخفضها".

نظر شارلوك إلى أقرب قارب، وتخيل الحبال العديدة التي كانت مربوطة بالسفينة، وما إن وطئت قدماه القارب حتى قام برفع الشراع وتخفيضه بدقة؛ مستفيداً من خبرته على متن غلوريا سكوت. أوماً خال هو فانغ موافقاً وقال: "عمل جيد". فسأله شارلوك: "ما هي وجهة الهواء اليوم".

فأجابه خال هو فانغ يو: "نحو الأعلى".

هنا سأله شارلوك: "هل رأيت سفينة كبيرة مزودة بعجلات عند الجانبين وهي تعبر النهر؟".

أوماً خال هو فانغ يي وقال: "كم كانت غريبة تلك السفينة! كانت مدختها محطمة، ولم يسبق لي رؤية أي شيء من هذا القبيل، لقد قال البعض إن الأرواح الشريرة تتحكم بها". وأنهى كلامه مبتسماً. قال شارلوك: "هذه السفينة تتحرك بقوة دفع من محركات بخارية". عندها، نظر الرجال الصينيون الثلاثة إلى بعضهم بعضاً. وتابع شارلوك سائلاً: "كم مضى من وقت على رؤيتكم إياها؟". فأجابه خال هو فانغ يي بعد أن فكر قليلاً: "ثلاث ساعات، أو ربما أربع".

عندها، أطلق شارلوك شتيمة مكتومة، فموناكسي قد انطلقت منذ وقت طويل.

وفكر بالرسائل التي فك شيفرتها هو وكامبيرون وسأل الخال: "أتعرف مكاناً يدعى سنيك بايت هل". نظر الخال نحو ولديه، وتخاطبوا بصوت منخفض، قبل أن يتكلم الخال مجدداً ويقول: "المكان الوحيد الذي يمكننا أن نفكر فيه هو بالقرب من هو ووشان، وهو يقع على بعد ثلاثين ميلاً في الطريق صعوداً إلى أعلى النهر".

شكره شارلوك، ونظر إلى كامبيرون وهو فانغ يي، ثم قال بصوت منخفض: "هذا هو المكان الذي يفترض بنا الوصول إليه؛ فهناك سيحصل التفجير".

بعد خمس دقائق، كانوا قد رفعوا الشراع وباشروا الإبحار. كان النسيم يبعدهم عن الرصيف ويدفعهم نحو المياه الدافقة. تولى شارلوك أمر الشراع، واستلم كامبيرون الدفة، بينما جلس هو فانغ يي في الأمام مراقباً إن كانت هناك أي عوائق في المياه يمكنها أن تعترض طريقهم.

لم يستغرق السير في وسط النهر الكثير من الوقت، وقد تولى كامبيرون توجيههم إلى الاتجاه الذي يجب أن يسلكوه من وراء الدفة. ساروا بسرعة جيدة. لم تكن هناك قوانين تنظم الملاحة في النهر، وكان البحارة يتجرون على الطلب من القوارب الأخرى إفساح الطريق لهم.

وعندما حل الظلام، سقط شيء ما في المياه وأطلق رذاذاً بالقرب من هيكل قاربهم. سار شارلوك على سطح القارب محاولاً معرفة ذلك الشيء الذي سقط وأطلق رذاذ المياه. وتحت ضوء القمر، تمكن من مشاهدة سمكة تنظر إليه، وبدت عيناها كعيني البشر. كان جلد السمكة رمادياً، وفمها طويلاً ورفيعاً. وقد بدا الفم شبيهاً بالمنقار. ويزدحم بأسنان صغيرة ولكنها حادة. وكان الفم مدوراً، وكأنه يشبه ابتسامة. كانت السمكة تطفو

بالمياه وتحقق إليه. وبسرعة، تذكر شارلوك السمكة التي كان يراها في المحيط من جانب غلوريا سكوت، والتي أخبره أحدهم أنها تدعى دلفين، هل هذه السمكة دلفين أيضاً؟ لقد اختفت السمكة مجدداً ما إن لطمت بذيلها العريض سطح المياه.

سأل شارلوك هو فانغ يي الذي كان ينظر مثله ولكن من مقدمة المركب: "ما هذه؟".

فأجابه: "إننا ندعوها سمكة النهر، وظهورها يعني فائلاً حسناً. لذا، يجب أن تعتبر نفسك محظوظاً". فأجابه شارلوك: "سأحاول".

لاحظ شارلوك أنه عندما تكون في المياه تتحرك الأصوات بشكل مختلف، فكل ثانية كان يسمع أصواتاً تقول له اسمع يا غبي أو انتبه، وكان يتوقع أن تكون سفينة ما أو قارب بالقرب منه، ولكنه كان يتفاجأ حين يرى أن القارب على بعد مئة ياردة وأنه يتكلم مع قارب بمحاذاته. فجأة، اصطدم القارب بشيء ما محدثاً اهتزازاً، ومعيداً الانتباه لشارلوك.

وسمع صوت شخص صيني يقول: "لتنزل اللعنة على أسلافك أيها الغبي الكسول". كانوا قد اصطدموا بقارب آخر تعود ملكيته لرجل عجوز كان الشيب قد ملأ رأسه، وكان ينظر إلى كاميرون ويشتمه. أمسك شارلوك بالعصا التي كانت على متن قاربهم، وعمل على دفع القاربين بعيداً عن بعضهما، وقد علت وجهه ابتسامة اعتذار.

سأل شارلوك بينما كان المركب الذي اصطدموا به يتعد: "ما الأمر؟ ماذا حدث؟". وكان مالك القارب الآخر يشير بيده نحوهم.

قال كاميرون وقد بدا عليه الدوار: "أنا آسف، يبدو أنني غفوت لثانية".

عندها، قال هو فانغ يي: "انتبها، لقد كان نهراً طويلاً، وقد حدثت معنا أمور كثيرة، وإذا لم نتوخ الحذر فسنعرض لحادث آخر". فرد عليه شارلوك قائلاً: "ولكن، يجب علينا المتابعة واللاحق بموناكسي قبل أن تنفجر". هنا تدخل كاميرون قائلاً: "ولكن، إذا تابعنا واصطدمنا بأي شيء فبهذا لن نكون قد قمنا بأي شيء جيد لأي كان، ويجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن موناكسي من الممكن أن تنزل المرساة وترسو كي لا تصطدم بسفينة أخرى في الظلام. وإذا توقفت موناكسي واستمرنا بالملاحة فمن الممكن أن نمر بالقرب منها ولا نراها وتفوتنا فرصة تنبيهها".

توجب على شارلوك الاعتراف أن منطقهما لم يكن قابلاً لدحض، كما أنه هو نفسه كان مرهقاً. حينها قال شارلوك: "حسناً، فلنتوقف قليلاً،

ولنرس بالمركب على الضفة، لننام، ولكن يجب علينا الإبحار مجدداً عند الفجر". عندها، هز كاميون وهو فانغ يي برأسيهما وقالوا: "نحن موافقان". عندها، توجه كاميون إلى الدفة، وقام بمناورة كي يوجه المركب نحو الضفة، وفي الوقت عينه عمد شارلوك إلى إنزال الشراع. ونتيجة تظافر جهودهم، تمكنون من إرساء المركب بسلام، وقفز شارلوك نحو الضفة، ممسكاً بحبل ربطه إلى جذع شجرة، ونظر في الظلام إلى النهر، ورأى مركباً يمتلك ضوءين أحدهما أخضر والآخر أصفر. كان المركب يقترب من مركبهما، وأدرك شارلوك أن ربان ذلك المركب قرر أن يُرسي مركبه حتى الصباح. قفز شارلوك إلى داخل المركب مجدداً، وأحس به يهتز تحت وطأة ثقله، بينما كان كاميون يجلب البطانيات من صندوق موضوع في الجزء الخلفي من المركب، وقام هو فانغ بفتح حزمة وأخرج منها أشياء شبيهة بأوراق اللوتس؛ عندها سأله شارلوك: "ما هذا؟". فأجابه: "إنه طعام. كان خالي قد أخبرني أنه ترك طعاماً لكي يستعمله لاحقاً، ولكنه وجد أننا بحاجة إليه". عندها، فتح كاميون لفافة اللوتس، ووجد بداخلها أرزاً دبقاً و"قريدس" وتناول لقمة منها بواسطة أصابعه وقال: "كم هي لذيذة".

تذوق شارلوك الطعام ووجده لذيذاً؛ بالرغم من أن الأرز كان بارداً وحباته ملتصقة ببعضها بعضاً، وزادت نكهة القريدس المألحة من لذة الأرز. بعد أن فرغوا من تناول الطعام، قاموا بغسل أيديهم بمياه النهر، واستعدوا للنوم بأن غطوا أنفسهم بالبطانيات. عندها، أحس شارلوك بمقدار تعب. إلا أن صوتاً صادراً من كاميون قطع صمت الليل؛ إذ قال: "ألا يفترض بناءً أن نطلق اسماً على هذا المركب؟ فنحن نقوم بمهمة موقرة وجلييلة ويجب أن يطلق اسم على المركب الذي يقوم بمثل هذه المهمات العظيمة".

عندها قال هو فانغ يي: "إنني موافق على إطلاق اسم على مركبنا في مراسم رسمية؛ بالرغم من أنني على يقين من أن خالي أطلق مسبقاً اسماً على هذا المركب". عندها تبرع كاميون بتسمية المركب قائلاً: "ما رأيكما باسم هيدسون؛ تيمناً بذلك النهر العظيم". فرد عليه شارلوك: "لم لا نطلق عليه اسم فرجينيا؟". لم يعلق أحد على الموضوع. وما لبث أن سمع شخير كاميون فأدرك أن الكلمة الأخيرة في ما يتعلق بتسمية المركب كانت له. استلقى، إلا أنه سمع صوت خبط في المياه ففكر: أيمكن أن تكون إحدى السمكات التي تجلب حسن الطالع التي أخبره عنها هو فانغ يي، ورفع رأسه ليستكشف الأمر، ولكنه غير رأيه؛ فهو لا يعرف شيئاً عن البيئة البرية للمنطقة، كما أنه برفقة فتى من المنطقة، ولو كان هناك أمر

يستحق التنبيه لكان هو فانغ يي قد نبههما إليه. لم يسبق له أن وثق بأحد؛ خصوصاً مع تحذيرات مايكروفت الدائمة له بعدم جواز الوثوق بأحد. كان على الدوام يعتقد أنه يعلم أكثر من الآخرين. ولكن هنا، وفي هذه البيئة الغريبة عليه، لم يكن أمامه خيار سوى تسليم أمره لهو فانغ يي. لم يكن من الجيد بالنسبة إلى شارلوك أن يغط في النوم وهو يفكر بأنه يسلم أمره إلى هو فانغ يي، لذا أخذ ينظر إلى النجوم التي تزين السماء، وممرت مجموعة من السحب مدفوعة برياح حارة قبل أن تعود السماء صافية. عندها، حاول أن يميز أي مجموعات من النجوم يعرفها، وتساءل إن كانت فرجينيا تنظر إلى النجوم مثله الآن، ولكنه أدرك أن هذا الأمر محال. فقد كانت قابعة في النصف الآخر من الكرة الأرضية، والسماء فوق رأسها زرقاء تنيرها الشمس بعكس السماء فوق رأسه التي تنيرها النجوم. في النهاية، غط بالنوم من دون أن يدري، وكانت أحلامه غير مترابطة، وكان ماتي جزءاً من أحلامه تلك، وكذلك أميوس غروي. وكانا يقومان بتشجيعه بينما كان يشارك بسباق ما.

المشكلة أن شارلوك لم يكن يعرف السباق الذي يشارك فيه أو الجهة التي يجب عليه أن يركض فيها، ولكنه استيقظ فجأة من دون أن يدري السبب؛ أهو شخير كاميرون أو كلام هو فانغ يي؟

ولكنه سمع صوت احتكاك بالقرب؛ ربما هو صوت رجل أو يد شخص ما يحاول التسلق إلى المركب.

اهتز المركب ببطء، ولكن أياً يكن المتسلق فهو غبي. أيمن أن يكون المتسلق لصاً أو قرصاناً؟ أم إنهم محليون يحاولون استكشاف مدى قدرتهم على سلب الفتيان الثلاثة مالا أو طعاماً؟ أم إنه حيوان يحاول تسلق القارب أو أفعى؟ ذهب خياله بعيداً، وبينما هو يرسم صوراً لأشياء غريبة في ذهنه، أحس أن هناك شيئاً يصعد، وحاول أن يأخذ نفساً عميقاً حيث يبدو وكأنه نائم بعمق، وتمكن من رؤية يحدق إليه بعينين كأنهما جمرتان. أخيراً، بدا صوت المتسلل وكأنه يبتعد. عندها، تثنأب بصوت مرتفع واستدار، وأبقى عينيه في غاية التيقظ. عم الصمت للحظات، قبل أن يعاود المتسلل التحرك مجدداً. عندها، فتح شارلوك عينيه، وبدا كل شيء داكناً ومشوشاً. ولكن بعد ذلك، تمكن من رؤية بعض الأشياء: الصارية والدفة والصندوق في مؤخر السفينة.

بالإضافة إلى كائن لم يكن على متن السفينة عندما نام، شيء يشبه الإنسان ولكنه أصغر حجماً. استطاع شارلوك أن يميز رأساً صغيراً وكتفين،

وكان ظله فوق كامبيرون. انتصب في جلسته وصرخ: "هيه".
أياً يكن هذا الكائن التفت لينظر إليه. في تلك الأثناء، ابتعدت
الغيوم من أمام القمر، وكأن أحدهم جعل الضوء يشع على القارب. كان
ذلك الشيء ولداً أصغر منهم سناً. لا، لم يكن ولداً بل فتاة، وكانت ترفع
شيئاً فوق حنجرة كامبيرون.

الفصل الثالث عشر

حدق شارلوك بالفتاة مندهشاً، وبدورها حدقت إليه بعينين تمانان عن مشاعر متناقضة لم يستطع شارلوك أن يميزها. كان لون بشرتها رمادياً، وشعرها وعيناها باللون نفسه، أما قدمها فكانتا رفيعتين مثل عصوين. وبدا جسدها هزيلاً، وثيابها بلون بشرتها. بدت مثل تمثال صغير يقف مستعداً للجري. حركة عينيها وهي تستكشف طريقها للهرب كانت الشيء الوحيد الذي يدل على أنها كائن حي.

انتقل انتباه شارلوك نحو الأداة التي تحملها الفتاة. كانت أداة معدنية شبيهة بالفم وتمتلك أسناناً ولثة، وكانت شبيهة بلون بشرتها. وتمكن شارلوك أيضاً من رؤية شيء أحمر مطاطي قابع خلف الأسنان وتحيط به النوابض. عينا الفتاة نظرتا إلى اتجاه واحد؛ نحو كاميرون. عندها، أدرك ما كانت تنوي القيام به، فصرخ قائلاً: "تراجع إلى الخلف". عندها، رمى كاميرون نفسه إلى الخلف، وفي الوقت عينه دفعت الفتاة بتلك الأداة التي تشبه الفم نحوه. وكانت الأداة على بعد أملة من وريد كاميرون.

فجأة، ظهر هو فانغ يي من الخلف، وبدا وكأنه استيقظ من كابوس مزعج، وحاول الإمساك بها، إلا أنها دفعته، وكررت هجومها على كاميرون وهي تفتح ذراعيها، فما كان من كاميرون إلا أن تراجع. في تلك الأثناء، استيقظ شارلوك من الصدمة التي ألمت به، واندفع نحو الفتاة، وأمسك بها من خصرها، وجذبها نحوه، محاولاً إعاقة تقدمها نحو كاميرون، فما كان منها إلا أن استدارت ولطمته على وجهه، وركلته بقدمها العارية. لوهلة، لم يدرك شارلوك ما الذي اصطدم بساقه، ولكنه عندما رأى أصابع قدميها ذات الأظافر المستدقة الشبيهة بمخالب الضواري، أدرك أنه أمام فتاة لا تشبه أي فتاة سبق له أن شاهدها. تمكنت الفتاة من الإفلات منه، وابتعدت عنه بحركة جعلتها تبدو وكأنها تتدحرج على الأرض. مدت لسانها وتلمست به شفثيها، وقد دهش شارلوك عندما شاهد لونه الأسود بدل أن يكون زهرياً. بدا لسانها مقرفاً كلسان حيوان، ورخوياً.

توجه شارلوك بهدف التقاط الشيء الذي رمته الفتاة، كان شيئاً معدنياً حاد الأطراف. في تلك الأثناء، نظرت الفتاة إلى يده ثم إلى وجهه، قبل أن تهجم عليه.

ألقي شارلوك الأداة إلى هو فانغ يي، وقال له: "أبعد هذا الشيء من هنا". في تلك الأثناء، كانت أصابع الفتاة تتجه نحو وجهه، وبالكد تمكن

من الإمساك بمعصمها، والإبقاء على أظافرها الحادة التي تشبه المخالب وتلمع كالإبر على بعد إنش من وجهه. أدرك شارلوك أنها لو تمكنت من إنشابه مخالبتها في وجهه لمزقته إرباً.

حدق إلى عينيها بعمق في لحظة توقف العراك، وحاول أن يبحث عن شيء إنساني في مظهر هذه الفتاة، إلا أنه لم يستطع أن يجد ما يدل على الإنسانية والأحاسيس فيها سوى شعرها، والإطار العام لجسدها الأنثوي. فجأة، دفعت بوزنها إلى الخلف وليس إلى الأمام، ونتيجة هذه الحركة غير المتوقعة، وجد شارلوك نفسه منقاداً نحوها، فرفعت قدمها ووضعتها على بطنه، وأحس بأظافرها تمشط جلد بطنه كمذراة المزارع. في هذه الأثناء، لامس ظهر الفتاة أرض المركب بالكامل، وعملت قدمها على رفع شارلوك في الهواء. وما إن أصبح في الهواء بالكامل، حتى قامت الفتاة بتحرير يديه فحلق خارج المركب، وسقط في مياه النهر. ونتيجة سقوطه بالمياه، شعر وكأن رثيته قد تخلصت من كل الهواء الذي بداخلها، غمرته المياه، وتمكن من تذوق طعم مياه النهر الموحلة، وشعر بذرات الرمل الخشنة تحت أسنانه. حاول يائساً الخروج من المياه، لكنه نتيجة الظلام وهول الصدمة فقد قدرته على تحديد الاتجاه الصحيح الذي يجب عليه أن يسلكه، وقد لعبت الطحالب اللزجة دوراً في الحيلولة دون صعوده بيسر من المياه. ولما كانت كمية الهواء في رثيته توشك على النفاد، حاول بيأس الإفلات من قبضة الطحالب التي كانت تشل حركة قدميه. فجأة، ومن دون قصد، ارتطمت قدماه بصخرة في قاع النهر، وكان لهذا الارتطام أثر إيجابي عليه، حيث زوده بقوة دفع مكنته من الصعود بسرعة إلى سطح المياه، وإعادة ملء رثيته بالهواء.

لفترة، لم يكن قادراً على سماع أي صوت سوى صوت مياه النهر المتدفقة، وأصوات عميقة تصرخ باسمه شارلوك شارلوك، كما سمع بعد ذلك أصوات الاحتجاج من بحارة المراكب الأخرى الذين كانوا يطلبون الهدوء.

فجأة، ارتطم شيء ما بسطح المياه. وللهولة الأولى، ظن شارلوك أن الفتاة لاحقته إلى المياه، ولكنه لاحظ أن هذا الشيء لم يكن سوى عصا ألقاها هو فانغ يي نحوه كي يتمسك بها.

أمسك شارلوك بالعصا، بينما قام هو فانغ يي بسحبه نحو القارب. كانت يدها واهنتين، ولم يتمكن من الصعود إلى سطح المركب، لذا طلب من كاميرون وهو فانغ يي أن يرفعه، ولما وصل إلى سطح المركب كان

الثلاثة مبللين بالمياه.

عندها، سأل كاميرون: "ما الذي حدث؟ ومع من كنت تتعارك؟".
أجابه شارلوك لاهثاً: "مع فتاة".
علّق كاميرون وهو يرفع حاجبيه: "لم يسبق لي أن تعاملت مع فتاة،
أجميعهن هكذا؟".

عندها، حدق إليه كل من شارلوك وهو فانغ يي وهما يضحكان.
وما لبث شارلوك أن سأل عن الفتاة قائلاً: "أين هي؟".
أجابه هو فانغ يي: "عندما كنت في المياه أخذت تنظر إلينا بالتناوب،
وعندما رأتك تصعد من المياه، تراجع وتقفزت نحو الضفة، وأخذت تعدو".
عندها، قال شارلوك: "أظن أننا التقينا الكائن الذي اقتحم منزليكما
وقتل والديكما".

عندها قال هو فانغ يي وقد بدا عليه عدم التصديق: "فتاة تقتحم
وتقتل! لماذا قامت بما قامت به؟".
أجابه شارلوك: "أشك في أنها كانت تقوم بذلك من تلقاء ذاتها. ربما
كانت أداة تنفيذية".

عندها قال كاميرون: "في الحقيقة، بالكاد رأيتها، ولكن مما أتذكره من
مظهرها، أعتقد أنها تذكرني بشخص ما".
عندئذ قال شارلوك بإحباط: "لقد خطر لي الأمر عينه. إنها تشبه
السيد أرينيوس".

سأل هو فانغ يي: "تشبه من؟".
أجابه شارلوك: "السيد أرينيوس هو أحد الركاب على متن غلوريا
سكوت، وكانت بشرته فضية اللون بسبب تناوله غبار الفضة التي يعتقد
أنها تمتلك خصائص تحميه من التقاط عدوى الأمراض". عبس شارلوك وتابع:
"أعتقد أنها ابنته، فمن الصعب والنادر أن تجد شخصين يمتلكان هذه
البشرة من دون أن تكون هناك علاقة قرابة تجمعهما. أعتقد أنه كان
يحتفظ بها في صندوق من صناديق متاعه على متن غلوريا سكوت، فقد
كان أحد تلك الصناديق يحتوي على فجوات تتيح للهواء الدخول عبرها.
ولكن، أتتصور أن يقدم أب على وضع ابنته في صندوق؟!".

بدوره، أدلى كاميرون بدلوه بالموضوع وقال: "هل لاحظتما عينيها، بدت
وكأنها بعيدة كل البعد عن الإنسان؛ شكلاً ومضموناً".
هز شارلوك رأسه وقال: "لم أستطع أن أرى في عينيها سوى ذكاء
متقد. ولكن، أنت محق. لم تكن عيناها عيني إنسان عادي".

عندها، سأل هو فانغ يي: "أتعتقدان أنها ولدت على هذا الشكل؟". فقال شارلوك: "إن كان قد باشر بتناول الفضة قبل مولدها فربما أثر ذلك في جيناتها. لقد قرأت ذات مرة أن الأشخاص المدمنين- وخاصة النساء- يتسببون بتشوهات جينية نتيجة تعاطيهم لمواد قبل وأثناء الحمل". عندها قال كامرون ببراءة الطفل الأميركي: "إنني أتساءل: هل أمها لا تزال على قيد الحياة؟".

كان سؤال كامرون كافياً لكي يعم الصمت عليهم لدقائق. كسر هو فانغ يي جدار الصمت وقال: "ما كان ذلك الشيء الذي كانت تحمله بيدها؟". فقال شارلوك: "لا أعلم. أنت كنت آخر شخص حمله، ماذا فعلت به؟".

أجابه هو فانغ يي: "أعتقد أنني رميته في مكان آمن". عندها، تحرك هو فانغ يي نحو وسط المركب وقال: "أعتقد أنني رميته هنا".

اختفى هو فانغ يي لدقيقة، وعندما عاد كان يحمل شيئاً معدنياً بيده وقال: "هذا هو". وسلمه لشارلوك.

تفحص شارلوك ذلك الشيء المعدني، بينما كان كل من هو فانغ يي وكامرون يحدقان إليه. كان عبارة عن فم معدني، ولكنه لم يكن فم إنسان فقد كان أصغر وأرفع ومستديماً أكثر من الأمام، ويحتوي على نابين طويلين ورفعين أحدهما مكسور. أدرك شارلوك أنه سبق له أن شاهد الجزء المكسور من الناب أمام غرفة السيد أرينوس على متن غلوريا سكوت. وكان خلف النابين شيء مطاطي تحيط به نوابض وما إن ضغط عليه حتى خرجت نقاط بيضاء من فجوات بالغة الدقة في النابين. عندها سأله هو فانغ يي: "ماذا تظن هذا الشيء؟".

فأجابه: "إنه سم. لا تلمسه". وتابع "هذا الشيء عبارة عن جمجمة معدنية لرأس أفعى، ويستخدم لحقن السم في أجساد الناس. بوجود شيء كهذا لسنا بحاجة لأفعى للذغ. وأظن أن هذا الشيء هو الذي استخدم لقتل والديكما".

عندها، شهق كامرون وقال: "هل قتلت فتاة أصغر سنّاً مني والدي؟". فقال شارلوك: "إذا كانت هناك رابطة أبوة بينها وبين أرينوس كما نظن، عندها يمكننا أن نقول إن الفضة التي كان يستهلكها قد أثرت فيها، وقضت على مشاعرها، وحوالتها إلى الفتاة التي رأيناها، إنها لا تعدو عن

كونها أداة تنفيذية بيده".

عندها، سأله هو فانغ يي: "ما الذي سيحدث الآن؟ أظن أنها ستعود إلينا؟".

هز شارلوك كتفيه وقال: "من يعرف؟". واستغرق بالتفكير لبرهة وقال متابعاً: "إنني أتذكر أننا عندما رسونا بالمركب عند ضفة النهر لاحظت مركباً يملك مصباحين كان خلفنا. ربما أتت على متن ذلك المركب. ويمكنني وضع أحد احتمالين؛ إما أن أرينيوس يبحر بالمركب بقصد الوصول إلينا وتصفيتنا، أو يحاول أن يسبقنا ويصل إلى السفينة المراد تفجيرها قبلنا".

نظر شارلوك نحو هو فانغ وكامرون وقال: "أظن أنه من الأفضل أن نذهب ونلقي نظرة في الجوار، فهناك احتمال في أن يكون استنتاجي محض صدفة، وأن يكون المركب الذي شاهدته مجرد مركب عابر".
عندها قال له: "هذا ممكن جداً".

فقال لهما شارلوك: "لقد أوشك الفجر على البزوغ. باشرا بتحضير المركب للملاحة، وسأقوم بجولة استطلاعية في الجوار".

أجابه كامرون: "حسناً. ولكن، لا تتأخر في جولتك لأكثر من نصف ساعة، إذ يجب علينا اللحاق بموناكسي، وإن تأخرت فسنضطر للانطلاق من دونك، ما من خيار آخر لدينا".

أجابه شارلوك: "حسناً".

نظر شارلوك إلى الجمجمة ذات الفم المعدني التي كان يحملها، وفكر أنه لا بد من وجود زر أمان يبقي هذا الشيء آمناً عندما لا يريد مالكة استعماله. وضع شارلوك الفم في جيبه وقال: "سأعود قريباً".

قفز شارلوك من حافة المركب، وأحس بقدميه تغوران في رمال الضفة الناعمة. سار بخط متعرج إلى حيث ذهبت الفتاة. توجه شارلوك إلى حيث رسا مركب يملك مصباحين أحدهما أخضر والآخر أصفر. تحرك شيء ما أمامه بين الأعشاب، فشعر بضربات قلبه تزداد سرعة، وبالكاد استطاع التنفس. أكانت الفتاة تستعد لمهاجمته مجدداً؟ على بعد عدة أقدام كان هناك رأس مغطى بالشعر، إنه خنزير بري، وكان يحدق إليه بعينين خرزيتين. تراجع الحيوان. لم يكن هذا الحيوان يريد شراً بشارلوك، بل كان يدافع عن منطقته في وجه شارلوك المتطفل، وربما كان يسعى لحماية صغاره. وقد تعلم شارلوك درساً مهماً من هذا الحيوان؛ فإذا بدوت غير خائف، فلن يظن الآخرون أنك خائف أو أنك ستخاف منهم.

تقدم شارلوك عبر الأعشاب قاصداً المركب الأقرب، وكان يشبه قاربهم،

ولم يكن مصباحاه مضامين، وبالتالي لم يكن لديه أي إثبات أنه المركب الذي يبحث عنه، فتابع تقدمه مستظلاً بالأعشاب، ورأى شخصاً ما يتحرك على سطح المركب. إنه أرينيوس، فقد بدت بشرته لامعة تحت نور القمر. فجأة، أطلق صافرة، وما لبث شيء أن قفز نحوه وأخذ ينط؛ إنها الفتاة، وبدت بشرتها لامعة مثل بشرته. عندها سألتها: "هل نفذت المهمة بنجاح؟". بالكاد كاد صوته مسموعاً.

لم ترد الفتاة.

فسألها أرينيوس: "ما الأمر؟ ألم تجدي أولئك الفتيان؟".

أشاحت بنظرها بعيداً.

عندها قال لها: "لم تتمكني من النيل من ثلاثة فتيان! يا للعار، وتملكين الجرأة للعودة وأنت تجرين أذيال الخيبة والفشل؟!".

جثت على الأرض بخنوع، وهذا ما فاجأ شارلوك. فبالرغم من معرفته البسيطة بها، بدت نقيض الفتاة الشرسة المتوحشة التي تعارك معها. نظر أرينيوس إلى الفتاة وهي تضع يديها على ركبتها وسألها: "أين الأداة؟ هل فقدتها وتركتها في مكان يستطيعون العثور عليها فيه؟".

تقدم أرينيوس نحوها، وكان هناك شيء يلمع في عينيها؛ إنها الدموع. لم تكن تريد النظر إليه، ولكنه رفع رأسها نحوه وقال: "كم هذا مؤسف، بالرغم مما فعلته لك طوال الوقت منذ رحيل أمك، ها أنت تبادليني المعروف بالفشل. لو تمكنت من قتل مالكوم في الوقت المناسب لما كنا في هذه الورطة الآن، ولما كنا مضطرين لسرقة رسالته للحاكم. وكان يفترض بي أن أكون الآن في مكان التفجير أستعد لإعطاء الإشارة. بسببك يجب علي التحرك بأقصى سرعة إلى المكان بهذه الطريقة غير اللائقة". وضغط على فمها بشدة.

فجأة، أحس شارلوك بأن الأرض التي كان يقف عليها تتحرك.

الفصل الرابع عشر

سقط شارلوك إلى الخلف مصدوماً عندما رفع الكائن نفسه من حيث كان مختفياً في وحول ضفة النهر مظهراً قوائمه الأربع التي تنتهي بمخالب وحشية.

بدأت عيناه صغيرتين ومشقوقتين، وهدق إلى شارلوك بنظرة خالية من المشاعر، فبدأت عيناه وكأنهما مصنوعتان من حجر. خلف قائمته الخلفيتين ظهر ذيل طويل مسطح يبلغ طوله نصف طول الكائن، وغطت حواف حادة كالشفرات جانبي ذيله. كان ذلك الكائن نوعاً من الزواحف، وكان جلده كثير الشقوق العميقة، أما رأسه فكان مسطحاً كالرفش. وانبتق منخران من أعلى رأسه يتيحان له التنفس وهو مستلقٍ في المياه. استنتج شارلوك أن الكائن الزاحف صياد يستطيع الانتظار مستلقياً ومختفياً حتى يحظى بفريسة. من طرف خطمه وحتى نهاية ذيله بدأ بحجم شارلوك، ولكن، بدأت كتلته العضلية أكبر.

كل هذه التفاصيل ملحها شارلوك في جزء من الثانية التي استغرقها استخدام الكائن لذيله كي يندفع باتجاهه. مدّ شارلوك ذراعيه في محاولة منه لالتقاطه وهو في منتصف الطريق إليه في الهواء، وتمكنت يده من القبض على خطمه، مما أبقى فمه مغلقاً. ولكن بالرغم من ذلك، كانت نصف أسنانه لا تزال خارج فمه، وكانت الأسنان تتجه باتجاهات مختلفة. وتمكن من سماع هسيس يخرج من منخريه ومن شم رائحة أنفاسه التي كانت تعبق برائحة الأسماك واللحوم المتعفنة. وتمكنت مخالب قائمته الأماميتين من تمزيق صدر شارلوك؛ حيث أخذ الدم يتدفق، بينما كانت مخالب قائمته الخلفيتين تخدش الأرض. وضرب ذيله الوحل مجدداً في محاولة منه للتقدم أكثر نحو شارلوك، فمست الحواف الحادة الموجودة على جانبي ذيله ساقى شارلوك ممزقة اللحم، ومخلقة وراءها خطوطاً مزعجة وحرقة.

تلوى شارلوك، ودفع الكائن حتى أصبح أسفله. كانت يده لا تزالان تغلقان فمه. ناور شارلوك بجسده حتى تمكن من وضع إحدى ركبتيه على خطمه مبقياً بذلك فمه مغلقاً. عندها، تلوى الكائن أسفله، ولكن بدأ واضحاً أن ما بيده حيلة.

نظر إلى الأسفل نحو المركب وهو يشعر بالهلع. كان أرينوس وابنته يحدقان إلى أعلى الضفة، وبدأ بوضوح أنهما يسمعان العراك، ولكنهما لم

يريا شيئاً. كان شيئاً لا يصدق أن الكائن لم يصدر أي صوت سوى هسيس أنفاسه عبر منخريه. فأى حيوان آخر كان سينبح أو يصرخ أو يقوم بأي شيء آخر، ولكن هذا الكائن أياً يكن بدا وكأنه عاجز، أو لا نية لديه بإصدار أي ضجيج وهو يقاتل.

وفي حركة سريعة، استجمع شارلوك كل قواه، وسدد ضربة مباشرة على الجزء الخلفي من عنق الكائن، فتحرك الكائن أسفله مرة واحدة ثم همد. في لحظة نصر ظن، شارلوك أنه قتله، ولكنه شعر بعد ذلك بحركة ناتجة عن تنفسه. لا بد أنه شعر بدوار من جراء الضربة، أو ربما يتظاهر بالموت بانتظار أن يفلته شارلوك فينقض عليه مجدداً.

قال أرينيوس مخاطباً ابنته: "أذهبي واكتشفي ما سبب هذه الضجة". علا صوته من الأسفل. "إن كان أحد المراهقين فاقتليه، ثم عودي وخذي محقنة السم".

ركضت الفتاة من طرف المركب. كانت تتحرك مثل الحيوان ذي القوائم الأربع؛ فقد كانت يداها وقدمها تحتكان بالأرض. قفزت، وعندما وصلت إلى الضفة ركضت على قدميها مستخدمة يديها لتبعد الخيزران. بدت يائسة وتسعى لإثبات نفسها. لمن؟ لوالدها.

نظر شارلوك إلى الفتاة التي تتقدم منه، وإلى الكائن الذي يثبته في الأسفل. لم يكن يعلم أي تصرف هو الأفضل بالنسبة إليه وكيف يمكنه الهرب.

سمع صوت القصب الذي تمر عبره الفتاة. ستصل إليه في غضون لحظات، وهي تستطيع تمزيق حنجرته بواسطة أظافر أصابعها؛ وإن كانت لا تحمل المحقنة. فهي لم تظهر شفقة أكثر مما أظهرت عينا الكائن الذي يجثو عليه. ولكن، إن أفلت الكائن كي يدافع عن نفسه من هجوم، فمن المرجح أن يهاجمه الكائن مجدداً. كما أنه لا يستطيع تثبيته بيد واحدة، وبالتالي لن يستطيع إخراج محقنته من جيبه.

عندها، تردد صدى كلمات أستاذه أميوس غروي في رأسه عندما كان يقول له: "إن منحتك الحياة الحامض فاصنع الليموناضة، واستخدم كل ما هو متاح بين يديك لمصلحتك؛ فالأشياء التي قد تبدو مشكلة يمكن أن تستخدم لحل مشاكل أخرى".

وبينما كان لا يزال يحكم قبضته على خطم الزاحف، مرر يده الأخرى تحت الزاحف، وأمسك بإحكام إحدى قوائمه، وعندها أبعد ركبته عن ذيله، وبسرعة انتفض الزاحف. ولكن، قبل أن يتمكن من التملص من

قبضته، استخدم شارلوك كل قوته لرفعه في الهواء، فتلوى الكائن عالياً، ولكن قبضة شارلوك كانت محكمة.

ظهرت الفتاة من بين الخيزران، وكانت مبرزة أسنانها وتمد لسانها الأسود. كانت عيناها اللامعتان مركزتين على شارلوك، بينما كانت تزمجر. في تلك الأثناء، رمى شارلوك بالزاحف نحوها.

وبينما كان الزاحف يبتعد في الهواء، حاول الاستدارة وعض شارلوك، ولكنه كان قد رمى به بشدة مبعداً إياه عنه. ارتطم الزاحف بوجه الفتاة فسقطت أرضاً من هول الصدمة، وحاولت القبض على الزاحف بيديها لاحتواء هجومه، فما كان منه إلا أن حاول عضها، لكنها قبضت على خطمه بإحدى يديها، وخربشته بالأخرى. لم تبدُ الفتاة مما شاهده شارلوك على وجهها خائفة أو متفاجئة، بل كانت مركزة على معركتها مع الخطر الجديد.

اختفى الزاحف والفتاة خلف الخيزران، وسمع صوت نضالهما الذي بدأ يخفت شيئاً فشيئاً وهما يتدحرجان على ضفة النهر باتجاه المياه، ثم سمع صوت طرطشة المياه، قبل أن يعم الصمت. وقف شارلوك محققاً بالنهر، ولم يستطع رؤية أي من الفتاة أو الزاحف، ولكنه رأى أرينيوس الذي كان يستعد للإبحار، والذي استدار وحدق إلى شارلوك، وقال بغبطة: "قمت والزاحف النهري بحل إحدى مشاكلي. لقد كانت مسؤوليتها تثقل كاهلي بدل أن تسدي لي خدمات نافعة".

فصرخ شارلوك عليه: "ما تحاول القيام به حماقة كبرى. ألا تعلم كم من الناس سيموتون من جراء فعلتك؟".

هز أرينيوس كتفيه. وما إن أصبح المركب في النهر حتى قال: "لا أهتم. لقد دُفع لي للقيام بما أقوم به، ورجالي لا يهتمون أيضاً. فبعد كل شيء، هم عمال مناجم حيث يموت الناس يومياً، أو عمال مصانع حيث يستنشق الناس السموم مما يجعل حياتهم أقصر". رفع قبعته عن رأسه وقال لشارلوك: "كنت خصماً مثيراً للاهتمام. إنني واثق أننا لن نلتقي مجدداً".

صرخ شارلوك: "سأوقفك سأوقفك".

عندها، حذره أرينيوس وهو يعيد قبعته إلى رأسه ويتجه ليهتم بأمر الشراع: "احترس من لدغة أفعى".

غطس شارلوك في منحدر النهر مهتاجاً وغازباً. إن تمكن من الوصول إلى أرينيوس، فربما يستطيع إيقافه بطريقة ما والحيلولة دون وصوله، وربما

دون انفجار السفينة. كان أرينيوس قد أخبر الفتاة أنه يريد الوصول إلى المكان الذي سيحصل فيه التفجير- وسيحصل التفجير على الأرجح عندما يصعد الحاكم إلى السفينة- لإعطاء الإشارة. التصق الوحل بقدمي شارلوك، وكاد يقع مرتين بينما كان ينزل، ولكنه كان قد تأخر كثيراً، فقد كان مركب أرينيوس في النهر ويتحرك بسرعة، وكانت نسيمات الصباح تهب من الساحل، وكانت أشعة المركب تلتقطها فيندفع أسرع. ضرب ساقه بقبضته محبطاً؛ فقد كان أرينيوس قريباً جداً وبعيداً جداً في آن معاً.

احتار في أمره للحظة، إلا أنه في النهاية استدار وبدأ يتسلق الضفة مجدداً. وعندما وصل إلى أعلى الضفة، ركض بسرعة إلى حيث ترك كاميرون وهو فانغ يي. لم يكن هناك أثر للفتاة، ولكن إن كانت قد نجت من معركتها مع الزاحف فهي الآن تبحث عن والدها أو عن ملجأ.

حاول شارلوك أن يشعر بالذنب لتعاركه مع الفتاة، ولكنه لم يستطع. لقد كان هناك شيء غير صحيح بالفتاة على نحو فاضح؛ لقد كانت أقرب إلى حيوان من فتاة. وربما كانت حالها ستكون أفضل لو لم تكن مع أرينيوس. كان لدى شارلوك إحساس بأنها ستنجو أياً كانت الظروف.

تساءل عن اسمها، فقد بدت وكأنها شيء تافه. ولكن، كان من الصعب عليه أن يفكر فيها على أنها إنسان من دون أن يعرف سبباً واضحاً لذلك.

استغرقه الأمر دقائق قليلة للوصول إلى المركب. وما إن وصل حتى انزلق على الضفة، وقفز إلى سطح المركب. وكان كاميرون وهو فانغ يي ينتظرانه.

فسأله كاميرون: "ما الذي حصل معك؟".

فرد عليه شارلوك وهو يحبس أنفاسه: "سأخبرك عندما نمضي، ولكننا الآن في سباق مع الزمن. نحتاج الآن إلى الإبحار، ارفع الشراع ولننطلق". قال كاميرون: "تبدو مجروحاً". وهو ينظر إلى الخدوش النازفة على صدر شارلوك ووجهه وساقه.

"سنقلق بشأنها لاحقاً. الآن يجدر بنا التحرك".

ما إن حرر شارلوك المركب حتى ناضل كاميرون مع الشراع ليرفعه، وتولى هو فانغ يي الدفة. أخبرهما شارلوك بقدر ما استطاع المعلومات الهامة وقال: "يريد أرينيوس أن يعطي الإشارة للطباخ المزيف على متن موناكسي". أنهى شارلوك كلامه بينما كان المركب يتجه نحو النهر والنسيمات تملأ الشراع، ثم وتابع: "إذا لم يصل أرينيوس إلى موقع التفجير فلن

يستطيع إعطاء الإشارة وبالتالي لن يحصل التفجير".
من الجزء الخلفي للمركب سأل هو فانغ يي: "لماذا يريد أن يعطي إشارة التفجير؟ لماذا لا يتم التفجير في وقت محدد متفق عليه مسبقاً؟".
فكر شارلوك للحظة وأجابه: "موناكسي سفينة كبيرة، ونحن نعلم أن المتفجرات مخزنة في براميل المياه التي لا تحتوي على مياه بالطبع، وهذا يعني أنها مخزنة في مكان ما بالقرب من المطبخ، في مكان عميق داخل السفينة، حيث يستطيع رئيس الطباخين المزيف أن يبقها تحت عينيه، وحيث يمكنه إشعال فتيل التفجير. ولكنه من مكانه داخل السفينة لن يستطيع معرفة موعد وصول الحاكم، لذا فهو بحاجة إلى شخص ما من خارج السفينة ليعلمه متى يجب عليه أن يشعل الفتيل. وهناك احتمال بأنه يقف أمام كوة منتظراً الإشارة".

فسأل كاميرون وهو ينظر إلى شارلوك من فوق كتفه: "ولكن، لماذا لا يستطيع شخص آخر غير أرينيوس القيام بذلك؟".

هز شارلوك كتفيه وأجاب: "ربما لا يثق أرينيوس بشخص آخر، وربما يريد أن يحد من عدد الأشخاص المتورطين بالمؤامرة؛ فكلما ازداد عدد المشاركين ازداد احتمال افتضاح أمر المؤامرة".

عندها قال كاميرون: "هناك شيء لا أستطيع فهمه؛ وهو ما كان دور والدي؟ وهل كان جزءاً من المؤامرة؟ أم إنه وجد نفسه فيها بطريقة أو بأخرى؟".

استغرق شارلوك بالتفكير قبل أن يقول: "من الواضح أنه كان جزءاً من المؤامرة، لكن من الواضح أيضاً أنه بدل رأيه. ربما كان دوره التوجه إلى أعلى النهر حيث ستسو السفينة وإعطاء الإشارة. أتذكر أنه كان يتحدث مع أرينيوس أثناء العشاء في منزلكم، وقد بدا الغضب على أرينيوس حينها، ربما لأنه قال له إنه لن يستمر في المؤامرة. أعتقد أنه وجد نفسه غير قادر على تحمل إثم خسارة الأرواح التي ستنتج عن التفجير. لذا أقدم أرينيوس على قتله، وقرر القيام بالمهمة التي كان قد أكلها إلى والدك بنفسه".

فسأل كاميرون بهدوء: "هل كان والدي في النهاية بطلاً؟ وهل أراد القيام بالأمر الصواب؟".

فرد عليه شارلوك: "صحيح، لقد كان بطلاً".
كان من المحتمل رؤية مركب أرينيوس الآن في النهر؛ فالشمس لم تكن قد بزغت تماماً في الأفق، والنجوم اختفت، وكانت السماء زرقاء داكنة

وليست سوداء. وكان النهر مزدحمًا بالمراكب التي قرر أصحابها بدء العمل باكراً.

سأل هو فانغ يي: "أي واحد من هذه المراكب هو مركب أرينوس؟".

فمسح كاميرون وشارلوك المراكب التي استطاعا رؤيتها بعيونهما، ورد كاميرون: "من المستحيل تحديد المركب الآن، فالعتمة لا تزال تسيطر، كما أن المراكب بعيدة جداً. إن كانت خطتنا تتمثل في محاولة اعتراض طريقه، فهناك احتمال كبير بعدم قدرتنا على القيام بذلك؛ فهو يسبقنا كما أننا لم نستطع حتى الآن رصد مركبه".

شعر شارلوك بقبضتيه تنكماشان من الإحباط؛ فالفرصة الوحيدة المتاحة أمامهم هي منع أرينوس من إرسال الإشارة. ولكن، إذا لم يستطيعوا رصده والقبض عليه، فأى فرصة يمتلكون؟

فيو أس أس موناكسي ستنفجر، والناس سيموتون، وهو لا يستطيع القيام بأي شيء للحيلولة دون ذلك. لقد شعر بعجزه.

لاحظ شارلوك مركباً استثنائياً يطفو خارج حشد المراكب. كان مركباً خشبياً طويلاً ورفيعاً ومظلياً بالأحمر البراق، وكان جانبه مزينين برسوم ذهبية، أما مقدمته فكانت عبارة عن رأس تنين محفور، وكانت أسنان التنين حادة، ومنخراه قمعي الشكل، وتدلّت جديلة غريبة من فكه. كان هناك عشرة رجال على متن المركب، ثمانية منهم يجذفون، وواحد يتحكم بالدفة في الخلف، بينما يجلس العاشر في الأمام ويضع طبله بين ركبتيه. أشار شارلوك إلى ذلك المركب وسأل: "ما هذا؟".

نظر كاميرون إلى حيث أشار شارلوك وقال: "يدعى مركب التنين. كل قرية تمتلك واحداً، وتقوم مراكب القرى بالتسابق مع بعضها بعضاً في المهرجانات".

فسأل شارلوك: "وهل هذه المراكب سريعة؟". فأجابه هو فانغ يي من الخلف: "جداً، انظر إلى عضلات المجذفين". نظر شارلوك إلى مركب التنين، فبدت له أذرع المجذفين أثخن من سيقانهم.

فسأل هو فن يي: "وماذا يفعلون هنا؟". فرد عليه هو فانغ يي: "إنهم يتدربون كل صباح قبل ذهابهم إلى العمل في الحقول. هناك احتفال كبير قادم". فقال شارلوك: "توجّه نحوهم، أريد التحدث إليهم".

حرك هو فانغ يي الدفة كي يتوجه قاربهم باتجاه مركب التنين، بينما لف كاميون وشارلوك الشراع كي لا يصطدموا بالمركب. نظر إليهم المجذفون والطبال بحشوية وفضول. فخطبهم شارلوك قائلاً: "نريد مساعدتكم، نريد أن نبلغ أعلى النهر بسرعة".

فحدق إليه الرجال. وقال متابعاً: "أستطيع أن أدفع لكم". ونظر إلى كاميون الذي أوماً، فتابع وسأل المجذفين: "كم تريدون منا لقاء ذلك؟". تشاور الرجال بسرعة، وأجابه الطبال: "عشر كاشات". فرد عليه شارلوك تلقائياً قائلاً: "موافق". وهو لا يعلم كم تساوي الكاش، ولكنه يعلم أنه بحاجة لمساعدتهم. فقال الرجال: "عشر كاشات عن كل واحد منكم". فنظر شارلوك إلى كاميون ثم أجاب: "موافق". وتنهد. إلا أن هو فانغ يي قال من الدفة: "ولكننا لا نستطيع ترك هذا المركب هنا كي لا يجرفه التيار".

أوماً شارلوك وقال: "سنترك ثلاثة من المجذفين على متنه، يمكنهم أخذه إلى الضفة، وسنسترده عندما نعود، وهذا ما سيترك لنا مكاناً لنجلس فيه على متن مركب التنين، كما أنني أخشى أننا سنضطر للتجديف". هزّ كاميون كتفيه وقال: "إنها تجربة جديدة. حياتي في هذه الأيام تبدو مليئة بالتجارب الجديدة".

في غضون دقائق قليلة، تبادلوا أمكنتهم مع ثلاثة من المجذفين على متن مركب التنين، وقام المجذفون الثلاثة بتوجيه مركب خال هو فانغ يي نحو ضفة النهر، وكانت المراكب الأخرى تمر بجانبهم. ألقى شارلوك نظرة على المجذاف الذي كان عريضاً من الأسفل، وكان مقبضه طويلاً، فرفعه كي يجربه، ثم نظر إلى الطبال الذي كان عارياً من الخصر وما فوق، وكانت عضلاته بارزة شأنه شأن المجذفين الآخرين، وكان شعره الأسود يتدلى على ظهره في ضفيرة. وقال له: "نحن جاهزون".

ابتسم له الطبال من دون أن يبعد أسنانه عن بعضها، ثم جلب طبلته بترو، وضرب عليها بالعصا، فصدر صوت عميق اهتز له المركب، ثم ضرب بعد ذلك مرة أخرى، فاستعد كل المجذفون. وما إن ضرب ضربته الثالثة حتى بدأ المجذفون بالتجديف بمن فيهم شارلوك وكاميون وهو فانغ

بي.

انطلق المركب إلى الأمام مسرعاً كالنار في الهشيم، فتطاير الزبد من جانبي المركب.

حرك الرجل الذي يتحكم بالدفة المركب نحو أعلى النهر، ودهش شارلوك من السرعة التي يتحرك فيها المركب؛ فقد كان مركب التنين يجتاز المراكب الأخرى بلمح البصر. لقد كان المركب يسير ثلاث إلى أربع مرات أسرع من سائر المراكب. في البداية، حاول شارلوك البحث عن أرينيوس، ولكن كان من المستحيل تمييز أي شيء بحد ذاته؛ فقد بدا كل شيء ضبابياً نتيجة دفع الصور المتتالية. ولم يلبث شارلوك أن شعر بالاستنزاف من التجذيف، وكانت عضلات ساعديه وكتفيه تؤلمه نتيجة الجهد غير المتوقع الذي يقوم به، فيما صدره المجروح يقطر سائلاً محرقةً كالنار، طرطشت المياه على وجهه، فأخذ يلحق شفثيه كي يرطب فمه، وأصبح صوت الطبله ينبض في أذنيه دوم دوم دوم.

نظر من فوق كتفه إلى حيث كان كاميرون يجلس خلفه قابضاً على فكه، وكان ينظر باتجاه شارلوك من دون أن يراه. بعد مرور بعض الوقت الذي ربما كان دقائق أو ساعات، سمع هو فانغ بي يناديه: "شارلوك، شارلوك".

فرد عليه بعد أن هز رأسه ليزيل تشوشه: "ماذا؟".

"ما هذا الذي أمامنا؟".

نظر شارلوك إلى الأمام، إلى ما وراء مقدمة المركب التنين، فوجد دولاباً عملاقاً يرتفع من المياه.

فقال بصوت أجش: "إنها موناكسي، لقد وصلنا إليها، أخبرهم بضرورة

التوجه نحوها".

كانت موناكسي راسية بالقرب من الضفة النهر، ومربوطة إلى دعامة خشبية، وكانت التلال ترتفع عند الضفة النهر، وعلى الضفة الأخرى من النهر كانت هناك أطلال حصن عسكري لم يبق منه سوى برج وبضعة جدران، ويحيط به الركام. انعطف مركب التنين وتوجه نحو يو أس أس موناكسي. لاحظ البحارة على متن يو أس أس موناكسي تقدّم المركب نحو سفينتهم فوجهوا أسلحتهم باتجاه المركب.

أشار شارلوك للطبال في مقدمة المركب، وطلب منه أن يخبر المجذفين بضرورة الإبطاء، ثم طلب منهم التوقف على بعد مئة ياردة من موناكسي. عندها، وضع شارلوك مجدافه أسفل المركب، وحاول بجهد الوقوف بثبات؛

فإن سقط في الماء الآن فلن تسعفه ذراعه المتعبتان على الطفو.
وصرخ بالإنكليزية مخاطباً البحارة على متن موناكسي: "أدعى شارلوك هولمز، أنا بريطاني وأريد التحدث إلى القبطان براين في أمر طارئ".
فصرخ أحدهم قائلاً: "لا تقترب، وإلا سنطلق النار".
"من الضروري أن أتحدث إلى القبطان براين".
حقيقة معرفته باسم القبطان تركت بوضوح انطباعاً جيداً لدى البحارة، فأخذوا يتشاورون في ما بينهم، وأخيراً قال أحدهم الذي بدا أنه ذو رتبة عالية.

"أنا الملازم أول ماكغريري، ما هي رسالتك؟".
فصرخ شارلوك: "هناك متفجرات مخبأة على متن سفينتكم".
"ماذا؟".
"هناك قبلة على متن سفينتكم".
جرت مشاورات إضافية على متن موناكسي ثم قال الملازم: "هل قلت إن هناك قبلة على متن السفينة؟".
"نعم، هذا بالتحديد ما قلته".
"تقدم نحو الدعامة، ولكن احذر، فأسلحتنا موجهة نحوكم. أي إشارة مثيرة للشك ستجعلنا نطلق النار".
أوماً شارلوك إلى المجذفين كي يتوجهوا بالمركب نحو الدعامة. كان من الواضح أنهم لم يفهموا ما قاله، ولكنهم يعلمون أن الأسلحة موجهة نحوهم، وكانوا متوترين.
تحرك مركب التنين بالقرب من الدعامة، وانتظر شارلوك إلى أن أصبح إلى جانب البنية الخشبية، ثم تسلق السلم المثبت على الجانب. بدت له موناكسي وكأنها جرف أبيض متسخ.
خاطب شارلوك كاميرون وهو فانغ يي قائلاً: "سأخطر القبطان براين بما حصل، وأنتما انتبها إلى أرينيوس؛ فهو ليس بعيداً جداً عنا، وأنا أكره أن يعطي إشارته بينما أكون على متن السفينة".
سأل هو فانغ يي: "ماذا يفترض بنا أن نفعل عندما نراه؟".
اقترح شارلوك: "اطلقوا تحذيراً، ثم اتبعوه".
قال كاميرون بضراوة: "لقد قتل أبي".
"وقتل أبي أيضاً. أستطيع التفكير بالكثير من الأشياء التي أريد أن أقولها له عندما أراه".
اقترح شارلوك مجدداً: "لا تقوموا بأي شيء، فنحن نحتاج إليه حياً في

النهاية لكي ندعم قصتنا. إن تمكنا من جلبه إلى متن السفينة فأنا أشك في أنه سيكون راجباً أو قادراً على إعطاء إشارة التفجير". عندها نظر إلى السفينة وجميع الذين ينتظرونه وقال: "تمنوا لي الحظ فرها ستكون المحادثة القادمة هي الأكثر أهمية في حياتي".

فرد عليه كامرون: "ورها ستكون الأقصر؛ إن كان أرينوس هنا ولم نتمكن من العثور عليه".

الفصل الخامس عشر

ما إن رفع شارلوك جسده إلى الدعامة الخشبية حتى أحس بأنه متعب كما لم يشعر قبلاً. فقد كانت كل عضلات جسده تؤلمه، وكان صدره ينبض ألماً في الأماكن التي خدشه فيها التمساح النهري. ما كان يريده حقاً هو الاستلقاء وأخذ قسط من الراحة، ولكنه كان يعلم علم اليقين أنه لا يمكنه الاستراحة الآن.

قاده جسر متحرك من الدعامة باتجاه موناكسي، كانت هناك مجموعة من البحارة الذين يرتدون زياً موحداً في الأعلى، وأوماً إليه أحدهم كي يصعد، لوهلة فكر أن يطلب منهم أن ينزلوا إليه، فهو لم يكن على ثقة بأن ساقيه ستمكثانه من التسلق، ولكنه يريد مساعدتهم، لذا من الأفضل أن يصعد إليهم.

عندما وصل إلى منتصف طريقه نحو السفينة شعر بأن ساقيه ترتجفان، وعندما وصل إلى الأعلى كان يسحب نفسه بيديه.

كانت هناك مجموعة من البحارة المسلحين تقف على سطح السفينة. لم تكن أسلحتهم موجهة نحوه بالتحديد، ولكنها لم تكن موجهة بعيداً عنه. ما إن التقط شارلوك أنفاسه حتى لاحظ أن القبطان براين يقترب، وكان ينظر إلى ساعته ويتكلم مع أحد الموظفين؛ لقد بدا مجهداً.

نظر شارلوك في الأرجاء، ولكنه لم يلاحظ وجود أي صيني على سطح السفينة. وبدا واضحاً أن أياً من أتباع الحاكم لم يصل بعد، ولكن بما أن القبطان كان ينظر إلى ساعته فقد ظن أن وصوله صار وشيكاً؟

أكدت كلمات القبطان براين ظنون شارلوك فقد قال: "أسرع أيها الفتى، إنني أتوقع وصول ضيوف مهمين في أي لحظة. هل لديك شيء تريد أن تخبرني إياه؟". وعبس عندما لمح وجه شارلوك وقال: "إنني أتذكرك. شاهدتك أثناء العشاء في منزل آل ماكينزي، ورأيتك مجدداً بالأمس عند رصيف الميناء".

أخذ شارلوك نفساً عميقاً وقال: "صحيح يا سيدي شكراً لأنك أتيت لرؤيتي. لقد مات مالكوم ماكينزي، أو بالأحرى قتل لأنه ذهب ليخبر الحاكم أن هناك مؤامرة تستهدف تفجير سفينتك".

سأل القبطان وهو يعبس: "لماذا يريد أحدهم أن يفجر سفينتي؟". ثم تابع قائلاً: "انس السؤال أستطيع أن أجد عدة أسباب؛ فالولايات المتحدة غير محبوبة في هذا الجزء من العالم".

فقال شارلوك: "يريد أحدهم أن يورط الحكومة الأميركية عسكرياً في المنطقة؛ الأمر له علاقة بالتجارة".

فرد عليه القبطان: "أليس الأمر هكذا دائماً". ونظر إلى الأسفل نحو الجسر المتحرك، وتفحص ساعته مجدداً.

"دوت صفارة، سيكون الحاكم هنا في غضون لحظات". فقال شارلوك: "وعندها سيحصل التفجير. سيعطي أحدهم إشارة إشعال الفتيل من مكان ما على الضفة".

فصرخ القبطان: "أين القنبلة؟". أمسك أحد الموظفين بذراع القبطان وهمهم شيئاً في أذنه، فهز القبطان رأسه وقال: "لا يهمني إن كنت أصدق هذا الفتى أم لا، ولكن إن كان هناك أدنى شك بوجود مواد متفجرة على متن السفينة فيجب أن تفتش. عدا عن ذلك، انظر إليه، كاد أن يموت قبل أن يصل إلى هنا، يبدو واضحاً أنه واثق من قصته".

"أعتقد أنها بالقرب من المطبخ. إنها مخبأة في براميل المياه، ولكن من الممكن أن أكون مخطئاً وتكون مخفية في أي مكان آخر".
"من وضعها؟".

"الطباخ الجديد".

تقدم القبطان الجمع، ونزل السلم، وتبعه بعض الموظفين. بالنسبة لشخص يسيطر على كل شيء على متن السفينة، بدا له أنه يهتم بالتفاصيل، وبدا أيضاً أنه يريد القيام بكل شيء بنفسه. تبعه شارلوك، ومشى الجميع عبر ممر، ثم نزلوا سلماً آخر، ثم ساروا عبر ممر آخر. حاول شارلوك أن يعرف في أي جهة من السفينة يتواجدون، وفي النهاية أدرك أنهم في الجهة الأخرى البعيدة عن الضفة.

دفع القبطان براين أحد الأبواب، ودخل قاعة كبيرة مليئة بالأفران والمغاسل وأسطح العمل والقدر المعلقة. تذكر شارلوك مطبخ هو تشانغ، ولكن هذه القاعة بدت أكبر بمئات المرات.

كان المطبخ خالياً، فرقع القبطان بأصابعه وأشار إلى اثنين من موظفيه وقال باقتضاب: "فتشا المكان".

في الجهة البعيدة من المطبخ، كان هناك باب يؤدي إلى منطقة التخزين. توجه القبطان نحوه برفقة شارلوك وباقي الموظفين، وفتح الباب ودخل.

كان من الواضح أنه مستودع معتم وينيره مصباحان يعملان على الزيت. كانت الرفوف تغطي الجدران حيث تتكدس صناديق المون، وكانت

الخضار والفاكهة معلقة من خطافات، بالإضافة إلى أفخاذ لحم البقر والغنم. وبعيداً كان هناك صف من البراميل، حيث صفت البراميل إلى جانب الحائط فوق بعضها بعضاً؛ باستثناء ثلاثة في النهاية.

قال القبطان للموظفين الباقين: "تفحصوا البراميل إن كانت خفيفة جداً أو ثقيلة جداً، وإذا اقتضى الأمر اثقبوها". ونظر حوله وقال: "أين الطباخ؟ أيدخن الأفيون في مكان ما؟! سأوثقه عما قريب".

وقف شارلوك والقبطان لمدة خمس دقائق وهما يشاهدان الموظفين ينقلون البراميل ويهزونها لكي يروا إن كانت تحتوي على سائل أو مواد صلبة... أخيراً، وبعد أن تم التدقيق في البراميل جميعها، تقدم موظف إلى حيث كان القبطان براين وشارلوك يقفان وقال: "لم نعثر على شيء". ونظر بسخرية إلى شارلوك وتابع: "تحتوي البراميل على ماء أو شراب أو لحم مملح".

استدار القبطان نحو شارلوك، وقال من دون أي تعاطف: "يبدو أنك كنت ضحية خدعة يا بني".

شعر شارلوك بقلبه يغور في صدره؛ فهو يعلم أن استنتاجاته صحيحة، ولكنه لا يعلم أين تمت تخبئة المتفجرات. ولكن، إن لم يستطع إيجادها قريباً، فستعطى إشارة التفجير وستدمر السفينة.

فسأله شارلوك: "لا أفترض أنك قد تفكر في إخلاء السفينة".

ضحك اثنان من الموظفين بصوت عالٍ.

فسأله القبطان براين: "فقط بالاستناد إلى مزاعمك؟ أخشى أنني لا أفكر بالأمر يا بني، كما أن ذلك سيشكل إهانة للحاكم الذي سيصل في غضون لحظات".

تمنى شارلوك لو كان باستطاعته رؤية الضفة البعيدة؛ في حال كان أرينيوس في الخارج مستعداً لإعطاء الإشارة. فرمما سيقننق القبطان بأن هناك خطباً ما عندما يرى أرينيوس الذي كان في حفلة العشاء ويتذكره. ثم لاحظ شارلوك أنه ما من كوة في المخزن؛ بالرغم من حقيقة أنه يعتقد أنهم في الجهة الصحيحة من السفينة.

عندها سأل شارلوك: "ألا يفاجئك أن هذا المخزن يبدو أصغر مما يفترض به أن يكون عليه؟".

نظر الموظفون والقبطان حولهم بإحراج، ثم نظر كل منهم إلى الآخر، وتعابير الحيرة تعلو وجوههم. وبعد ذلك، قال أحدهم محتاراً: "صحيح، لم ننتبه إلى ذلك قبل أن تشير إليه".

أشار شارلوك إلى الحائط البعيد حيث كانت البراميل مكدسة وقال: "أعتقد أن هذا الحائط مزيف، وأن المتفجرات مخبأة خلفه".

حدّق موظفان إلى بعضهما بعضاً، ثم بدأ العمل بواسطة العتلات. كان شارلوك محقّقاً، ولم يستغرق هدم الجدار المزيف أكثر من دقيقة. خلف الجدار المزيف كانت هناك مساحة بعمق ست أقدام، وكانت مليئة بالبراميل، وعندها لم يفكر شارلوك في أنها مليئة بالمياه والشراب واللحم المملح. فقد كان هناك حبل يخرج من كل برميل، وكانت كل الحبال تجتمع معاً في جديلة، وتمتد إلى مسافة معينة. وتحت إحدى الكوات التي يدخل منها وهج، كان هناك رجل صيني جاثم يرتدي ثياب طبّاخ، وكان يمسك بجديلة الفتائل بيده، ويعلو وجهه تعبير ينم عن الرعب، وإلى جانبه على الأرض كانت هناك علبة من أعواد الثقاب. صرخ القبطان براين بأعلى صوته: "ألقوا القبض عليه، وبالله عليكم، انزعوا الفتائل من البراميل قبل أن تحدث كارثة".

حاول الطباخ الصيني الهرب، ولكن اثنين من الموظفين ألقوا القبض عليه، وأخرجاه من المخزن، بينما قام موظف آخر بالتقاط علبة الثقاب، فيما كان الباقون ينزعون الفتائل من البراميل. "كيف استطاع بناء الحائط وحده؟". سأل براين محتاراً وتابع: "وكيف كان سيهرب بعد أن يشعل الفتيل؟ من المؤكد أنه لم يكن يريد التضحية بنفسه؟".

أجابه شارلوك: "أشك في أنه كان ينوي التضحية بنفسه". وأشار إلى زاوية المنطقة التي كان يختبئ الرجل فيها. وقال: "أعتقد أن هناك باباً مخفياً، وتذكر أنه كانت هناك مساحة خالية من البراميل. أعتقد أنه كان ينتظر الإشارة لكي يشعل الفتيل، ثم يهرب من المخزن ويغلق الباب خلفه، ثم يقفز إلى المياه ويسبح بعيداً".

سأل القبطان وهو ينظر إلى الحائط المزيف: "وهل بنى هذا بمفرده؟". أشار شارلوك إلى الحائط قائلاً: "لم يكن يجدر به بناء حائط متين؛ فقد كانت البراميل تغطيه. ربما قام بجلبه قطعاً".

"يا بني، إني مدين لك بالشكر العميق، فمن دون جهودك كانت هذه السفينة ستتحول إلى كتلة من الحطام المشتعل، وكان المئات سيفقدون أرواحهم".

فرد عليه شارلوك بهدوء: "وكانت الحرب ستتشب". توجه نحو الكوة، ونظر إلى الخارج. كان باستطاعته الرؤية إلى مسافة بعيدة عبر النهر، ورأى

قارباً مزوداً بفانوسين ويمتلك صارية، وكان القارب مقيداً إلى جانب الضفة بالقرب من أطلال الحصن.

عندئذ سأل شارلوك بسرعة: "سيدي، هل لديك قارب تجذيف صغير يمكنني استعارته؟".

بعد عشر دقائق، كان شارلوك ينزل على السلم الموجود عند جانب موناكسي ويخطو إلى القارب الذي أنزل من السفينة بواسطة الحبال. أراد القبطان براين أن يرسل أحداً معه، ولكن الحاكم وصل مع حاشيته، وكان بحاجة إلى الجميع. وبينما كان الزائر المهتم يصل إلى الجسر المتحرك الذي يربط السفينة بالضفة، تسلل شارلوك سراً من الجهة البعيدة من السفينة. كانت ذراعاه تؤلمانه، ووجد أن التجذيف عبر النهر يرسل نبضات ألم حادة في صدره وظهره. جذب شارلوك بعرض النهر؛ أي من ضفة باتجاه الأخرى، وهذا يعني أنه كان يتوجب عليه أن يتوقف بين الحين والآخر ليفسح الطريق للمراكب الآتية من أعلى النهر وأسفله. إن التجذيف من جهة لجهة وعرقلته حركة مرور المراكب جعله عرضة للشتم من قبل أصحاب المراكب.

حاول البحث عن كاميرون وهو فانغ يي ولكنه لم يجد لهما أثراً، فإذا كانا لا يزالان ينتظران السيد أرينوس فهما ينتظرانه في المكان غير الصحيح.

أخيراً، وصل شارلوك إلى ضفة النهر الأخرى، وترجل من القارب وربطه. سار على مضض عبر الوحل، ووقف قبالة أطلال الحصن الحجري. في الحقيقة، لم يكن يرغب في المتابعة، فقد كانت كل عضلة في جسمه على وشك الاستسلام، وكانت الجروح البليغة في صدره تنزف دماء بسبب التجذيف بعد أن تخثر الدم. وكان رأسه يؤلمه بسبب الركلة التي وجهتها له الفتاة، وكانت رؤيته ضبابية عند جانبي عينيه. ولكن، بالرغم من كل ما تقدم، كان يعلم أنه يجب عليه المتابعة وإلا تمكن أرينوس من الهرب، وهذا ما لا يجب أن يحدث؛ خاصة بعدما قتل صديقه هو تشانغ ووالد كاميرون.

فكر شارلوك بأن القيام بالأمر الصحيحة أكثر صعوبة من القيام بالأمر غير الصحيحة، وربما كان القيام بالأمر الصحيحة الشيء الأكثر صعوبة على الإطلاق في هذا العالم.

لم ينظر إلى الأمام ليرى ما ينتظره، بل سار حول الجدران نصف المدمرة حتى وصل إلى ممر مقنطر الذي يقود إلى داخل الحصن.

كان العشب نامياً بين الحجارة، ولم يكن هناك سقف، وبالكد كانت الجدران الباقية أطول منه، وكانت هناك فجوات في العديد من الأماكن، وقد أدى مرور الزمن وتقلبات الطقس إلى تفتت الملاط الذي يجمع بين حجارة الجدران.

وجد شارلوك جنديين صينيين ملقيين على الأرض في الغرفة الأولى التي وصل إليها؛ وكانت عبارة عن قاعة كبيرة. جثا شارلوك بالقرب منهما فوجدهما فاقدى الوعي، ووجد جروحاً بليغة نازفة في جمجمتيهما. ظن أنهما حارسا الحصن، أو ربما يكونان جزءاً من الفريق الذي نشر على طول ضفتي النهر من أجل تأمين سلامة الحاكم الذي يزور السفينة.

أياً يكن سبب تواجدهما، فقد كان حظهما سيئاً. لم يكن أي منهما يحمل سلاحاً، وهذا ما أقلق شارلوك، فقد توقع أن يكون أرينيوس قد استولى على أسلحتهم بعدما تغلب عليهما.

بعدما تأكد من أن كلا الجنديين فاقدى الوعي، تحرك عبر الممر المقنطر ودخل غرفة أخرى.

كانت الغرفة التالية أكبر من الأولى، وكان أرينيوس هناك، واقفاً أمام نافذة عديمة الزجاج، وهو ينظر إلى النهر، حاملاً بيده مصباحاً يقوم بفتح مصراعه وإغلاقه بتتابع منظم؛ حيث كان يرسل وميضه باتجاه يو أس أس موناكسي.

ولكن شيئاً لم يحصل.

قال أرينيوس بنبرة صوت عالية ومن دون أن ينظر إلى الخلف: "أعتقد أنك تمكنت من إخطار طاقم السفينة بوجود المتفجرات، وأعتقد أن الطاقم تمكن من العثور عليها؛ بالرغم من الطريقة المبتكرة التي أخفيت فيها. كما أعتقد أنه تم إلقاء القبض على العميل الذي سيشعل الفتيل. لقد توصلت إلى كل هذه الاستنتاجات لأن التفجير لم يحصل، بالرغم من رؤيتي لحاشية الحاكم على سطح المركب، وبالرغم من أنني أرسلت الإشارات منذ خمس دقائق". وضع المصباح على حجر موجود على حافة النافذة، واستدار ليواجه شارلوك وتابع: "لقد أخبر العميل أن احتراق الفتيل يستغرق خمس دقائق، وهذا ما يتيح له فرصة الهرب. ولكن، في الحقيقة يستغرق احتراق الفتيل ثلاثين ثانية فقط؛ فخمس دقائق مدة طويلة، وقد يتمكن أي كان من اكتشاف الأمر".

فقال شارلوك: "الأمر لم يعد مهماً الآن".

تنهد أرينيوس وقال: "على الإطلاق. أنت حقاً فتى مؤثر. لا يمكنك أن

تصدق مقدار الوقت والجهد اللذين استلزمهما إعداد هذا المخطط، ثم أتيت أنت وأفسدت الأمر برمته؛ فقط بالاستناد إلى ملاحظتك واستنتاجاتك". بحث خلفه، حيث شاهد شارلوك شيئاً مستنداً إلى الجدار، وتابع أرينيوس: "أنت حقاً مؤثر ومثير للمشاكل، وأعتقد أنني سأريح العالم من إزعاج التعامل معك في المستقبل بأن أقتلك الآن. فهذه الطريقة أكون قد أنجزت شيئاً اليوم عوضاً عن أن أخرج خالي الوفاض".

وأظهر يده التي كانت خلف ظهره فبدا أنه يحمل عصا خشبية تنتهي بشفرة معدنية حادة، ربما حصل عليها أرينيوس من أحد الجنديين. عندها قال أرينيوس: "أرجوك، قاوم أو حاول الهرب، فهذا سيجعل من العملية أكثر متعة بالنسبة إلي".

"ماذا حصل للفتاة؟". سأله شارلوك وهو يخطو إلى إحدى الجهتين. وقد هدف من سؤاله هذا إلى تشتيت انتباه أرينيوس وتأخير الهجوم، وقد وجد شارلوك أن هذا أفضل خيار متاح له.

لقد كان أفضل خيار متاح من بين مجموعة من الخيارات التي كان معظمها لا يرضيه، ولم يكن دماغه قادراً على إضافة خيارات أخرى إليها. استدار أرينيوس ببطء لكي يهاجم شارلوك وهو يحمل سلاحه أمامه؛ وكأنه جراد في فترة استراحة، ورد عليه: "ابنتي، أظن أنها في مكان ما هناك على النهر؟".

"ألا تهتم لأمرها؟".

"كلما كبرت صارت عنيدة أكثر. الأمر برمته مسألة وقت قبل أن تتركني، ولكن السؤال الوحيد الذي كان يشغل تفكيري هو: هل ستقتلني أو ستغادر أولاً؟ وبما أنها هجرتني الآن- بسببك بالطبع- فقد حصل أمر حسن، وتمت السيطرة بشكل مسبق على أمر لا يمكن تجنبه". هز شارلوك رأسه وقال له: "ولكنها ابنتك!".

هز أرينيوس كتفيه وأجابه: "لم أكن لها مشاعر أبوية، لقد توفيت والدتها أثناء المخاض، وتأثر نموها بتناولي غبار الفضة وزيت الخروج، وقد كنت أزودها بالفضة هي أيضاً. لم تكن يوماً فتاة طبيعية كسائر الفتيات، وأخشى أنها لن تكون سعيدة عندما تكبر". وخطا نحو شارلوك وهو يلوح بالشفرة أمام ساقيه.

سقط شارلوك إلى الخلف، وأصدرت الشفرة صوتاً عندما مرت على بعد إنش بالقرب منه. ناور شارلوك بقدميه، ودفع نفسه إلى الأعلى وباتجاه الأمام بواسطة معصميه، ولكن أرينيوس اندفع نحوه بسرعة وهو يوجه

الشفرة باتجاه رأسه.

تدحرج شارلوك إلى جانبه، فضربت الشفرة البلاط. ونظراً إلى قوة الضربة، صدرت شرارات من البلاط واندفعت باتجاه الأعلى، وأحس شارلوك بلسعتها على وجهه.

بدا أرينيوس مصدوماً للحظة من جراء الارتجاج الناجم عن اصطدام الشفرة بالبلاط، وتلوى وجهه من الألم، فاستغل شارلوك الفرصة ليتراجع. حمل أرينيوس العصا كما لو أنها سيف، وأراد طعن شارلوك بها، وقد صوّبها هذه المرة نحو قلبه. لم يكن لدى شارلوك وقت طويل ليقرر ما يجب عليه فعله، فقرر أن الخيار الأمثل يتمثل بانقضاضه على قدمي أرينيوس، فجعل جسده على شكل كرة بقدر ما استطاع، واندفع نحو غريمه. حاول أرينيوس تفاديه وذلك بالقفز من فوقه، لكن شارلوك صدم قدميه قبل أن يتمكن أرينيوس من القفز، ودفعه أرضاً فسقط على يديه وركبتيه.

إنه قرب الحائط الآن، ذلك الحائط حيث الفجوة التي تطل على النهر. تمكن شارلوك من رؤية سيف على الأرض حيث كان أرينيوس يقف. لا بد أن أرينيوس قد استولى عليه من الجنديين. التقطه شارلوك واختبر وزنه بيده. كان لحدده شكل غريب مقارنة بالسيوف الأوروبية التي اعتاد استخدامها، ولكنه فكر بياس أن لا خيار آخر أمامه.

تقدم شارلوك وهو يحمل السيف بيده نحو الأمام وقلبه يضرب بعنف.

استعاد أرينيوس العصا فجأة، وحاول أن يطعن بواسطة نهايتها الكليية صدر شارلوك الذي تصدى لذلك بواسطة السيف، وتمكن من اقتطاع قطع كبيرة من الخشب من عصا أرينيوس. ولكن إحدى الطعنات أصابت قفصه الصدري، وأحس بقلبه يتوقف، وترنح إلى الخلف، وهو يحاول بياس التقاط أنفاسه.

فجأة، لوح أرينيوس بالعصا، ووضع الشفرة أسفل جبهة شارلوك الذي رفع سيفه بيديه وتصدى للشفرة، ولكنه نظراً لقوة الهجوم جثا على ركبتيه. استخدم شارلوك كل قوة لديه كي يستطيع الوقوف مجدداً على قدميه، ودفع شفرة أرينيوس إلى الخلف. وللحظة طويلة، وقفا جامدين كتمثالين، وكانت عضلات شارلوك تصرخ من فرط الاجهاد. وبالتدرج، دفع أرينيوس شفرته بالقرب من وجه شارلوك الذي تمكن من رؤية لمعان الشفرة، كان وجه أرينيوس يتلوى، وكشفت شفتاه الداكنتان عن أسنان

لامعة كالمعدن، وكانت قزحيتها داكنتين.
نخر شارلوك وقال: "أعتقد أن تناولك غبار الفضة جعلك مخبولاً. لقد
سدت الفضة دماغك وأصابته بالصدأ. فأنت لا تفكر كالبشر، ولا تهتم
للناس، حتى إنك لا تهتم لأمر ابنتك."
هسهس أرينيوس وقال: "إليك أخباراً جديدة؛ المشاعر لا تسدد الفواتير،
فقط الفضة تقوم بذلك".

تراجع فجأة إلى الورا وسحب عصاه، وطعن بها باتجاه الأسفل،
باتجاه ركبتى شارلوك الذي تصدى للطعنة، وتردد صدى الشفرتين بين
جدران الحصن الحجرية.

تراجع أرينيوس خطوتين إلى الخلف، ولم يبد عليه أنه يتنفس
بصعوبة. في الحقيقة، كشفت شفاته الداكنتان عما يشبه ابتسامة، ولكن
رثتي شارلوك كانتا تحترقان نتيجة الجهد الذي كان يبذله.

عندها، قال أرينيوس بهدوء: "استسلم أيها الفتى. يمكنك أن تستمر
بالمواجهة، ولكنني سوف أقتلك في النهاية. كما يمكنك أن تستلقي وترمي
السيف الآن وسأقتلك أيضاً. في كلتا الحالتين سوف تموت، ولكن يمكنك أن
تخفف عن نفسك الألم الناجم عن طول المواجهة".

أجاب شارلوك من بين أسنانه المطبقة: "لقد قتلت صديقي، كما قتلت
والد صديقي الآخر".

فرد عليه أرينيوس: "لم أقتل أيّاً منهما، أو بالأحرى لم أقتلها مباشرة،
بالرغم من أنني أؤكد لك أنني خططت لعمليتي قتلها ونظمتها". توقف
لبرهة قبل أن يتابع: "لا أعتقد أنني قتلت أحداً مباشرة". صمت قليلاً
وابتسم ثم تابع: "سابقاً، ولكنني سأقوم بذلك، الآن للمرة الأولى. إنني
متحمس كي أرى الشعور الذي يصاحب عملية القتل، كما أنني ممتن لك
لأنك أتحت لي هذه الفرصة".

فرد عليه شارلوك: "أهلاً بك. ولكن، لا تتوقع أن يكون الأمر سهلاً".
قام أرينيوس بتحريك شفرة العصا قليلاً، وقال: "ما من شيء يستحق
العناء يكون سهلاً على الإطلاق. الآن، ألا يجب أن ننهي المهمة؟ عندما
فشل مخطط تفجير يو أس أس موناكسي خسرت مئات آلاف الدولارات،
ويجب عليّ البدء ببناء جسور دبلوماسية مع الذين استخدموني إن كنت
أريد الاحتفاظ بعملي".

فتح شارلوك فمه ليقول شيئاً أخرق من أجل تأخير المصير المحتوم،
ولكن أرينيوس حرك العصا فجأة، وصوب الشفرة نحو وجه شارلوك. أمسك

شارلوك بسيفه لصد الضربة، ولكن قوتها أوقعته جانباً، فاصطدمت كتفه بالجدار، وسقط السيف من يديه وقعق على الأرض بعدما تخدرت أصابعه. عندها، قال أرينيوس: "إلى اللقاء يا سيد هولمز". وركل السيف مبعداً إياه، ثم حمل أرينيوس العصا كالرمح ووجهها نحو قلب شارلوك. شعر شارلوك بالبرد وبظهره يتصلب كالحجر. لقد بدا وكأن الرمح يمتص الدفء منه ومن حياته أيضاً.

ترك شارلوك يديه تسقطان إلى جانبيه، فقد بدا واضحاً أن اللعبة قد انتهت.

أحست أصابعه بوجود شيء ما في جيبه الأيمن، كان حاد الحواف ومعدنياً. أدخل شارلوك يده داخل جيبه، واقتربت أصابعه من ذلك الشيء، وأحس بحوافه الخشنة، وشعر فجأة بومضة أمل.

وقال: "إلى اللقاء يا سيد أرينيوس".

أخرج ذلك الشيء من جيبه، ورفع بوجه أرينيوس، وبحركة سريعة من أصابعه شغلّ نابض الميكانيكي، وفتح الفك على وسعه، وتمكن إبهامه من إيجاد الكرة المطاطية، ودفعتها بقوة.

انطلق سمّ الأفعى إلى مسافة بضعة إنشات بشكل متقوس وتقطر على عيني أرينيوس. صرخ أرينيوس وألقى العصا جانباً، ووضع يديه على عينيه، وترنح إلى الخلف، وأخذ يصرخ.

صرخ أرينيوس قائلاً: "اقتلني رجاء. إنني أتوسل إليك، إنني لا أستطيع تحمل الألم".

فرد عليه شارلوك: "لا أستطيع القيام بذلك بدم بارد مثلك".

انهار أرينيوس على ركبتيه، وأخذ يتلوى ويصرخ ويبيكي، ثم سقط إلى الأمام، وكان وجهه يواجه بلاط أرض الحصن المدمر. أخيراً، توقف عن الحركة، عندها استدار شارلوك وابتعد.

الفصل السادس عشر

بعد ثلاثة أيام، كان شارلوك جالساً على قفص فارغ على رصيف الميناء، ينظر إلى غلوريا سكوت. كان البحارة الأوروبيون والصينيون الذين يعملون على متنها يجدون بالعمل كالنمل؛ فيتفحصون الحبال والأشعة وينقلون البراميل والأقفاص والصناديق عبر الجسر المتحرك. وقف كاميرون إلى جانبه وقال: "ستبحر في الغد". ردّ عليه شارلوك: "أعلم ذلك".

"وهل ستبحر على متنها؟".

أوماً برأسه وقال: "فكرت بالبقاء هنا، ولكن هناك الكثير من الأشخاص الذين ينتظرونني في ديارى: أخي، وأصدقائي...". وأكمل هو فانغ يي من الجانب الآخر: "وتلك الفتاة التي لا تتحدث عنها أبداً".

فسأله شارلوك: "إذاً، كيف علمت بأمرها ما دمت لا أتحدث عنها؟". فرد عليه هو فانغ يي بطريقة لا تقبل الجدل: "لأنك عائد إلى ديارك. فلولا أن تلك الفتاة التي تنتظرك لما فكرت بالعودة". استدار شارلوك ونظر إلى كاميرون وسأله: "ماذا بشأنك؟ هل ستبقى هنا في شانغهاي؟".

هزّ كاميرون كتفيه وقال أخيراً: "أشك في ذلك. أعتقد أن أمي تريد العودة إلى أميركا، ويجب عليّ أن أعود معها. إنني أرغب برؤية أميركا، والتأكد إن كانت كبيرة كما يصفونها".

عندها، استدار شارلوك مجدداً نحو هو فانغ يي وسأله: "وأنت، هل ستبقى هنا؟".

فأوماً الفتى الصيني وقال: "أمي تحتاج إليّ؛ فلم يبقَ لديها أحد غيري. سأبقى، وربما أتعلم الطبخ مثل والدي، وربما أقوم بشيء آخر. تريدني أمي أن أتقدم لامتحانات الخدمة المدنية، ولكن هذا يتطلب الكثير من المال ويستغرق وقتاً طويلاً".

عندها قال كاميرون: "ولكن، إذا اجتزت الامتحانات فستبني مستقبلاً رائعاً لك، ولن تقلق بشأن المال طوال حياتك".

ابتسم هو فانغ وأوماً قائلاً: "سيكون أبي فخوراً بي، إذا...".

عندها قال كاميرون: "نعم. إذا...".

بدوره قال شارلوك: "راسلني إذا استطعت. سأعطيك عنواني".

جلس الفتیان الثلاثة لبعض الوقت هناك بصمت، وأخذ كل منهم يفكر بأموره الخاصة.

أخيراً، سأل كامیرون: "هل يريد أحدكما تناول الغداء؟ إنني أتضور جوعاً".

فرد هو فانخ يي: "في وقت مبكر اليوم، جلب أحد مراكب الصيد كمية من الحبار. الحبار المقلي مع الزنجبيل وصلصة الصويا لا يقاوم".
"هل هو أفضل من البيض واللحم المقدد؟".
"بكثير".

وقف كامیرون وهو فانخ وسألا شارلوك: "هل ستأتي معنا؟".

فأجابهما: "سألحق بكما بعد قليل. احتفظا لي ببعض الحبار؟".

ابتعد الفتیان وهما يتجادلان ويتدافعان. وعندما شاهدهما شارلوك على هذه الحال علت وجهه ابتسامة، إذ لم يخطر بباله أن يجد أصدقاء جيدين مثل ماتي وفرجينيا، ولكنه وجد بالفعل، وربما سيجد أصدقاء دائماً حيثما حل في ترحاله.

أخذ شارلوك يفكر في مغامراته التي سيرويها لماتي عندما يعود إلى إنكلترا؛ فكر بالرحلة، وبالعاصفة المدارية، وبهجوم القراصنة، وبتجاربه في شانغهاي، وبما حصل له ومعه في نهر يانغتزي. لقد كان هناك الكثير من الأمور التي يمكنه أن يخبرهما بها.

كان هجوم القراصنة لا يزال يزعجه؛ وخصوصاً الطريقة التي كان القرصان يبحث فيها في مقصورة السيد أرينيوس. كان من الواضح أنه يبحث عن الرسالة المشفرة. الموجهة إلى مالكوم ماكينزي. لقد كان القرصان يعرف جيداً ما يبحث عنه؛ وهذا ما جعله يفترض أن هجوم القراصنة بأكمله كان يهدف إلى الحصول على الرسالة. ولكن، من يمتلك القدرة على التأثير في القراصنة لكي يهاجموا سفينة تجارية بهدف الحصول على رسالة؟
بالطبع بارادول تشامبر.

فقد اختطفته هذه المنظمة في المقام الأول، ووضعت على متن غلوريا سكوت. وقد افترض شارلوك أن أعضاء هذه المنظمة قاموا بذلك لكي يثاروا منه بسبب تدخله في خططهم. ولكن، ربما خطفوه لسبب آخر؛ ربما علمت بارادول تشامبر بمؤامرة تفجير السفينة الأميركية، وأرادت الحيلولة دون حصول ذلك؛ إذ ربما لا يناسبهم نشوب حرب بين أميركا والصين وقرروا التدخل.

ولكن، ما هو السبب الحقيقي الذي دفع بارادول تشامبر لوضعه على

متن غلوريا سكوت؟ هل كان يعمل من دون أن يدري لصالحهم طوال الوقت؟! ولكن، ألم يكن باستطاعتهم توقيف المؤامرة بطريقة أخرى؟ فهم لم يكونوا بحاجة إلى صبي بريطاني وقرصنة صينيين للقيام بذلك. ابتسم شارلوك. أياً يكن الأمر، لقد تمكن بمساعدة هو فانغ وكامبيرون من إنقاذ الأرواح والحيلولة دون نشوب حرب. وليس مهماً من كان يسعى وراء ذلك، فقد قاموا ثلاثتهم بالأمر الصائب.

"اعذرنى".

نظر شارلوك إلى الأعلى، فقد كان هناك رجل يقف أمامه، وكان يرتدي زي البحارة، وقد قدّر بالنظر إلى ملابسه البالية بسبب أشعة الشمس، والملح الذي يغطيها، وبشرته المملوغة بأشعة الشمس أنه قد ترجل لتوه من السفينة. نظر شارلوك إليه من الأعلى إلى الأسفل، وتعرف عليه بسرعة؛ فقد كان من مواليد يوركشاير ولكنه يعيش في لندن، ولديه خمسة أولاد، وأمه لا تزال على قيد الحياة بعكس والده الذي توفي منذ فترة قريبة.

فرد عليه بتهذيب: "تفضل؟".

"هل أنت هولمز؟ شارلوك هولمز؟".

عندها، وقف شارلوك وقال: "نعم، أنا هو".

عندها، مد الرجل يداً يحمل بها مغلفاً مطويًا طويات عدة، وكان متسخاً وعليه بقع من الدهن، ومنتقعاً بالماء، ومختوماً بالشمع وقال: "هذا لك، لقد جلبته من إنكلترا".

فجأة، أصبح فم شارلوك جافاً، وأحس بقلبه ينبض أسرع مما كان ينبض عندما كان يتعارك مع السيد أرينيوس وقال: "شكراً لك". ومد يده ليأخذه، بينما بحث بيده الأخرى داخل جيبيه وقال: "لحظة من فضلك".

هزّ الرجل رأسه وقال: "لا تقلق بشأن المال. لقد دُفع لي مسبقاً كي أوصله إليك. إنني أعمل مع شقيقك منذ سنوات عدة، وأسافر عبر العالم في مهمات من أجله. وقد طلب مني ألا آخذ المال منك، وأن أخبرك أن تحافظ على أموالك إذا كنت تأمل بالعودة إلى المنزل قطعة واحدة".

ضحك شارلوك، فقد قلّد البحار شقيقه على نحو جيد. فردّ عليه قائلاً: "شكراً لك. إنني أقدر صنيعك ونصيحتك".

عندها، نظر البحار حوله وسأله: "لقد مكثت هنا لفترة، فهل يمكنك أن تقدم لي أي نصيحة؟".

فرد عليه شارلوك: "بالتأكيد. الحبار هنا جيد جداً".

عبس البحار وأوماً برأسه وابتعد، ولاحظ شارلوك أن قدميه لم تكونا ثابتتين على الأرض، ربما لأنه مر وقت طويل قبل أن يسير على اليابسة. بيدين مرتجفتين أكثر مما كان يتوقع، فتح شارلوك المغلف، وأخرج منه رسالة ومغلفاً آخر. وضع المغلف الأصغر جانباً. لكي يفتحه لاحقاً، وبدأ بقراءة الرسالة.

عزيزي شارلوك

هذه واحدة من رسائل عديدة أرسلتها إليك مع أشخاص عديدين على طول مسار رحلتك؛ على أمل أن تصلك إحداها. إذا تلقيت أكثر من واحدة من هذه الرسائل، فأرجو ألا تهدر وقتك بالاطلاع عليها؛ فهي كلها متطابقة. وقبل أن تسألني، أريد أن أخبرك أنني كتبتها كلها شخصياً، ولم أَدع مساعدي يقوم بنسخها. إنه عمل متعب، ولكنني أظن أن هذا أقل ما يمكنني القيام به من أجل إظهار تقديري للتجارب الصعبة التي ما من شك أنك تمر بها؟

أستاذك السيد غروي وعمتك وعمك وصديقك ماتي وفرجينيا، طلبوا مني جميعاً أن أوصل لك تحياتهم. وقد طلبت مني فرجينيا على وجه الخصوص أن أرفق رسالتها مع هذه الرسالة، وأنا أعتقد أنه يجدر بي تحضيرك لما هو مكتوب فيها. لقد مر وقت طويل على غيابك - على الأرجح أكثر مما تظن - وقد تغيرت الأشياء. لقد اضطر السيد غروي لتعليم بعض التلاميذ، وقد انجذبت فرجينيا نحو أحدهم؛ وهو ابن رجل أعمال أمريكي يعمل في غيلفورد. ويدعى ارون ويلسون جونيور، وقد طلب منها الزواج. وأنا آسف لأنني أخبرك أنها وافقت ...

أخفص شارلوك الرسالة بيدين مرتجفتين، وحمل المغلف الآخر. كانت الكتابة عليه ناعمة وبخط أنثوي. منذ دقيقة خلت، كان يعلم أن الرسالة من فرجينيا، ولم يكن هناك شيء في هذا العالم يحول دون رغبته بقراءتها. ولكنه الآن بعد أن قرأ رسالة مايكروفت صار آخر شيء يود القيام به هو فتح رسالة فرجينيا.

لكن الوقت تأخر كثيراً؛ فقد وصلت الرسالة وخرج المارد من القمقم. ابتلع شارلوك لعابه، وهدق إلى غلوريا سكوت التي كانت تستعد لرحلة العودة، وتساءل: كيف يمكن لكلمات قليلة أن تغير عامله بشكل كامل؟ وكيف يمكن لشخص يبعد عنه كل هذه المسافة أن يحطم فؤاده؟ ببطء غضن رسالة مايكروفت التي لم يمه قراءتها، وطوى مغلف فرجينيا، وهدق إلى الحركة المحمومة على رصيف الميناء من دون أن

يتمكن من تمييز أي شيء.

تمت
بحمد الله